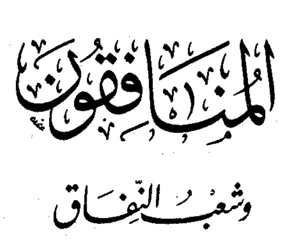
المنافقون

وشُعَب النِّفاق

حسن عبد الغني
المحامي



الدوحة - قطر
ص.ب ٣٢٣


المنافقون
وشعب النفاق

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



تقديم وتصدير

أحمدك الله ربنا وأثني عليك الخير كله ، اشكرك ولا أكفرك وأخلع وأترك من يفجرك ، وأصلي ، وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وبعد

فلقد غاب عن ذهن البشر عامة ـ إلا قليلاً ممن هداهم الله ـ أن الحضارة العارية عن الأخلاق إنما هي الخراب والدمار .

ولقد نظرت إلى أحوال الناس والأمم فوجدت أن النفاق هو الساهر على حماية أهدافهم ومصالحهم ، وأن الأخلاق قد هجرت حياتهم وأن الفضيلة تتهاوى تحت أقدامهم . ثم نظرت إلى من يحملون لواء الدعوة الأسلامية ومن يتحملون أعباء الدعوة إلى الحكم بكتاب الله تعالى ، فوجدت أن الأفاعي المتنكرة في ثياب الملائكة قد أحاطت بهم توسعهم لدغاً وإيلاماً . وإذا كان من الناس من يستطيع أن يتصيد الأفاعي الحيوانية ، فأنّى لنا بمن يستطيع أن يتصيد تلك الأفاعي البشرية ؟

لقد وقفت عند قول الله تعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » . فوجدت أن توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ وجماعته إنما يدل على أن رجال الدعوات والمبادىء هم في جميع الأحوال أو معظمها

الهدف الأول والميدان الرئيسي لهذه الأفاعي وتلك الفئة الملعونة من البشر وهي المنافقون ، غير أن النبي ﷺ قد اعانه الله تعالى على كشف هؤلاء المنافقين عن طريق الوحي الذي يتنزل كلما دعت الحاجة الى ذلك . فأنّى لنا اليوم بجبريل لينزل بأسماء المنافقين بيننا ؟

لقد فكرت في هذا كثيراً ، وما كان تفكيري ليستمر ، وما كانت حيرتي لتطول ، حتى هداني الله إلى الحقيقة التي كانت تغيب عن ذهني وذهن الكثيرين .

لقد هداني الله إلى ضالتي في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم) .

لقد تلقفت هذه الحقيقة تلقف المغمور في ظلام الليل ، نوراً يستضيء به ، وأقبلت عليها إقبال تائه في ليلة مظلمة بصحراء مقفرة نحو بصيص من نور .

قلت لقد أفرد الله تعالى في كتابه لهذا الصنف من الناس آيات كثيرة ، ولقد خصت كتب السيرة والتفسير هذا الصنف من البشر بجزء غير يسير من الإهتمام والتفصيل ، فلقد كان لهؤلاء القوم دور خطير في حياة الرسول (ﷺ) شأنهم في ذلك شأن المنافقين في كل دعوة من الدعوات ، إن هذا الصنف اللعين من الناس كثيراً ما يستطيع أن يتقن الدور الذي يقوم به خير إتقان وكثيراً ما يكون لجمال منظره وحلاوة حديثه وحسن تمثيله الأثر الأكيد في التمويه على أصحاب الدعوات .

لقد نظرت في هذا الموضوع وبحثته من زاوية أخرى غير التي ينظر منها أولئك الذين أوقفوا أنفسهم للعلم ، والعلم وحده ، نظرت من الزاوية التي يجب أن ينظر منها رجل الدعوة ، وصاحب الفكرة ، وليس هنالك من شك في أن النظرتين تختلفان تماماً .

إن الفرق بين الرجلين أنه حينما يريد أن يكتب كل منهما في موضوع

حيوي كهذا ، فمثلهما كمثل رجلين أرادا أن يوضحا للناس مقدار الألم الذي تحدثه لدغة الأفعى الرقطاء ، وكان أحدهما قد ذاق ألم اللدغة ومرارته والآخر لم ير في حياته ولو مرة واحدة حية رقطاء أو حتى غير رقطاء .

ولعل هذا المعنى وارد في قوله (ﷺ) « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، ولقدلدغنا من جحورها مراراً ومراراً ولعل ذلك المعنى هو الذي دفعني للبحث والتنقيب وثمة شيء آخر أوضحه فقد لاحظت أن علماءنا وأفاضلنا وكتابنا إنما يكتبون عن الإيمان ، ويحثون الناس على سلوك السبل الموصلة إليه ، ورأيتهم يمرون على موضوع النفاق مرورهم على ديار المعذَّبين . فلا يتناولونه إلا في لمحات خاطفة سريعة ، ونحن مطالبون أن نعرف سبل الشرِّ كي نتجنبها كما نعرف سبل الخير حتى نلتزمها ، فليس أضر على الشعوب والأمم من النفاق إذا إستشرى بين أبنائها : فتعوج الأخلاق ، وتضطرب أحوال الناس وسبل معايشهم نتيجة لإنعدام الثقة وفقدان الهدوء النفسي والإستقرار الوجداني والثبات العقيدي .

ولقد تناولت في كتابي هذا . . . المنافقين وأحوالهم . وتعقبت خصالهم فيما جاء في حقهم في كتاب الله والأحاديث والآثار وسميتها شعب النفاق .

ولقد حاولت أن أوضح الدور الخطير الذي حاولوا القيام به في عهد رسول الله (ﷺ) ، ومحاولتهم تحطيم المجتمع الإسلامي فأعان الله رسوله ﷺ عليهم . . وكم أرجو من الله أن يكون قد ألهمني التوفيق . فإن كنت قد أصبت ذلك فمن الله . . وإن كنت قد جانبت الصواب في شيء فذلك مني ومن الشيطان ، فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وجنبنا النفاق وأهله .

حسن عبد الغني
المحامي

البَابُ الأول

في مَاهيَــةِ النِّفَــاق

الناس وأقسامهم

لقد كان الضجيج مرتفعاً أشبه ما يكون برغاء قطيع من الغنم حين إيابه مع راعية وقت الأصيل . . ولقد كان يخيل للسارى تجاه المكان ان سوق عكاظ قد استأنف عمله من جديد ولكن في ظلمة الليل الحالك . . وأبى إلا أن يعكر صفوه وهدوءه . . ولكم كانت دهشتي عظيمة حين أذن لي بالدخول . . وأجلت النظر في أركان الحجرة ونواحيها فوجدت وجوهاً قد اربدت من شدة الغضب وعيوناً يتطاير منها الشرر كأنه الشهب . . وأنوفاً قد علتها حمرة ذكرتني بالرُجَمْ . . وكم ذكرني هذا المشهد العجيب بجماعة من الديكة من فصيلة « الرومي » ابت إلا النزال والمقاتلة فإذا رءوسها وأعرافها قد تقطر منها الدم وما تزال كذلك حتى تعلو صيحة لأحداها وتخشع أصوات الديكة الباقية . . . بل تتلاشى . . وحينئذ يكون هذا المنتصر هو سيد الموقف بل وملك الخطيرة . . ولكم كانت دهشتي أعظم حين ابتدرني أحدهم ـ ولم تكن قدماي قد وطئتا باب الحجرة . ابتدرني صائحاً بصوت تشوبه الحدة ويمازجه الغضب « أنت اليوم حكمنا » !!

قلت : على رسلك يا صاح وهديء من روعك لا أراكم قد اختلفتم في عظيم حتى تبتغوا حكماً . . وما هذا اللغط وما ذلك الضجيج الذي سمعت وما ذلك الاربداد الذي يعلو وجوهكم وهذه الحمم التي تتطاير من عيونكم . . ومالي أرى أنف كل منكم وكأنه جمرة تشتعل . . . غير أنهم أجابوني في صوت واحد : لقد ارتضيناك حكماً لنا . . لقد أجمعنا على أن يكون أول قادم علينا هو

الحكم فإما أن تحكم وإما أن تخرج . . !! قلت : إذن فالهدوء والسكينة . . وليخبرني أحدكم جلية الامر ولا مناص من قبول ما كلفتموني به . . فانبرى الرجل قائلاً : إذن عليك ان تسمع وتنصت ثم تحكم . . قلت : أجل . . . قال : ما رأيك في الرجل يعد ثم يغدر . . ثم يعد ثم يغدر المرة تلو الأخرى . . ثم بعد هذا وذاك يؤكد وعده ويجدد الميثاق وقد جعل كتاب الله على ما يقول شهيداً مبالغة في الطمأنة وتسكين النفوس . . ثم لا يبالي بهذا ولا ذاك . . ثم هو بعد هذا ـ رجل تأخذه العزة بالإثم لا يبالي بنصح الناصحين بل ولا يحب أن يسمع لهم . . وفوق كل ما سمعت فهو رجل قد استولى الكبرياء على قلبه ولا يجد فرصة يجد فيها مجالاً للظهور إلا ويقتنصها . . . قلت : على رسلك . . كل هذا في رجل واحد . . أي بائس هذا ؟ . . وأي هالك قد أتعسه حظه بارتكاب كل هذا ؟ . . وتساءلت : وفيم الانقسام إذن ؟!!

قال : انه يجاهد مع المجاهدين ويأوي الى حظيرة المؤمنين ويصوم كما يصومون ويصلي كما يصلون . . ... وهو مع هذا وذاك قد ابتلاه الله بحسن المنظر وعذوبة الحديث وحسن المعاشرة . . فالناس فيه مخدوعون . . وجمعنا كما ترى في شأنه أقسام ثلاثة : طائفة تقول : الرجل منافق وإن صام وصلى . . وأخرى تقول : به خلة أو خلتان أو ثلاث من خلل النفاق . . وثالثة تقول : مؤمن غير أنه ضعيف الإيمان . . . لقد التبس علينا الأمر واشتد الجدال كما ترى حتى هدّأ الله هذه المعركة بقدومك .

قلت : لا تسمُّوا الرجل ولعلكم لم تسمُّوه فيما بينكم حتى لا تكونوا قد وقعتم في محظور أو حتى لا توقعوني أنا الآخر فيما أخشى مغبته . . وما دمتم قد حكمتموني فيما بينكم فلا مفر من قبول الأمر وإنه كما ترون لعظيم . . ولكن . . بجيبي كتاب الله وهو ما يحتكم إليه . . . حكمه الفصل . . .ونطقه العدل . . فلا تقاطعوني حتى أتم حديثي . . وقد يطول الحديث وقد يقصر . . فهل أنتم على استعداد لسماعه بأكمله ؟ . . فأجابوني في صوت واحد أنهم على استعداد لسماعه لو طال إلي الصباح . . قلت: إنني لن أزيد على أن أذكر لكم هذا الصنف من الناس الذي أختلفتم فيه مبيناً لكم صفتهم وهيئتهم مستمدا ذلك من

الكتاب والسنة مستشهداً بأعمالهم في عصر رسول الله ﷺ وعصور أخرى . . موضحاً عظيم خطرهم محدداً حكمهم في الإسلام دنيوياً وأخروياً .

قالوا : لتوف الموضوع حقه تفصيلاً وشرحاً فلكم شغلنا هذا الموضوع والتبس علينا امره وإنا لنرجو لك من الله التوفيق .

قلت : أجل . . لقد قسّم الله تعالى الناس في محكم كتابه إلى أصناف ثلاثة: مؤمن وكافر ومنافق ولا رابع لهم . . . ووضح جل شأنه ذلك في أوائل سورة البقرة . . فنزلت أربع آيات من أولها في نعت المؤمنين من الآية الثانية إلى الخامسة :

بسم الله الرحمن الرحيم **﴿ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون *﴾**

فلقد وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين أو اشترط جلت قدرته في من يحمل هذا اللقب الكريم أن يكون متصفاً بخمس صفات : أولاً - الايمان بالغيب . ثانياً - إقام الصلاة - ثالثاً- الإنفاق مما رزقه الله رابعاً- الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ وما جاء به الرسل من قبله خامساً- والإيقان بالآخرة . . . وعلى كل فليس هذا هو موضوع حديثنا ولقد جاء كتاب الله تعالى يحوى الكثير من صفات المؤمنين . . . وقد جمع الكثير من علماء المسلمين صفات المؤمنين في كتب أو كتيبات مثل : شعب الإيمان للبيهقي . . . وجاءت الآيتان اللتان تليان الآيات السابقة في وصف الكافرين سواء كانوا مشركين أم كتابيين فقال تعالى :

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم *﴾

ثم أفرد الله تبارك وتعالى الثلاث عشرة آية التي تلي ذلك في وصف المنافقين وذلك من الآية الثامنة الى الآية العشرين . . ولست الآن بصدد التحدث عن وصفهم وإنما نحن بصدد الحديث عن الناس وأصنافهم لا من

ناحية البشرة او اللون ولا كذلك من ناحية العنصر مما هو خاص بعلم «الجغرافيا البشرية» وعلم الاجناس . . ولكنني بصدد الحديث عن الناس وأقسامهم بالنسبة للشريعة الإسلامية والإيمان بها فليس هنالك كما أبان القرآن الكريم في الآيات السابقة وأوضح الخالق جلت قدرته ـ ليس هنالك إلا مؤمن يناصر الفكرة الإسلامية ويعمل لها ويجاهد من أجلها ويموت في سبيلها . . وكافر يناصبها العداء ويجاهدها بالمال والسلاح . . وثالث لا إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء مضطرب في عقيدته متأرجح بين الكفر والإيمان . . هذا هو المنافق الذي أعمى النفاق قلبه وبصره وأفسد عليه كل شيء في حياته . . هذا الفريق الثالث . . فريق المنافقين . . . والنفاق والمنافقون هما محور حديثنا الآن . . . سوف يتضح مما سأبينه كيف أن هؤلاء هم أخطر على الدعوة من الكافرين أنفسهم. كما أنهم هم الطابور الخامس الذي يندس بين صفوف المؤمنين فيوهن عزائمهم ويشيع الفشل بينهم ويفت في عضد الدعوات ورجالها .

النِّفَاق في قَامُوس الشَّرِيعَة

وقبل أن أسأل عن النفاق ومعناه . أحب أن أبين لكم أن النفاق في اللغة هو «إظهار الخير وإسرار الشر». ولو أن إنساناً أمعن النظر فيما ورد في الكتاب والسنة عن النفاق والمنافقين. . لوجد أن الشريعة الإسلامية إنما تقسم النفاق إلى قسمين متباينين تمام التباين مختلفين تمام الاختلاف :

فالأول : نفاق اعتقادي ـ وعلى ذلك تكون فئة المنافقين الذين يحملون لواء هذا النوع من النفاق فئة كافرة تكتم كفرها وتظهر الإيمان لغاية . . وتخفي الكفر لمأرب . . فهي تسر الشر وتعلن الخير .

والثاني : نفاق عملي ـ وهؤلاء الذين حوت قلوبهم هذا النوع من النفاق هم أقوام ضعف إيمانهم بالله ورسوله وتزعزعت عقيدتهم بدينهم وساء فهمهم لها ولم تقو نفوسهم على فهم المعاني العليا لدعوتهم الكريمة . . فخبثت نفوسهم وساءت فعالهم فهم ضعفاء القلوب الذين يؤثرون المنفعة الشخصية على مصالح دعوتهم ومنفعة مجتمعهم

ونحن إذ نتحدث عن النفاق بنوعيه : الاعتقادي والعملي . . نستطيع أن نتبين بجلاء ووضوح أن فئة المنافقين من ناحية المذهب والعقيدة تنقسم إلى طائفتين كل منهما تختلف عن الآخرى تماماً . وإن اتفقنا في نوع العمل وروحه . . ففكرة الهدم والتحطيم هي الهدف الأساس الذي تشرئب اليه أعناق الطائفتين .

ولو استعرضنا آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن هذه الفئة من البشر لتبينا أن القرآن الكريم تارة يفرق في ندائه وتوجيهه الخطاب الى هاتين الطائفتين فيسمى كلاً منهما باسم خاص بها . . . وأخرى يطلق أحد الإسمين على الفئتين معاً أو الاسمين معاً على إحداهما . . وثالثة يناديهم أو يسميهم بفعل قد أرتكبوه أو إثم قد قارفوه . . فمثلاً . . في الحالة الاولى نجد أن الآية الكريمة توجه الخطاب للمنافقين منادية كل فريق منهم باسمه . . «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » .

فنجد أن لفظ «المنافقون» قد أريد به الفريق الأول . . والنداء في التركيب الذي يليه «الذين في قلوبهم مرض» أريد به الفئة الثانية من المنافقين . . أما كلمة «المرجفون» إنما أطلقت على أناس بعينهم من المنافقين أشاعوا في المدينة أخباراً كاذبة يهدفون إلى إذاعة الفشل بين المسلمين وتثبيط هممهم. وهذه صورة من صور الحالة الثالثة . . ومنها أيضاً الخطاب الموجه من قبل الله تبارك وتعالى إلى فريق من المنافقين تخلفوا عن الجهاد فسماهم بفعلهم الشنيع الذين ارتكبوه وناداهم به مبالغة في الزجر والتوبيخ :

«فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون»

ونجد مثلاً في حالة القسم الثاني أن كلمة «المنافقون» وأن اصطلاح «الذين في قلوبهم مرض» قد أطلقا سوياً على فئة بعينها وفي حالة واحدة في قوله

تعالى «إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم».. والمعروف أن الخطاب موجه إلى جماعة من ضعفاء مكة كانوا قد أسلموا ثم ضعفوا وارتدوا تحت تأثير العذاب والفتنة كما سأبين ذلك بعد.

وعلى هذا فإننا نجد مدار الاختلاف بين طائفتي المنافقين ليس مجاله «التسمية» كما سبق أن بينت.. فالقرآن الكريم تارة يفرق في ندائهما وتوجيه الخطاب لهما واخرى يطلق عليهما إسماً أو اصطلاحاً واحداً كأن يقول «المنافقون»، «الذين في قلوبهم مرض»، «المخلفون»، «المرجفون»، «الذين جاءوا بالإفك»... وهكذا.

ومدار الاختلاف ليس أيضاً مجاله «العمل» فإن كلتا الطائفتين كانت خطراً يهدد كيان الإسلام.. ومعول هدم سلط لينال من أسسه ودعائمه وسوساً حاول أن ينخر في عظامه.. فالإعمال هي.. هي.. بعينها. والمنافقون هم المنافقون وان اختلفت أسماؤهم وتعددت طوائفهم لأن أهدافهم قد اتحدت وأهواءهم قد التقت وأساليبهم وطرقهم قد تجانست واتفقت وحيلهم وألاعيبهم قد اجتمعت لمأرب واحد وصوبت نحو هدف بعينه.. ألا وهو نحر الإسلام وقتله.. فالجريمة واحدة والإثم واحد.

فماذا إذن يكون مدار الاختلاف ومحوره ؟!.. إننا لو دققنا النظر وأمعنا البصر لتأكدنا أن مجال الاختلاف وميدانه ليس إلا من ناحية العقيدة.. والعقيدة فقط.

لقد وضحنا آنفاً أن هنالك فئتين أحداهما تبطن الشر وتظهر الخير وأعمالها أعمال الشياطين وأفعالها أفعال المارقين.. وأخرى ضعيفة الإيمان مريضة القلب ولكن أعمالها وفعالها لا تختلف عن سابقتها لانها تؤثر منفعتها الشخصية وتفضل مصلحتها الذاتية.. ومن ثم كانت خطورتهما التي تهدد الدعوة الاسلامية واحدة ولذلك أيضاً كانتا قسمين لفريق واحد هو فريق المنافقين.

«متى يظهر النِّفَاق؟»

لو تصفحنا تاريخ الدعوات والمبادىء لوجدنا أن هذه الظاهرة تبدو واضحة جلية في حالات ثلاث ولاستطعنا أن نتبين أو نحدد الوقت الذي تستطيع فيه هذه الطائفة أن تظهر على مسرح النفاق والباطل لتمثل مسرحيتها المؤلمة :

١ ـ أما الحالة الأولى فهي حينما تنتصر الدعوات ويرتفع شأنها وتعلو كلمتها وتصبح هي سيدة الموقف والأمر بيدها ويضحى بيد أهلها الحل والعقد . . حينئذ يقبل أصحاب النفوس الضعيفة وذوو الأطماع والشهوات ليجدوا في رحاب هذه الدعوات المنتصرة المجال الواسع لنيل أطماعهم والحصول على مآربهم وإرضاء شهواتهم الخسيسة . . في هذا الوقت . . وفي هذا الوقت فقط . . يستطيع الشيطان أن يمنى أنصاره بنيل مآربهم والحصول على أطماعهم . . فيقبلون متهافتين ليندسوا بين صفوف المؤمنين ويستتروا تحت ثياب المجاهدين . . يظهرون للناس في أثواب ملائكية طاهرة تخفي تحتها نفوساً شيطانية متمردة . . يبدون في مظهر الأبرار ويعملون عمل الأبالسة الملعونين .

٢ ـ أما الحالة الثانية فهي حالة صنف آخر من الناس انطوت سريرتهم على الحقد للدعوة وأهلها . . والبغضاء للفكرة وأصحابها . . اولئك الذين لا يجدون فرصة للكيد للمبدأ ودعاته إلا واقتنصوها . ولا يحسون بوجود ثغرة إلا وصوبوا رماحهم نحوها . . اولئك ما يكادون يحسون بانتصار الدعوة وجنودها حتى يرتموا في أحضانها ويتوافدوا على أعتابها لا انتصاراً لها ولا فرحاً بعلو كلمتها . . وإنما يبغون بذلك السلامة لأنفسهم بالانضمام الى صفوفها واللحاق بركبها . . ثم بعد ذلك شأنهم كالخفافيش التي لا تظهر إلا في الظلام . . يتخذون من ظلام الليل أستاراً لتدبير مكائدهم . . هؤلاء يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . . يظهرون حب المؤمنين ويكتمون بغضهم . . يبدون الغيرة على الدعوة والانتصار لها وقد انطوت سريرتهم على الحقد والكيد . . اولئك الذين قال الله فيهم **«يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ**

يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾

وقد يختلط أمر الفريق الأول بالثاني ويظن أنه لا فرق بينهما ولكن في واقع الأمر الفرق بينهما كبير والهوة سحيقة .. فالفريق الأول قد ارتمى في أحضان الفكرة ساعة النصر بغية الغنيمة وأما الثاني فأسرع عقب النصر ليأمن نتيجة عدائه للدعوة وأصحابها .

٣ ـ أما الحالة الثالثة فحينما تبتلي الدعوات وأهلها ويشتد الاضطهاد ويعظم البلاء وتكثر المحن وتتوالى الخطوب ويلقى المؤمنون في سبيل دعوتهم أشد أنواع الخسف والهوان ويصر المتعسفون على ظلمهم والتفنن في إيذائهم والكيد لهم والسخرية منهم والاستهزاء بمبادئهم بغية قهر العزائم وإقامة روح المقاومة والسيطرة على النفوس وقتل الإيمان في القلوب ... في هذه الحالة التي تعظم فيها النكبات وتتلاحق الصواعق .. في هذه الظلمات الحالكة وفي هذا الجحيم المستعر الذي تشتد فيه عزائم المؤمنين ويزداد حماسهم لدعوتهم وترتفع روحهم المعنوية في أسمى ما يكون الارتفاع ويقوى إيمانهم .. في هذه الأونة يظهر على مسرح النفاق ذلك النوع الآخر من ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب يسارعون إلى الكفر بالدعوة ورجالها ويكونون أعظم حرباً عليها من الكائدين لها والمحاربين لرجالها ودعاتها .. اولئك الذين حقرت نفوسهم وصغرت .. واستعصت عليهم المعاني العليا فأضحت في واد وهم في واد آخر .. اولئك ما أشبههم «بالحرباء» التي تستطيع ان تتشكل او تتلون أنى شاءت أو كيف ومتى أرادت .

« النفاق لازمة من لوازم الدعوات »

قد يتساءل إنسان ما عما إذا كان النفاق لازمة من لوازم الدعوات بمعنى أنه يلازمها ولا يفارقها ؟! .. وفي رأيي أنه مما لا شك فيه أنه لازمة من لوازمها كالظل للإنسان يرحل مع ترحالها ويسير في ركابها ويقف لوقوفها .. فإن جاز للظل أن يفارق الانسان جاز للنفاق أن يفارق الدعوات .. ولو تصفحنا تاريخ الدعوات التي كافحت وكوفحت وحاربت وحوربت وأوذي أهلها

واضطهدوا . . أو انتصروا بعد شديد ظلم وطول اضطهاد لوجدنا أن لهؤلاء المنافقين مجالاً يفوق كل مجال . . ولسوف نتعرض للأمثلة في حديثنا بعد ذلك مستشهدين بما حدث في عهد رسول الله ﷺ من حوادث. . .وإذا جاز لإنسان ما أن ينفي أن النفاق لازمة من لوازم الدعوات فهل يجوز له أن ينفي أن الناس معادن . . فيهم الغث والثمين . . فيهم الطيب والخبيث . . فيهم الرديء والحسن . . . هل يجوز له أن ينفي أن مجتمعاً ما خلا في عصر من العصور بل حتى في يوم من الأيام أو لحظةمن اللحظات من ذوي النفوس الضعيفةوالقلوب المريضة ومن الذين ماتت ضمائرهم وتنزلت إلى حضيض الباطل نفوسهم . . . إن طلاب المطامع والأهواء ما أكثرهم في كل عصر وما أعظم عددهم في كل مجتمع . . إن الذين يتقاتلون لإرضاء شهواتهم والوصول إلى مطالب أهوائهم كثيرون في كل أمة وجيل . . . إن أتباع الشياطين الذين يكيدون للمؤمنين لن يخلو منهم مجتمع ما قامت السماوات والأرض إلا في مجتمع ملائكي طاهر . . ذلك في الملأ الأعلى . . عند الذين هم حول عرش ربك يبيتون سجداً وبكياً . . . أما أولئك الشياطين وأتباعهم والأبالسة وجنودهم الذين يغتنمون كل فرصة للنيل من المؤمنين والكيد للمجاهدين فلا بد من تواجدهم مع كل دعوة وظهورهم حول كل فكرة .

إن كل دعوة من الدعوات لا بد أن يبتلي أهلوها ولا مناص من امتحان ذويها . . بل يجب أن تجابههم العقبات وتتوالى عليهم المحن وتتنزل عليهم الخطوب تترى . . وما أشبه هذه المحن والخطوب « بأنبوبة الاختبار » التي تجري بها التجارب لإظهار الغث من الثمين . . . ولذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت ﴿ **ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** * ﴾ وقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ . . ثم قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ **وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور** ﴾ .

تلك طبيعة الدعوة بل وفطرتها التي فطرت عليها أن يسخر الله لها قوماً يؤمنون بها ويجاهدون من أجلها . . يحيون لها ويموتون في سبيلها ويذودون منها بالمهج والأرواح والأموال والأولاد . . لا يفنون بجهد ولا يبخلون بمال . . . ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ». . . وأن يتواجد أيضاً من يكفرون بها ويناوئونها ولا يدخرون جهداً لإيذاء دعاتها والنيل منهم . . ولا يألون جهداً في محاربتها بالمال والأولاد . ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾ . . ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ .

ومن ثم لا بد من ظهور فريق آخر ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ . . أولئك هم المنافقون . . الخفافيش التي لا تحيا إلا في الظلام والأفاعي التي تلين ملامسها ويعظم إيلامها .

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها :. عند التقلب في أنيابها العطب .

تلك الظواهر الثلاث تكاد تكون طبيعية بالنسبة لكل دعوة من الدعوات : إيمان وكفر ونفاق .

إن لكل ظاهرة في الوجود حكمة . . سواء استطاعت عقولنا أن تفهمها أو وقفت حائرة أمام سرها وكنهها . . . ولا بد لهذه الظاهرة الغريبة وملازمتها للمبادىء والدعوات حكمة أو حكم . . تداركت ذلك عقولنا أم ضعفت وتضاءلت . . . والذي يستطيع أن يتداركه عقلي أن لهذه الظاهرة حكمتين . . ولا أستطيع أن أقول أنني بذلك قد وصلت إلى كل شيء وقد أدرك عقلي كل مخبوء من الأمر . . . ولكنني أؤكد أننا بشر . . عقولنا ما زالت قاصرة عن فهم كل شيء وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . غير أنني أؤكد مرة أخرى أنني لا أستطيع أن أزعم أن ما يتأتى إلى علمه أو ما يفتح الله عليّ

بفهم حقيقة أمره هو غاية ما يصل إليه البشر من العلم . . أو هو النهاية في الكمال والفهم . . ولكني أقرر بكل بساطة واستسلام لواقع الأمر الذي لا جدال فيه ـ أن هذا ما استطعت أن أفهمه وأصل إليه . . أما تلكما الحكمتان :

فأولاهما التي لا نزاع فيها ولا خلاف . . أنه من قديم جرت سنة الدعوات أن يمتحن أهلوها ويبتلي ذووها ودعاة مبادئها بشتى المحن وبمختلف البلايا والخطوب . . . وليست هنالك محنة أشد على نفوس المؤمنين من أن يكون الواحد منهم في صف الجهاد وهو في ريب من أمر الذين معه . . يتلفت يمنة ويسرة . . ويتفرس في وجوه القوم يسائل نفسه : أي الناس مؤمن ؟ . . وأيهم قد أكل النفاق قلبه ؟ . .

إن الذين عاشوا في جو الدعوات الربانية وتصفحوا تاريخها وشاهدوا المحن والكوارث التي اعترضت سبيلها يستطيعون ـ من ثنايا ما جاء بكتاب الله ـ أن يتصوروا بكل وضوح وجلاء هذه الصورة المؤلمة الحزينة التي مر بها أصحاب الرسالات السماوية .

إن رجل الدعوة وصاحب الفكرة يستطيع أن يقول لك بملء شدقيه . . يقول لك بكل قوة وجرأة . . بكل صراحة ووضوح . . : « إملأ عليّ الدنيا رجالاً وعتاداً . . ولتقذفن الأرض بأفلاذ أكبادها ليكونوا جميعاً محاربين وأعداء . . ولتكن الأرض جحيماً مستعراً وناراً مشتعلة وأتوناً مضطرماً . . وليكن كل ذلك فتنة يعذب فيها المؤمنون . . ويضطهد المجاهدون . . . أما أن يكون بين صفوفنا منافق واحد لا أعرفه فهذا ما لا أطيق . . وهذا هو البلاء الأكبر والخطب الأعظم .

إن رجل الدعوة الإسلامية الأولى استطاع أن يحارب خصومه الذين شهروا في وجهه السيف لأنهم سافرون واضحون . . أما أن يكون بين صفوفه منافقون لا يستطيع أن يتبينهم . . فهذا أمر يقلق باله ويقض مضجعه . . . إنه يعلم أعداءه ويعلم كيف يتقي ضرباتهم ومتى ينتظرها . . أما هؤلاء الذين يكونون معه في وضح النهار . . ويبيتون له في ظلام الليل الدامس . . فهو لا

يستطيع أن يُحْدس متى ستكون ضرباتهم وكيف يتقي هذه الطعنات التي تأتيه من خلف صفوفه .

إن جريمة النفاق لهي شر فعلة في الوجود . . وإن المنافقين لهم شر الخليقة بأسرها . . ومن ثم كان وجودهم في صفوف المؤمنين مدعاة للارتباك والزلزلة والرعب . . ومن ثم كانت محنتهم أشد المحن على نفوس المؤمنين وقعاً . . . لقد قلت آنفاً ان الله تعالى يرسل البلايا والخطوب ليظهر للمؤمنين الغث والسمين وليميز الخبيث من الطيب . . وليبين الصادق والكاذب . . وليكون ذلك حجة للمرء أو عليه في الآخرة . . ولتكون تلك طريقة من طرق التبيين والإيضاح « أما الزَّبَد فَيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . . . أما الابتلاء بالمنافقين . . وأما الامتحان بذلك الطابور الخامس الخطير . . فهي عملية للتصفية أشد خطورة . . وهي تجربة للزلزلة أعظم أمراً . . ذلك لأنها زلزلة للمؤمنين أنفسهم . . وتنقية لصفوفهم من الضعفاء ومرضى القلوب . . فهي عملية تصفية للتصفية وزلزلة للزلزلة وغربلة للغربلة . . ﴿ **آلم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين *** ﴾ .

أما الحكمة الثانية . . فإنها حكمة بعيدة المرمى . . الأصل فيها صقل النفوس المؤمنة وتعويدها الكفاح والجهاد . . إن الطفل الصغير حينما يقارب الفطام يدر به أبواه على الحديث والنطق . . وذلك للمران وكسب العادة . . . وكثيراً ما نرى مروض الوحوش يدرب تلك الوحوش الضارية على الإتيان بأعمال أو حركات غاية في الغرابة . . . والنفس البشرية إنما تحتاج في تربيتها إلى الصقل والمران :

والنفس كالطفل إن تتركه شب على : حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن البلايا والخطوب انما تصقل النفوس وتعودها الصبر على المكاره وخوض الأزمات بقدم ثابتة والخروج من المازق والنكبات بقلوب أقوى إيماناً ونفوس أشد يقيناً . . وفي ذلك يقول الشاعر العربي :

تعودت مس الضر حتى ألفته :. وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وحيرني يأسي من الناس واثقاً :. بحسن منيع الله من حيث لا أدري

ثم هي بعد ذلك ترقق المشاعر وتجعل القلوب نقية لأنها في هذه الأحوال أشد ما تكون اقتراباً من الله ولجوءاً إليه . . . في هذه الآونة تزداد القلوب رقة وصفاء . . فكيف بهذه المحنة إذا أصبحت في أعظم صورها من القسوة والبشاعة حينما يكثر المرجفون ويشتد أمر المنافقين . . بأي قلب يلجأ المؤمن الى ربه وبأي نفس يتضرع إلى خالقه إذا نظر فوجد الريح تعصف به من كل مكان . . من فوقه ومن أسفل منه ومن جوانبه . . وأي صدى للدعوة تخرجه تلك المحنة المروعة . . وأي داعية شديد المراس قوي البأس رابط الجأش عظيم الإيمان تخرجه تلك النكبات التي لم تدع كل شيء حتى صفوفه قد أوجدت فيها الثغرات وأحدثت فيها الفرج .

إن محنة النفاق أخطر محنة يصاب بها المؤمنون . . غير أنها أقدر محنة على تخريج الرجال العاملين . . وما كان الله تعالى جلت قدرته ليدع شيئاً لا حكمة لوجوده . . وما كان ليوجد شيئاً أو يحدث أمراً دون غاية أو هدف . . جلت قدرته وتعالت عن النقص عزته .

النفاق في مكة

هل الردة نفاق ؟

وقبل أن أبدأ حديثي عن النفاق في مكة أسأل نفسي ذلك السؤال الذي لن أحار في الجواب عليه كثيراً . . وإننا إذا تحدثنا عن الردة إنما نعني الردة بنوعيها :

أ - ردة غير المكره :

جاء في سورة النساء في الآيات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ قوله تعالى :

﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا

من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً * ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً * ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً * ﴾ .

وقد ذكر الواحدي في كتابه « اسباب النزول »: أخبرنا عبد الرحمن بن حمدان العدل قال أخبرنا أبو بكر احمد بن جعفر بن مالك قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثنا أسود بن عامر قال حدثنا بن سلمة عن محمد بن اسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن قوماً من العرب أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وأصابوا وباء المدينة وحماها فأركسوها فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا مالكم رجعتم فقالوا أصابنا وباء المدينة فاجتويناها فقالوال مالكم في رسول الله أسوة فقال بعضهم نافقوا وقال بعضهم لم ينافقوا هم مسلمون فأنزل الله تعالى **﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا . . . ﴾** الآية . . .

وذكر الواحدي أيضاً أن مجاهد قال في هذه الآية هم قوم خرجوا من مكة حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك فاستأذنوا النبي عليه السلام إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فاختلف فيهم المؤمنون : فقائل يقول : هم منافقون . . وقائل يقول : هم مؤمنون . . فبين الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم في قوله **﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾** . . فجاءوا ببضائعهم يريدون هلال بن عويم الأسلمي وبينه وبين النبي ﷺ حلف وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المسلمين فرفع

عنهم القتل بقوله تعالى ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم . . . ﴾ الآية . .

ولقد أورد المفسرون عدة روايات مختلفة لأسباب نزول هذه الآيات بعضها تشابهت في موضوعها والأخرى لا تتمشى مع سياق هذه الآيات . . وأظهر ما أورده الإمامان أبو السعود والبيضاوي في تفسيريهما هذه الرواية التي تتمشى مع سياق هذه الآيات . . ذلك أنه روى أن قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين اجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فمرحلة حتى لحقوا بالمشركين . . فاختلف المسلمون في أمرهم . . أعني في أمر كفرهم أو في أمر قتلهم .

ولقد وردت هذه الرواية في الصحيحين . . قال عدي بن ثابت أخبرني عبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله (ﷺ) فيهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول : لا . . هم المؤمنون . . . فأنزل الله ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين** ﴾ . . **فقال رسول الله** (ﷺ) : إنها طيبة وانها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد[1] . والمعلوم أن الذين رجعوا هم طائفة من الأنصار على رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول . . والآيات الواردة إنما تطلب من المؤمنين ألا يتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . . فلو كان الخلاف الواقع بين المسلمين والذي في شأنه نزلت هذه الآيات إنما هو من أجل اولئك الذين رجعوا إلى المدينة رافضين القتال مع رسول الله (ﷺ) لما كان من المعقول أن يطالبهم الله جلت قدرته بالهجرة . . فإلى أي مكان تكون الهجرة وأرض المهجر هي وطنهم ؟!

ثم إن سياق الآيات بعد ذلك يدل على أن القوم المختلف في أمرهم ينتمون إلى من ليسوا بالمسلمين . . . فالأحكام الواردة وإن كانت عامة إلا أن لها ارتباطاً بالقصة التي كانت سبب النزول . . فعبد الله بن أبي ومن سار خلف لوائه لم يكونوا إلا من الأنصار ورهطهم على ما نعلم من الولاء لله ورسوله . .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ الحديث رقم ٨٧٤ طبعة وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت

الأمر الذي يدعونا أن نجزم بأن رواية الصحيحين لا يمكن أن تكون هي سبب نزول هذه الآيات والذي يدعونا بدوره إلى ترجيح الرواية السابقة التي سقتها آنفاً ، لأن هذه الروايات غير مرفوعة للنبي .

إلا أن إبن حزم له في هذا الحديث رأي آخر أورده في كتابه المحلى حـ ١١ صفحة ٢٠٢ أذكره بنصه « وقال تعالى ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً** ﴾ . . وقد روينا من طريق البخاري حدثنا أبو الوليد ـ هو الطيالسي ـ حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت قال : سمعت عبد الله بن يزيد يحدث عن زيد بن ثابت قال : لما خرج رسول الله (ﷺ) إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه وكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين : فرقة تقول : نقاتلهم وفرقة تقول : لا نقاتلهم . . فنزلت ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين** ﴾ . . فهذا اسناد صحيح . . وقد سمى الله تعالى أولئك « منافقين » . . وأما قوله تعالى في هذه الآية متصلاً بذلك ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونوا سواء** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً** ﴾ . . فقد كان يمكن أن يظن أنه تعالى عني بذلك أولئك المنافقين وهو كان الأظهر لولا قوله تعالى ﴿ **فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله** ﴾ . . فهذا يوضح غاية الإيضاح أنه ابتداء حكم في قوم آخرين غير أولئك المنافقين لأن اولئك كانوا من سكان المدينة بلا شك وليس على سكان المدينة هجرة بل الهجرة كانت إلى دارهم . . فإذا كان ذلك كذلك فحكم الآية كلها أنها في قوم كفار لم يؤمنوا بعد وادعوا أنهم آمنوا ولم يهاجروا . . وكان الحكم حينئذ أن من آمن ولم يهاجر لم ينتفع بإيمانه وكان كافراً كسائر الكفار ولا فرق حتى يهاجر إلا من أبيح له سكنى بلده كمن بأرض الحبشة والبحرين وسائر من أبيح له سكنى أرضه إلا المستضعفين . . قال الله تعالى ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا** ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ **المؤمنون بعضهم أولياء بعض** ﴾ . . فقد قطع الله تعالى الولاية بيننا وبينهم فليسوا مؤمنين . . وقال تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا المستضعفين . . . . .** ﴾ الآية . . فإن قال قائل : معنى ﴿ **حتى يهاجروا**

في سبيل الله ﴾ أي حتى يجاهدوا معكم بخلاف فعلهم حين انصرفوا عن أحد وأرادوا أن يجعلوا الآية كلها في المنافقين المنصرفين عن أحد . . قيل له : وبالله تعالى التوفيق . . هذا ممكن . . ولكن قد قال تعالى : ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ . . فأخبرونا . . هل فعل ذلك النبي ﷺ فقتل الراجعين عن أحد حيث وجدهم ؟ . . وهل أخذهم أم لا ؟ .

هذا رأى ابن حزم قد أوردته بنصه . . ولقد أوردت رأيي آنفاً فيما ورد في الصحيحين عن سبب نزول هذه الآيات ورجحت الرواية الأخرى وأبنت أسباب ذلك من حجج استلهمتها من روح الآيات نفسها بل ومن سياقها . . وانني أؤيد رأي أبي محمد في أن المنافقين من أهل المدينة الذين أبوا إلا التخلف عن القتال في أحد لا يمكن أن يكونوا هم الذين قد قصدوا بذلك الأمر الخاص بالهجرة . . ولكنني لست معه في أن الآية ـ آية الهجرة ـ إنما هي حكم مبتدىء لحالة غير الحالة التي نزلت فيها الآية السابقة عليها . . فالآيات متصلة ببعضها . . والضمائر في آية الهجرة لا يمكن إلا أن تكون عائدة على كلمة « المنافقين » في الآية التي تقدمتها . . وليس هنالك داع لتأويل لفظ الهجرة بمعنى الجهاد فيكون الأمر في الآية معناه ألا يتخذ منهم أولياء حتى يجاهدوا . . ولِمَ هذا التأول واللفظ صريح واضح ؟ إنني أسلم أن إسناد ما ورد في الصحيحين إنما هو إسناد صحيح . . ولكنني أقول إنه لا يستقيم مع روح الآيات وسياق الأحكام وظاهر ألفاظها . . . وما الذي يدعونا إلى كل هذه التعديلات والتهرب من صريح ما تدل عليه هذه الألفاظ وليس هنالك ما يرغمنا على ذلك وبين أيدينا روايات تتمشى مع ظاهر هذه الآيات وترتيب الأحكام بها . . ثم إن أسباب النزول ليس فيها ما هو مرفوع وإنما كلها موقوف . . ولذلك فإن الأسباب التي ترد إلينا قد تتعدد مع صحة أسانيدها . . فقد يرى الصحابي (س) أنها نزلت في أمر ويرى غيره خلاف ذلك . . ونحن يجب أن نقدح زناد الفكر للترجيح بين هذه الروايات واختيار ما يتفق مع منطوق الآيات دون حاجة إلى تكلف ظاهر في التأول الذي يبعد القارىء لكتاب الله أن يحلق في آفاق قوله تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ .

ومن ثم يتضح لنا أن أقواماً كانوا قد آمنوا .. وتواجدوا بالمدينة .. غير أنهم استأذنوا رسول الله عليه السلام في الخروج إلى البدو للاستشفاء لأن جو المدينة لم يلائمهم .. فسولت لهم أنفسهم أن ينتهزوا هذه الفرصة ولحقوا بالمشركين .. وسياق الآية يدل على أن المؤمنين قد اختلفوا في أمر هؤلاء المنافقين .. فئة تقول كفروا .. وفئة لا ترى ذلك .. أو فئة ترى اللحاق بهم وقتلهم والأخرى لا ترى ذلك على اختلاف في الروايات .. ولعله من الواضح الجلي أن القرآن الكريم قد رمى هؤلاء القوم بالكفر وهو في الوقت نفسه قد نعتهم بالنفاق ووصفهم بذلك .. وقد يقول إنسان ما بأنه ربما لحق هؤلاء القوم بالمشركين غير أن قلوبهم لم تنصرف عن الإيمان بالله ... ولكنني أقول : إن قول الله تعالى ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً**﴾ . فإن رميهم بالكفر ثم دعوتهم إلى تجديد الإيمان وذلك بالهجرة من جديد فإن لم يستجيبوا لذلك فهم كفرة .. ثم أمر الله تبارك وتعالى بعد ذلك المسلمين أن يقتلوهم أنّى وجدوهم ... وعلى كل سواء أصروا على كفرهم أو لم يصروا حين نودوا إلى تجديد إيمانهم فقد نعتهم الله تعالى بالنفاق ووصفهم به .

ب - ردة المكره :

﴿**إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم**﴾ * (٤٩ الأنفال) .

روى أن سبب نزول هذه الآية أن جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا .. غير أنهم تحت تأثير الفتنة والتعذيب ارتدوا عن دينهم .. ولما كان يوم بدر خرجوا مع مشركي مكة لقتال المسلمين .. فلما رأوا قلة عدد المسلمين قالوا قيلتهم هذه أي « غر هؤلاء دينهم » .. وقد قتلوا جميعاً في هذه المعركة وهم : قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاصي بن منبه بن الحجاج ... فهؤلاء قوم قد ارتدوا عن دينهم وخرجوا على عقيدتهم تحت تأثير

الفتنة والاضطهاد . . ومع هذا فالقرآن الكريم يصفهم بالنفاق . . ولم يكن ما لاقوه من عذاب وما وقع بهم من بغي واضطهاد ليتخذ ذريعة لهم على كفرهم بل عدهم الله تبارك وتعالى في زمرة المنافقين .

هذان دليلان سقتهما على أن الردة اعتبرت في الإسلام نفاقاً . . وبين يدي أدلة أخرى من القرآن الكريم غير أني آثرت هذين الدليلين لأن لفظ النفاق جاء فيهما صريحاً واضحاً لا يحتاج الى نقاش أو جدال . . وفي الحقيقة أنني أحببت أن أذكر هذين الدليلين قبل حديثي عن موضوع النفاق في مكة كمدخل لهذا الموضوع لأن أمر النفاق والمنافقين قد اختلط على كثير من الرواة والمفسرين والمؤرخين حتى أن كثيراً منهم قال : « لم يكن هناك نفاق بمكة » . . والذي أحب أن أنبه الأذهان إليه في هذا الموضوع أنه لعل السر في اختلاط الأمر على هؤلاء يرجع الى هذين السببين :

أولاً ـ لم يكن العهد المكي بالذي يساعد على ظهور النفاق بمعناه الأعم الذي عرف فيما بعد في العهد المدني . . أعني تواجد طائفة المنافقين بين صفوف المسلمين وقيامهم بدور الطابور الخامس لأن الدعوة الاسلامية كانت في هذا الوقت ضعيفة وكان أتباعها مستذلين الى الحد الذي لا يغري باندساس فريق المنافقين بين صفوف المؤمنين كما حدث في العهد المدني . . لأن المسلمين كانوا قلة يعدون على الأصابع وكانوا يسامون الخسف والهوان من أشراف مكة وزعماء المشركين بها . . فلم يكن هنالك من المغريات ما يسمح بظهور تلك الطائفة بمعناها التي عرفت به في المدينة .

ثانياً ـ لقد كان النفاق الذي رمى به منافقوا مكة من نوع يختلف تماماً عن ذلك الذي ظهر في عهد قوة الدعوة وانتصارها أي في العصر المدني . . ولقد كان جميع الذين أطلق عليهم لفظ « النفاق » أو وصفوا بذلك أناساً ارتدوا عن الإسلام إما مكرهين أو بمحض اختيارهم . . ولقد ظهر ذلك في أحوال متباينة تمام التباين مختلفة تمام الاختلاف . . وإليكم توضيح ذلك :

أ ـ أما الحالة الأولى فهي حالة الإكراه على الردة وذلك حينما وهنت نفوس

كثير من ضعفاء المسلمين عن تحمل الأذى الذي رفع لواء حملة قادة المشركين في مكة . . وتلك الحالة كثيراً ما تمر بها الدعوات عندما تضعف حجج المشركين عن مواجهة تيار الحق القوي الجارف وعندما تعيي نفوسهم الضعيفة عن إدراك الحقيقة . . وحينما تقف عقولهم أمام النور الساطع موقف الارتباك والحيرة . . حينئذ يسفه تفكيرهم وتضعف أحلامهم ويملي عليهم إبليس وأعوانه حملة شيطانية وفتنة كيدية للمؤمنين . . وتعمل السياط في ظهور المؤمنين عملها وتحتل النيران الصدارة في هذه المحنة المؤلمة . . ويتفنن الأبالسة وأعوانهم في افتتان المؤمنين عن دينهم أيّما افتتان وتصبح الأرض جحيماً تضطرم نارها . . وتضيق الدنيا في وجوههم . . . غير أن للبشر إزاء المحن طبيعتين متباينتين : فأناس قوي بالله إيمانهم وزاد يقينهم فلا تزيدنهم الفتنة إلا إيماناً فوق إيمانهم ويقيناً مع يقينهم . . أولئك الذين ثبّت الله قلوبهم وكتب لهم السلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة . . . أما الفريق الآخر فهم ضعاف القلوب وصغار النفوس . . أولئك الذين لا توافق طبيعتهم الكفاح والجهاد من أجل الدعوات ولا تتحمل المحن والأزمات . . أولئك الذين تصغر نفوسهم عن فهم الحقائق العليا فلا يكونون كأولئك الذين فهموها وعاشوا فيها بأرواحهم وذاقوا حلاوتها بصفاء نفوسهم . . فتركوا الأجساد في أيدي الجلادين وأعوان الشياطين ليفعلوا بها ما شاءوا وقلوبهم لذلك الأمر فرحة مستبشرة قد استعذبت في سبيل الله كل محنة واستمرأت كل فتنة . . أما هؤلاء : ضعاف القلوب ومرضى النفوس الذين تضاءلت عقولهم بل وصغرت عن فهم تلك المعاني العليا . . فإذا هم يقيسون كل أمر بمقياس المادة لأن حواسهم وجميع مشاعرهم قد حيت في دنيا المادة وتشبثت بها فأبت إلا أن تعيش في هذه الدنيا . . وإلا أن تقيس كل شيء بهذا المقياس الخدّاع . . فهم يقيسون الدعوات والمبادىء بمقدار النفع الذي يصيبهم أو الأذى الذي ينالهم . . أولئك لا يطيقون الصبر على المحن ولا يستطيعون الثبات أمام الفتن . . فإذا هم يخسرون الدنيا والآخرة جميعاً ويتنكبون طريق الحق ويتخبطون في ظلمات الكفر كالذي يتخبطه الشيطان من المس . . ولقد جاء في القرآن الكريم بعض آيات تبين هذه المشاعر وإليكم بيانها :

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين * يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير *﴾ (الحج الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

وقد روى[1] في سبب نزول هذه الآيات عدة روايات أذكر إحداها على سبيل المثال : روي أنها نزلت في أعاريب قدموا إلى المدينة وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً فاطمأن .. وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب (رواية البيضاوي وتقاربها رواية لابن كثير عن ابن عباس) .

غير أن صاحب كتاب سيرة الرسول « محمد عزة دروزة » قد ذكر في كتابه ص **٢٤٩** تعليقاً على هذه الآيات أورده بنصه .. قال : « وأكثر الروايات على أن سورة الحج مدنية وبعضها يذكر أنها مكية .. ولقد توصلنا في درسنا لفصول هذه السورة إلى أن أكثرها مكي وأقلها مدني والآيات التي نقلناها الآن من الآيات التي رجحنا مكيتها استناداً إلى أسلوبها ومضمونها .. ولقد احتوت على ما تبادر لنا مشهداً أو صورة تمت إلى مشاهد وصور محنة الأذى والفتنة التي تعرض لها المسلمون في مكة .. وأن فيها بعض المماثلة للمشهد الذي تضمنته آيتا العنكبوت (١٠ ، ١١) .. إذ يظهر أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ... وأنهم أبدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين » انتهى .

وآيتا العنكبوت اللتان يقصدهما المؤلف في كتابه هما قوله تعالى :-

---

(١) أخرج البخاري عن ابن عباس قال كان الرجل يقدم المدينة فيسلم فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولداً ذكراً ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء فأنزل الله **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف .. الآية﴾** .. وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فقال لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي فنزلت ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف ..﴾ الآية .

﴿ومن الناس[1] من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين *﴾ (العنكبوت ١٠ ، ١١) .

ولقد ذكر نفس المؤلف في كتابه السابق تعليقاً على هاتين الآيتين جاء في ص ٢٤٨ منه الآتي نصاً :

(والروايات تذكر أن الآيتين مدنيتان وبعض عباراتهما مثل « ولئن جاء نصر من ربك » « والمنافقين » يمكن أن يقويا رواية مدنيتيهما لأنهما أشبه بصور المدينة وظروفها . . غير أن محتويات القسم الأول من الآية الأولى هي مشاهد وظروف مكية في الغالب كما أن محتويات الآيتين التاليتين لهما والمعطوفتين عليهما وهما « ١٢ ، ١٣ من نفس السورة » .

﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون *﴾ . . . هي مشاعر وظروف مكية ولذلك فإننا نرجح مكية الآيتين ولقد احتوتا مشهداً من مشاهد الأذى والفتنة إذ تلهمان أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام الأذى وعمدوا إلى النفاق للكفار ومسايرتهم .

أما الآيتان (١٢ ، ١٣) ففيهما مشهد متمم لذلك المشهد وأسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم إذ تلهمان أنهم كانوا يعمدون أحياناً إلى طمأنة المسلمين الذين يستشعرون فيهم عدم العمق في

---

(١) وزيادة في الايضاح سأذكر احدى الروايات التي وردت في سبب نزول هاتين الآيتين : أخرج إن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الاسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت ﴿إن الذين توفاهم الملائكة .﴾ الآية . . فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنوهم فرجعوا فنزلت ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا فنزلت ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا . .﴾ الآية فكتبوا اليهم بذلك فخرجوا فلحقوهم فنجا من نجا وقتل من قتل . . وأخرج ابن جرير من طرق كثيرة نحوه .

الإيمان وانهيار الأعصاب فيتعهدون لهم بحمل ذنوبهم وخطاياهم إذا هم رجعوا إلى دين آبائهم وتخلوا عن الدين الجديد . . والراجح أن الزعماء كانوا يستعملون هذا الأسلوب مع الذين لا يقدرون على اضطهادهم من أهل العصبية من المسلمين . . على أنه لا يبعد أنهم كانوا يقولون هذا القول للمسلمين في معرض الحِجَاج والجدل حينما كان هؤلاء يذكرون لهم هول يوم القيامة ومصير الكفار الآثمين فيها . . وإن كنا نرجح الأول بسبب مجيء الآيتين بعد آيتي الفتنة والأذى وما كان لهما من أثر في بعض الضعفاء في الأعصاب أو الإيمان) انتهى .

وإنني وإن كنت أؤيد الكاتب في رأيه من ناحية أن الآيات التي جاءت في سورة الحج وآيتي العنكبوت من المرجح أن تكون قد نزلت في وصف مشاهد حدثت بمكة وهي المشاهد الخاصة بالمعذبين الذين فتنوا عن دينهم وارتدوا إلى الوثنية تفادياً للفتنة والاضطهاد وإيثاراً للراحة والهدوء الدنيوي . . وأن الله تعالى قد وصف هؤلاء المرتدين « بالنفاق » ورماهم به . . غير أنني أستطيع أن أقول بكل ثقة إنه ليس لزاماً أن تكون هذه الآيات قد نزلت بمكة ما دامت هي تصف مشاهد مكية غير محتمل وقوعها بالمدينة . . وأنني شخصياً أرى أنه لا تعارض بين ما يقوله الكاتب من أن الآيات السابقة إنما جاءت في وصف مشاهد مكية وبين ما رواه أغلب المفسرين من أن هذه الآيات قد نزلت بالمدينة والسبب في ذلك غاية في الوضوح إذ أنه من المعلوم كما حدثنا المؤرخون والمفسرون والرواة على السواء . . أنه بينما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يحالفه النصر ضد المشركين في المعارك والمغازي . . المعركة تلو المعركة . . وقبل أن تفتح مكة . . كانت هنالك فئة من المسلمين الذين حبسهم المشركون بمكة لا تزال تلقى من الكيد والفتنة صنوفاً وألواناً بغية صرفهم عن دين الإسلام . . ولعل ما رواه المحدثون عن قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو حينما جاء إلى رسول الله ﷺ يحجل في قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب أثناء عقد صلح الحديبية إلى المسلمين ليحموه . . غير أن رسول الله ﷺ **قال له** : « إصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . . إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا تغدر

بهم »[1] . . وعاد أبو جندل مع أبيه سهيل بن عمرو الذي كان يتولى مع رسول الله ﷺ أمر الصلح نيابة عن قريش . . عاد أبو جندل ليذوق العذاب من جديد وليتعرض للفتنة مرة بل مرات أخر ولكن صابراً محتسباً وكان ذلك في السنة السادسة من الهجرة . . وإذا كان أبو جندل وغيره من المسلمين استطاعوا أن يصمدوا أمام تلك العواصف الهوجاء فإن الكثير من الضعفاء قد حولتهم الفتنة عن الحنيفية إلى الشرك والردة . . ولعل هذه الآيات قد نزلت بالمدينة تصف أمر هؤلاء الذين ضعفوا وارتدوا .

ب ـ أما الحالة الثانية وهي تختلف عن سابقتها تمام الاختلاف . . فالردة في الحالة الأولى كانت كرهاً وتحت تأثير الضغط والفتنة والعذاب . . أما في هذه الحالة فقد عجزت نفوس المرتدين أو المنافقين عن فهم المعاني العليا لبعض الحقائق الإسلامية والمعجزات التي كرم الله بها رسوله . . وتضاءلت نفوسهم عن تدارك أسرارها وحقرت عن السمو إلى آفاقها وشكت في ذات الله وقدرته فارتدت عن دينها وتنكبت طريق الحق والصواب وذلك كما حدث عقب حادث الاسراء والمعراج وحادث انشقاق القمر من ارتداد بعض ضعاف الإيمان .

جـ ـ أما الحالة الثالثة وهي القسم الآخر لردة غير المكره . . وفي هذه الحالة التي لم يكره صاحبها على الارتداد . . ولا هو بالذي عرضت له معجزة من معجزات الرسول ﷺ لم يستطع الصبر عليها أو فهمها . . وإنما هو نوع لفريق آخر لم يستطع الصبر على الاغتراب عن وطنه ولا تحمل أعباء الجهاد وتبعاته و لمس في نفسه الحنين إلى أهله ومواطنيه وحياته الأولى بما فيها من فساد وترف . . فآثر تلك الحياة على الإيمان وحياة الطهر والنقاء . . . ويحضرني بهذه المناسبة قصة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح وذلك فيما رواه ابن اسحاق أنه كان قد أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى . . فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش . . وزاد على ذلك بعض الرواة أنه كان يقول : « إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم . . فيقول كلّ جيد ! . . ولما كان يوم

---

(١) رواه البخاري وأحمد في صلح الحديبية .

الفتح كان عبد الله من الذين أهدر الرسول عليه السلام دمهم غير أنه فر إلى أخيه من الرضاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة ... فاستأمن له .. فصمت عليه السلام طويلاً ثم قال : نعم .. فلما انصرف عنه عثمان قال عليه السلام لمن حوله من أصحابه : لقد صمتّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه .. فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إليّ يا رسول الله ؟.. قال : **إن النبي لا يقتل بالاشارة .. أو قال : لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**[١]

لعلي في هذا الحديث عن النفاق في مكة قد أعطيت صورة واضحة عن نوع النفاق الذي كان بها .. وعساي قد استطعت أن ألقى ضوءاً على الطائفة التي نافقت بمكة في ذلك العصر قبل هجرة الرسول عليه السلام وبعد هجرته .. وأظن أنه من الواضح أنه لم يكن هنالك من المنافقين إلا المرتدون سواء في ذلك الذين أكرهوا أو الذين ارتدوا بمحض اختيارهم وإن تعددت الأسباب واختلفت الظروف .. وأستطيع القول أننا أمكننا أن نفهم حكماً قد بينته قبل تحدثي عن النفاق في مكة وهو حكم نفاق المرتد أُكره أو لم يُكره .. وسوف نتبين بعد ذلك أن هذا النوع من النفاق نوع يتميز به العصر المكي دون المدني خاصة هذا الذي أكره فيه المسلمون أو « المنافقون » إلى الردة تحت تأثير الفتنة والعذاب وإن كانت هنالك عدة وقائع تكاد تعد على الأصابع حدثت في العهد المدني تتفق وحوادث الحالتين الأخيرتين للعهد المكي .

د ـ ولدينا صورة تختلف تمام الاختلاف عن الصور السابقة والتي وضحها قوله تعالى : **﴿فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون *﴾** الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة الماعون) .. والثابت أن هذه السورة مكية .. وأن هذه الآيات بالذات إنما نزلت بمكة .. وهي تبين لنا صورة تختلف تماماً عن السابقة .. وتحدثت عن بعض الصفات العملية للنفاق بأسلوب زاجر متوعد .. واشتملت على هذه المشاهد التي لا تنم

(١) رواه النسائي في التحريم ص ١٤ وأبو داوود في الحدود ص ١ وفي الجهاد ص ١١٧

كما ذكرت إلا عن بعض صور النفاق العملي وهي : أولاً ـ السهو عن الصلاة ثانياً ـ الرياء ثالثاً ـ منع الماعون عن الناس (وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة) .

وهذه ليست إلا صورة جديدة من صور النفاق التي تحدث عنها القرآن في مكة . . والحق أنني لا أستطيع أن أجزم أن هذه الصورة كانت متواجدة بميدان الدعوة الأول ـ أعني مكة . . وليس بين يدي من أسباب النزول أو نصوص التاريخ أو الأحاديث ما أدعم به قولي اللهم إلا ما سأورده الآن . . وقد يقول قائل : ولم لا تكون هذه الآيات ليست إلا للزجر والتخويف ؟ . . وأنا لا أؤيد هذا أو أنفيه . . وإنما أقول : ولم لا تكون هذه الصور من النفاق كانت تمثل أحياناً على مسرح الحياة في مكة خاصة وقد وردت إلينا الأخبار تحدثنا عن وجود ضعاف القلوب من الذين ارتدوا عن دينهم في تلك الفترة من تاريخ الدعوة تحت تأثير الظروف المختلفة ؟ . . إذا كان مثل هذا قد حدث فلا يستبعد أن يكون أفراد من أمثال هؤلاء أعني من أصحاب النفوس الضعيفة وذوي القلوب المريضة قد وقعوا في هذا النفاق العملي . . وعلى كل فإنني لن أستطيع أن أؤيد هذا أو أنفى ذاك ما لم أدعم رأيي بالأدلة والبراهين . . فلكل أن يعتقد ما يشاء . . غير أن هذا الذي ذكره السيوطي في كتابه « لباب النقول في أسباب النزول » من أن ابن المنذر أخرج عن طريف بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : « فويل للمصلين » (الآية) قال « نزلت في المنافقين كانوا يراءون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية » . . غير أن هذا الذي ذكره السيوطي وأخرجه ابن المنذر يلقى شعاعاً أمام أعيننا ويترك أمام أبصارنا بصيصاً من نور يكشف لها عن الحقيقة .

لقد عقدت هذا الفصل لأعطي صورة واضحة عن النفاق في مكة . . وتحدثت أثناء ذلك عن ردة المكره وردة غير المكره . . وأتيت بالحجج والبراهين أن الردة ليست نفاقاً . . أعني نفاقاً عقيدياً لا عملاً لا يأتيه مؤمن بالله ورسوله وكفراً لا يتورط فيه إلا من أكل النفاق قلبه . . ولست في هذا مبتدعاً ولا بالذي يذكر ما لم يذكره السابقون . . فهذا أبو محمد علي بن حزم صاحب كتاب المحلى

يفرد باباً ليس بالقصير[1] يرد فيه على فقهاء رأوا ألا يقتل المرتد لأن رسول الله ﷺ لم يقتل المنافقين وهم مرتدون مع علمه بهم . . !! وسأنقل مستهل هذا الباب بنصه لأنه هو الذي يعنينا :

(٢١٩٩ مسألة ـ من المنافقين والمرتدين قال قوم : إن رسول الله ﷺ قد عرف المنافقين وعرف أنهم مرتدون كفروا بعد إسلامهم وواجهه رجل بالتجوير وأنه يقسم قسمة لا يراد بها وجه الله وهذه ردة صحيحة فلم يقتله . . قالوا : فصح أنه لا قتل على مرتد ولو كان عليه قتل لأنفذ ذلك رسول الله ﷺ على المنافقين المرتدين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ إلى قوله تعالى ﴿فهم لا يفقهون﴾ انتهى .

ولست بصدد مناقشة الحكم الفقهي الخاص بقتل المرتد أو خلافه الآن . . ولكنني أسوق هذا لأوضح أن ارتداد المنافق لا يخرجه أصلاً من دائرة النفاق . . وإنني لأذهب أبعد من ذلك فأقول بعدما أوضحت وبينت بالأدلة والبراهين : إن الردة ليست إلا نفاقاً عقيدياً من النوع الذي يأتي على العقيدة من جذورها . . نفاقاً لا يستقر معه بنيان لفكرة ولا بناء لإيمان .

النِّفَـاق في المَدِينَـةِ

أ ـ ماذا أعنى بالنفاق في المدينة ؟

إنني حينما أتحدث عن النفاق في المدينة فلا أقصد في المدينة وحدها . . وإنما أريد الحديث عن النفاق في المدينة وما حولها . . أي الحديث عن النفاق في العهد المدني .

والحقيقة أن النفاق لم يكن قاصراً في ذلك العهد على أهل المدينة وحدهم . . وإنما كان هنالك منافقون خارج المدينة . . وحينما أقول خارج المدينة لا أعني الأعراب الذين يقطنون حولها فحسب وإنما أريد أن أبين أنه كان هنالك منافقون في البلاد التي دانت لحكومة الرسول ﷺ في المدينة كما حدث في

(١) صفحة ٢٠١ الجزء الحادي عشر من المحلى لابن حزم .

اليمامة مثلاً وغيرها ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم * ﴾

ب ـ متى ظهر النفاق بها ؟

روى المؤرخون أن رسول الله ﷺ حينما هاجر إلى المدينة وأسلم من أسلم من الأوس والخزرج . . ولم يسلم من أهل الكتاب إلا القليل أمثال عبد الله بن سلام رضي الله عنه . . لم يكن النفاق قد ظهر في المدينة بعد . . ولكن بعد أن نصر الله رسوله عليه السلام في غزوة بدر ذاك النصر المؤزر وكان عبد الله بن ابي بن سلول ما يزال مشركاً . . وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج . . وكان سيد الطائفتين أي الأوس والخزرج معا . . وكانوا قد عزموا الأمر على أن يملكوه عليهم وأعدوا لذلك الخرز وعقدوه أهبة لتتويجه . . ولكن بعد أن منّ الله عليهم بالإسلام وهاجر إليهم رسول الله ﷺ . . شغلوا بذلك عن أمر ابن سلول . . فحقد على الاسلام وأهله . . وبقى في نفسه من ذلك شيء . . ولما كتب الله للمسلمين النصر في غزوة بدر قال ابن أبي «هذا أمر قد توّجه» . . أي ظهر أمره وعلا . . فأظهر الدخول في الاسلام ودخل معه طوائف ممن هم على شاكلته . . ومن ثم تواجد النفاق في المدينة . . كما وأظهر الدخول في الاسلام فريق من أهلها وآخرون ممن حولهم من الأعراب . . أما المهاجرون فلم يكن فيهم نفاق ولا منافقون لأنه لم يكن فيهم أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله والدار الآخرة .

ولقد بلغ عدد المنافقين في المدينة ثلاثمائة رجل وسبعين امرأة أحدثوا بها من الفرقة والشقاق والكيد أموراً ما كان يستطيع التغلب عليها إلا رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي الذي جمع له من أسباب الحكمة والقوة والقهر وبعد النظر مالم يجتمع لزعيم قبله ولا بعده . . ولولا هذه الإمكانيات التي خص الله بها رسوله ما كان يعلم أحد إلا الله المصير الذي كان يؤول إليه الإسلام ودعاته والمدينة وحكومتها . . وسوف أذكر بعض أسماء المنافقين الذين لعبوا دوراً خطيراً

على مسرح المدينة مكتفياً الآن بذلك .. ولن أضن بالادلاء بنبذ عن بعضهم :. أما ما ارتكبوه من حوادث وما قاموا به من بشائع فلن تكون مجال حديثي الآن .. والواقع أننا إذا استعرضنا بعض اسماء المنافقين نجدهم إما من الخزرج أو من الأوس .. ومن أهل الكتاب الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر منافقون ليس من الهين أمرهم .. وهنالك فريق رابع ليسوا من المدينة ولكنهم من الأعراب المجاورين لها أو من تلك القبائل التي وصلها نور الاسلام وضياؤه وإن تباعد عن المدينة منزلها كبني حنيفة مثلاً :

أولاً ـ منافقون من الأوس والخزرج : ـ

١ ـ عبد الله بن أبي بن سلول .. وهو رأس المنافقين وفيه نزلت سورة «المنافقون بأجمعها .. والآيات (من ١١ إلى ١٧ من سورة الحشر) وآيات كثيرة أخرى .. وقد تحدثت عن سيرته في قومه وكيفية دخوله الاسلام آنفاً .. وعبد الله بن أبي خزرجي بل كان زعيماً للخزرج .

٢ ـ زوىّ بن الحارث .. وهو أوسي .

٣ ـ جلاس بن سويد بن الصامت .. وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : **«يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً اليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾** .. ويقال إنه تاب بعد ذلك وحسنت توبته .

٤ ـ والحارث بن سويد أخو جلاس.. وهو الذي نزل فيه قوله وتعالى : **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين *﴾** .. إلى آخر القصة .

٥ ـ وبجاد بن عثمان بن عامر .. وهو من بني ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف.

٦ ـ وتبتل بن الحارث .. وهو الذي قال فيه عليه السلام : **﴿من أحب**

أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى تبتل بن الحارث﴾[1] ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

٧ - وأبو حبيبة بن الأزعر.. وكان ممن بنى مسجد الضرار.

٨ - ٩ - روى لابن إسحاق أن ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير منافقان.. وهما اللذان نزل فيهما قول الله تعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصَّدَّقن ولنكونن من الصالحين﴾.. إلى آخر القصة (التوبة الآيات ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨).. وذكر أيضاً أن معتب هو الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا﴾ (آل عمران الآية ١٥٢)

غير أن ابن هشام علق على ذلك فقال: «معتب بن قشير وثعلبة والحارث إبنا حاطب من أهل بدر وليسوا منافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم.. ثم قال وقد نسب ابن اسحاق ثعلبة والحارث في بني أمية بن زيد في أسماء أهل بدر».

ومعتب هذا كما ذكر ابن أسحاق هو الذي نزل فيه قول الله تعالى: «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً»

١٠ - خزام بن خالد.. وهو الذي أخرج مسجد الضرار من داره.

١١ - عباد بن حنيف. ١٢ - يخزج ١٣ - عمرو بن خزام ١٤ - عبد الله بن نبتل.

١٥ - جارية بن عامر بن القطاف ١٦ ١٧ - زيد ومجمع إبنا جارية.. وهم جميعاً ممن اتخذ مسجد الضرار.. أما مجمع فكان قد جمع من القرآن أكثره

---

(١) اخرجه بن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه ابن هشام في السيرة النبوية ط ٢ ص ١٦٨ بعنوان من أجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار.

وكان يصلي بهم فيه . . ثم إنه لما أخرب المسجد . . وكان عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كُلِّم في مجمع ليصلي بأناس من بني عمرو بن عوف من الأنصار فقال : «لا . . أوليس بإمام المنافقين في مجسد الضرار ؟» . . فقال لعمر : «يا أمير المؤمنين . . والله الذي لا إله إلا هو ما علمت بشيء من أمرهم ولكن كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا لا قرآن معهم فقدموني أصلي بهم وما أرى أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا» . . فزعموا أن عمر تركه فصلى بقومه .

١٦ ويعة بن ثابت . . وهو ممن بني مسجد الضرار . . وهو الذي نزل فيه قوله وتعالى: **﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾** إلى آخر القصة .

١٧ - مربع بن قيظى . . وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين مرّ في بستانه وكان الرسول عليه السلام وقتها في طريقه إلى أحد . . «لا أمل لك يا محمد إن كنت نبياً أن تمر في حائطي» وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال : «والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به» . . فابتدره القوم ليقتلوه . . فقال رسول الله ﷺ : **«دعوه . . فهذا الأعمى . . أعمى القلب . . أعمى البصيرة»**[1] . . فضربه سعد بن زيد أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجه .

١٨ - أوس بن قيظي . . وهو الذي نزل فيه قول الله تعالى: **﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾** . . وهو أخو مربع .

١٩ - حاطب بن أمية بن رافع .

٢٠ - وبشير بن أبيرق (أبو طُعمة) . . سارق الدرعين . . فيه نزل قوله تعالى : **﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾** إلى آخر القصة

٢١ - الضحاك بن ثابت . . وكان يتهم بالنفاق .

(١) رواية بن هشام في سيرته عن أبن اسحاق ص ١٧٠ وما بعدها جـ ٢ .

٢٢ ـ رافع بن وديعة . . وهو خزرجي .

٢٣ ـ وزيد بن عمرو .

٢٤ ـ وعمرو بن قيس .

٢٥ وقيس بن عمرو بن سهل . . وكلهم من الخزرج . . ثم من بني النجار .

٢٦ ـ والجد بن قيس . . من بن جشم . . وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : **﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنى ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** . . إلى آخر القصة .

ثانياً ـ المنافقون من أحبار اليهود : ـ

١ ـ سعد بن حنيف .

٢ ـ وزيد بن الصليت .

٣ ـ ونعمان بن أوفى بن عمرو .

٤ ـ وعثمان بن أبن أوفى . . وكلهم من بني قنيقاع .

٥ ـ ورافع بن مريملة . . وهو الذي قال له الرسول ﷺ ـ حين مات : **«قد مات[1] اليوم عظيم من عظماء المنافقين»**

٦ ـ ورفاعة بن زيد بن التابوت . . وهو الذي قال له رسول الله ﷺ[2] حين هبت عليه الريح وهو قافل من غزوة بني المصطلق واشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها . . فقال لهم رسول الله ﷺ : **«لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار»** . . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد المسلمون أن رفاعة بن زيد بن التابوت قد مات في ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح .

٧ ـ وسلسلة بن برهام .

٨ ـ وكنانة بن صويريا .

---

(١) و (٢) رواية ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق ص ١٧٠ وما بعدها ص ٢

ثالثاً ـ منافقون أُخر : ـ

١ ـ أبو عفك . . وهو من بني عمرو بن عوف ثم من بني عبيدة . . وكان نفاقه قد ظهر بعد مقتل الحارث إبن سويد بن صامت وكان عليه السلام هو الذي أمر بقتله . . فأمر رسول الله ﷺ بقتله فخرج له سالم بن عمير أخو بني عمرو وابن عوف فقتله وكان سالم هذا أحد «البكائين» .

٢ ـ عصماء بنت مروان . . وهي من بني أمية بن زيد . . ظهر نفاقها حين قتل أبو عفك فأمر عليه السلام بقتلها . . فقتلها عمير بن عدي الخطمى .

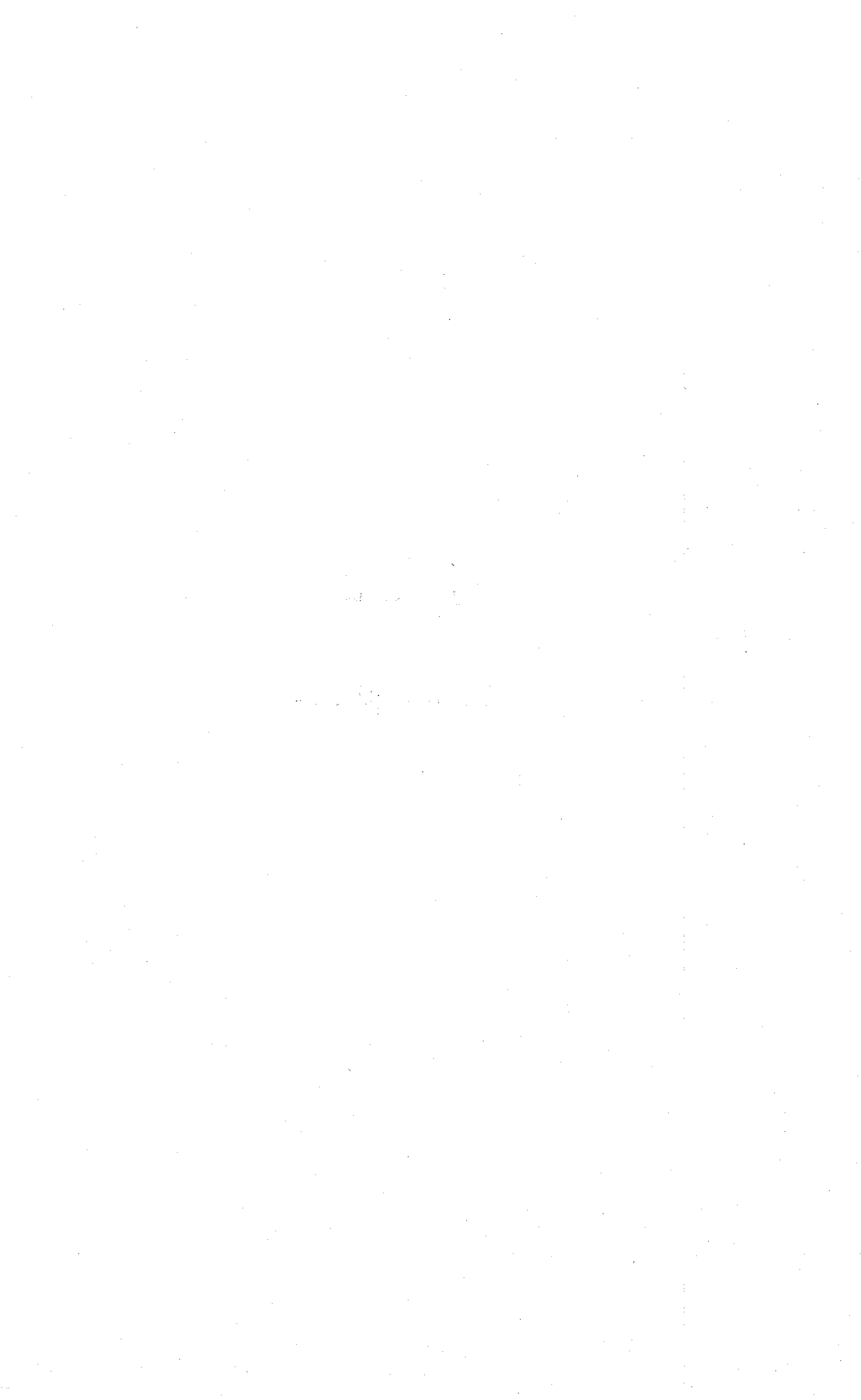
٣ ـ منافق بني حنيفة . . وهو الرّحال بن عنفوة منافق اليمامة . . حفظ أكثر القرآن عن أبي بن كعب رضي الله عنه . . ثم تشيع لمسليمة الكذاب وعاونه . . وقيل فيه نزل قوله تعالى : **﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾** إلى آخر القصة(سورة الاعراف الآيات ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧)

٤ ـ الأخنفس بن شريق الثقفي : وأصله من ثقيف . . وكان حسن المنظر حلو المنطق . . وكان ممن ادعى الاسلام غير أنه كان منافقاً وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام﴾** (البقرة ـ الآيات ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦) .

هذه بعض الأسماء التي لعبت دوراً في مأساة النفاق بالمدينة . . قد آثرت أن أذكر نبذاً قصيرة عن بعضها . . غير أنني لن أكتفي بهذا وإنما سأتعرض لهم ولأفعالهم بالإسهاب والايضاح في الأبواب التي تلي ذلك كلما كان هنالك مجال لذلك إن شاء الله .

البَابُ الثاني

خُلُق النِّفَاق



مَن هوَ المنَافِق ؟

لعل السؤال الذي أراه بادياً على وجوهكم . . وإجابته في الحقيقة هي محور حديثنا وهي لب الموضوع الذي طرقناه الليلة والذي كان الحديث من أجله . . والحق أقول إنني أكاد أحس حيرة تغشى وجوهكم . . واستطيع أن أقول إنها ليست إلا الحيرة التي نجمت عن القلق الذي يساوركم عما اذا كنت سأطرق هذا الموضوع أم لا ؟ . . أم أن الحديث ذو شجون وقد ينسيني الإسهاب في بعض النواحي أن أطرق الحديث عن الهدف الأصلي لموضوع كلامنا الليلة !! . . غير أنني أحب أن أذكركم أن الحديث عن شيء ما لابد وأن تكون له مقدمات . . بل وذيول يتحدث عنها أو تتناول ـ لا من غير فائدة . . وإنما بقصد الايضاح والقاء الأضواء على حقيقة الموضوع ولبه . . ولعل ذلك السؤال الذي أخذت الحيرة منكم في سبيله كل مأخذ . . أنكم تريدون أن تقولوا لى : لقد تحدثت عن النفاق وملابساته وظروفه ومتى يظهر وكيفية هذا الظهور . . وهل هو ملازم للدعوات أم لا ؟ . .وذكرت شيئاً عن النفاق في مكةثم عن ظهوره في المدينة . . غير أن الموضوع الذي كان من أجله ذلك الضجيج الذي سمعت وذلك الجدال والمراء الذي أنكرت . . هذا الموضوع الذي ما زلنا في لهفة لسماع ما يدور حوله لم تحدثنا حتى الآن عنه بكلمة واحدة . . وأنا اوافقكم على ذلك فأقول : أنكم تريدون أن تسألوا من هو ذلك المنافق الذي كان له في تاريخ الدعوة الإسلامية دوره الرهيب ؟! . . تريدون أن تسألوا عن شخصيته وكنهه ؟

وما هي صفته ؟ وكيف نتعرف عليه ؟ وأنا أجيبكم إجابة المطمئن : أن أجل . . لقد بحثت هذا الموضوع من قبل وكم كنت في حيرة من أمره . . غير أن الله هداني إلى حقيقته التي يجب أن يعرفها كل حريص على أن يلم بتاريخ الصدر الأول للإسلام وما اعترض الرسول عليه السلام وأصحابه من عقبات . . وإنني حينما أذكر أنني توصلت الى حقيقة ما فلست أعني بذلك أنها الحقيقة التي لا يتأتاها الخطأ أو أنها الحقيقة التي لا علم فوقها . . وإنما أقول اجتهدت وطلبت من الله العون فهذا ما استطعت أن أصل إليه . . فقد أكون أصبت . . أو قد أكون مصيباً في بعض ما وصلت إليه ومخطئاً في البعض الآخر . . إلا أنني لم آلُ جهداً في البحث والتنقيب حتى أوفي الموضوع حقه وأضع بين يدي طالب الحقيقة صورة واضحة لشخصية المنافق من جميع جوانبها . . ولقد استطعت أن أخرج هذه الصفات وأبرزها . . ولقد استخلصت صفات المنافقين من كتاب الله وأحاديث رسوله عليه السلام مستنيراً بأعمالهم في عهده ﷺ .

ولقد استبان لي نتيجة البحث والتنقيب أن لهؤلاء القوم أوصافاًحسّية وأخرى معنوية . . أما الحسية فإنني لا أستطيع ان أقول إنها تنطبق على جميع المنافقين وإنما هي جاءت تصف أشخاصاً بعينهم وتوضح أناساً بذاتهم . . أما الناحية المعنوية وهي عين القصيد . . نستطيع ان نقسمها إلى قسمين : **الأولى**: أحاديث وآيات جمعت صفات معينة باجتماعها في شخص كان منافقاً خالصاً وإن تواجدت به خصلة من هذه الخصال كانت به صفة من صفات النفاق . . وأما **الثانية**: فصفات نثرية يمكن جمعها واستنباطها من الآيات التي نزلت في المنافقين . . وكذلك من الأحاديث والآيات التي وردت موضحة اعمالهم وفعالهم . . وقد تكون إحداها كفيلة ـ كوحدة قائمة بذاتها ـ أن تدمغ حاملها بالنفاق أو أن الواحدة منها لا تصلح ان تكون دليلاً على ذلك إلا بإضافتها لبعض أخواتها .

أولاً ـ صفات حسية للمنافقين :

أ ـ لقد جاء في الآية الرابعة من سورة « المنافقون» قول الله تعالى: **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم. وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾** .

ب ـ **ولقد ورد أن رسول الله ﷺ قال عن نبتل بن الحارث** وهو أحد المنافقين: من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث» . . وكان نبتل هذا رجلاً جسيماً طويل القامة أسود اللون مسترخي الشفتين ثائر شعر الرأس أحمر العينين بخدّيه حمرة تضرب إلى السواد. . **ولقد ذكر ابن اسحاق أنه حدث** :«**أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ** فقال له : (أنه يجلس إليك رجل أدلم[1] ثائر شعر الرأس أسفع[2] الخدين أحمر العينين كأنهما قدران من صُفْر كبده أغلظ من كبد الحمار ينقل حديثك إلى المنافقين ... فأحذره) . . وكانت تلك صفة نبتل بن الحارث[3] فيما يذكرون» .

ولو أننا قارنا بين ما احتوت عليه الآية بما جاء بالحديث الذي يليها لوجدنا صورتين متباينتين متضاربتين كل التضارب من ناحية الوصف البدني والتركيب الإنساني والخلقة الآدمية :

١ ـ الآية قد احتوت على صفتين حسيتين لرجل من المنافقين: أما الصفة الأولى فهي جمال الخلقة وحسن المنظر «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم» . . أما الصفة الثانية فهي عذوبة الحديث وطلاوته ورقته ودماثته «وإن يقولوا تسمع لقولهم» . . ولكن ليس ذلك عن علم . . إنما عن جهل بحقيقة الأمور وكنهها «كأنهم خشب مسندة» .

والذي يتضح من هاتين الصورتين أن المقصود بهذا الوصف رجل من أهل الأبهة والثراء والغنى والترف . . رجل من وجهاء القوم وسادتهم ومن ذوي الصدارة والمكانة بين الناس .

٢ ـ الحديثان المرويان عن ابن اسحاق في صفات نبتل نستطيع أن نستخلص منهما هاتين الصفتين :

أما الصفة الأولى : فهي قبح المنظر وذلك لوصف الرسول ﷺ ذلك

---

(١) الأدلم : يعني الأسود الطويل : ويقال هو المسترخي الشفتين .

(٢) السفع : حمرة تضرب إلى السواد .

(٣) **أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه وينقل حديثه إلى المنافقين فأنزل الله ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي . . . الآية﴾**

الرجل بأنه شيطان.. وما جاء في الحديث من وصف خلقته .. شعر رأسه الثائر .. واسترخاء شفتيه .. واحمرار عينيه .. الخ .. وأما الصفة الثانية : فهي الشراسة والغلظة والوحشية .. وذلك من وصف جبريل عليه السلام له بأن «كبده كبد حمار» .. ثم أن صورة الإنسان التي تكون بهذه الكيفية لا يمكن أن تحمل غير هذا من المعاني .

ومن هاتين الصفتين يتضح لنا ان الصورة التي أمامنا لا يمكن ان تعبر إلا عن شخصية من رعاع القوم وسوقتهم .. شخصية فظة غليظة تبدو عليها دمامة الخلقة وسوء المنظر .. ومن المحقق أن الآية التي سبق ذكرها إنما نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول.. وعبد الله هذا إنما كان سيد قومه .. وكان الأوس والخزرج قد ارتضوه ملكاً عليهم وكانوا يعدون العدة لذلك لولا قدوم رسول الله ﷺ إليهم وانشغالهم به وبأمر الدعوة عن عبد الله بن أبي وأمر ملكه .. ولقد كان عبد الله حسن الخلقة جميل الصورة عذب الحديث سيداً مهاباً في قومه .. ومن المؤكد أيضاً أن الحديثين السابق ذكرهما إنما وردا في نبتل بن الحارث والذي لا تدل صورته التي امامنا على أنه كان من غير طبقة السوقة الرعاع .

من كل هذا وذاك نستطيع ان نستنتج أن المنافقين إنما يتواجدون في الغالب الأعم من بين طبقتين متباينتين من طبقات الشعب :

أما الأولى : فهي طبقة اولئك السادة المترفين الذين كانوا يحقدون على أصحاب الدعوة المحمدية ورجال المبدأ الجديد أمر ظهورهم واحترام الناس لهم وحبهم لأشخاصهم .. اولئك الذين كرهوا دعاة الدين الجديد وخشوا منافستهم لهم في سلطانهم وصرف الناس عنهم .

إن تجنب العرب لمجالسهم التي كلها سوء وإثم وإيثارهم مجالس اولئك الدعاة الذين يدعون إلى الله ورسوله والذين ينادون إلى الطيب من القول والفعل أمر يثير هؤلاء السادة الذين يملي عليهم خيال أبراجهم العاجية .. يملي عليهم أن كل سلطة لا بد أن تكون مستمدة من أشخاصهم التافهة وأن كل سلطان لا بد أن يكون لهم .. وأنه لا يجوز للناس أن يجتمعوا إلا حولهم ولا

يهتفوا إلا بأسمائهم . . إنهم يتوهمون أن الإمارة وقف عليهم فهم لذلك يطلبونها ويقتلون من أجلها وفي سبيلها . . إنهم يعبدون الظهور من دون الله فهم يحاربون كل إنسان ظهر . . ولو كان هذا الظهور ليس بغيتهم وليس له بذنب . . إنما جريرته هي حسن خلقه وطيب سريرته إذ أظهراه ورفعاه . . وإن كانت هذه ليست مشيئته ولا إرادته إنما هي مشيئة الله وإرادته . . لأن الله لا بد أن يظهر جنده ويعلي راية عبده . . وأخيراً فإن أنانية هؤلاء تملك عليهم كل سبيل وتطغي على كل دافع من دوافع الخير فيجردون الجند والأعوان لحرب المؤمنين إن كان هؤلاء ضعافاً فيكونون بذلك كفاراً . . أو يلجأون إلى حظيرة المؤمنين ويأوون إلى صفوف المتقين لا ليكونوا مؤمنين ولا ليكونوا من المتقين . . ولكن ليدبروا في الخفاء وليبيتوا في الظلام . . وهم بذلك يؤثرون حياة النفاق إذا رأوا أن قوة هؤلاء سوف تحول بينهم وبين الحرب الجهرية أو سوف تكون حصناً دون المجاهدة العلنية . . وذلك ما فعله ابن أبي ومن ظاهره من قومه حينما رأى دين الله عز وانتصر وعلم ألا طاقة له بمقاومة رسول الله وأصحابه تظاهر باعتناق الدين الجديد حتى يستطيع العمل من وراء ستار . . ولكن الله كشف سره وهتك ستره وأبان لرسوله سوء فعله .

أما الثانية : فهي طبقة الرعاع والدهماء . . لأن الصورة التي يرسمها ما جاء في حديثي نبتل ليست إلا صورة رجل من هذه الطبقة . . ولأن قول جبريل عليه السلام عن ذلك الرجل « ينقل حديثك للمنافقين فاحذره » لا يمكن أن تكون إلا عن رجل من هذه الطبقة . . وإلا حدثوني بربكم أي رجل من علية القوم ووجهائهم يقبل أن يكون في هذا الموضع الذي ارتضاه لنفسه نبتل ؟ هل يرتضي رجل كابن أبي أو من كان في مكانته أو دون ذلك . . وهم من عرف عنهم الكبرياء والصلف يرتضي أن يجلس في مجالس الرسول عليه السلام يسترق الأخبار للمنافقين وينقلها إليهم ؟! . . . إن الرجل الذي يفعل ذلك لا يكون إلا ضعيف الشخصية حقيرها مأموراً من سادته أو مأجوراً لهم . . . يفعل ذلك لا يضيره أن تتنزل نفسيته الوضيعة إلى هذا المستوى . . كل ذلك ليس إلا بغية رضاء سادته أو أن يحوز القبول عندهم .

ومن هذه الحقائق التي ذكرتها نستطيع أن نستشف أن المنافقين إنما يكونون في أغلب الأحيان إما من طبقة السادة وإما من طبقة الرعاع أعني العبيد والأتباع أو منهما معاً . . فالطبقة الأولى كما قلت طبقة حقودة تريد أن تصل إلى بغيتها وتنال مأربها ثم هي لا تفكر بعد ذلك في أمر الوسيلة . . شريفة كانت أم غير ذلك . . . أما أفراد الطبقة الثانية فهم اولئك الذين استهوتهم المنافع الشخصية والقيم المادية فأنستهم الحياة الروحية وعذوبتها فآثروا سعادة البدن وفضلوا شقاء الروح ما دام ذلك سيرضي شهواتهم البهيمية وسيطرة سادتهم وكبرائهم . . وفي الحقيقة هذه دائماً هي الطبقة المسكينة التي عليها المغرم وللسادة المترفين المغنم ولو في الدنيا . . ولو إلى حين . . ومرد الفئتين إلى النار وبئس المصير .

ولست أقصد من حديثي هذا أن أجعل النفاق والمنافقين قاصراً على فئتين من طبقات الشعوب دون الثالثة . . ولكني أرجح ذلك وأقول إنه في غالب الأحيان وأعمها . . وأرى أن السواد الأعظم إنما يكون من هاتين الطبقتين . وهذا ما يمنع أن يكون من بين أفراد الطبقة الثالثة من تستهويهم المنفعة الشخصية أو يستدرجهم الحقد الدفين إلى مهاوي الهلاك وإلى مواطن الفتنة والدمار .

ثانياً ـ الصفات المعنوية للمنافقين :

وقبل أن أحدثكم عن الصفات المعنوية للمنافقين سأحاول أن ألقي أضواء على أشياء كثيراً ما تخالج النفس . . وسأجيب على أسئلة كثيراً ما يحار العقل في الإجابة عليها . . ولعل الكثير منا يسائل نفسه مراراً . . وقد يجد الإجابة على أسئلته أو يعثر عليها فتستريح لذلك نفسه . . وقد لا يستطيع ذلك فتظل نفسه في حيرة . . وتظل تسائله وتلح عليه في ذلك . . هل يتعبدون كما يتعبد المؤمنون ؟ هل يقرأون القرآن كما يقرؤه المؤمنون ؟ هل يجاهدون كما يجاهد المؤمنون ؟

وأنا أجيب على هذه الأسئلة فأقول إن هذه الأفاعي كثيراً ما تتنكر في مسوح الرهبان . . وأن هذه الذئاب تحرص على أن تبدو في هيئة الأبرار . . وأن

هؤلاء الأبالسة كثيراً ما يتراءون لنا في ثياب ملائكية طاهرة . . غير أنني اؤكد لكم أن هذه الخفافيش التي لا تؤثر العمل إلا في الظلام كثيراً ما يفاجئها ضوء الصبح القوي المشرق فيذهب بأبصارها فإذا بها تتخبط في حيرة من أمرها تخبط المغشى عليه . . . أما تلك الأسئلة التي قد تحارون في أمرها . . فسأجيبكم عليها واحداً فواحداً وستجدون أن الأمر غاية في السهولة واليسر :

أ ـ هل يتعبدون كما يتعبد المؤمنون ؟

إن الاجابة على هذا السؤال أيسر مما تظنون ولن يحار المرء في الرد عليه إذ بين أيدينا حديث ورد في الصحيحين سوف يطمئن النفوس الحائرة ويلقي ضوءاً على الأمور الغامضة :

فلقد روى الشيخان من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه « حرقوص » لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له «اعدل فانك لم تعدل » فقال «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » . . ثم قال عليه السلام وقد رآه مقفياً « إنه يخرج من ضئضىء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم . . يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء » .

والمعنى العام الذي يفهم من هذا الحديث أنه سيتواجد أقوام يحقر الرجل من المؤمنين صلاته بجانب صلاتهم وصيامه بجانب صيامهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الجانب الآخر للقوس . . ثم يوصي عليه السلام بقتلهم ويقول مبالغة في زجر هؤلاء الناس وذمهم : أنهم شر قتلى على وجه الأرض . . فهذا الحديث دليل قوى على أنهم يعبدون الله فيما يبدو للناس عبادة قوية ولكن نفوسهم انطوت على الشر وقلوبهم امتلأت كيداً وفتنة .

ب ـ هل يقرأون القرآن كما يقرؤه المؤمنون :

ومن[1] طريق مسلم حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا عبد الواحد ـ هو ابن

---

(١) المحلي لابن حزم حـ ١١ ص ٢٢٠ الطبعة المنيرية .

زياد ـ عن عمارة بن القعقاع عن عبد الرحمن بن أبي نعيم قال : سمعت أبا سعيد الخدري يقول « بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله (ﷺ) من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تخلص من ترابها فقسمها بين أربعة نفر : عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وزيد الخيل .. وشك في الرابع .. فقال له رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بها من هؤلاء .. فبلغ ذلك النبي ﷺ **فقال : « ألا تأمنوني وأنا أمين في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء »** .. فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الأزرار .. فقال : « يا رسول الله إتق الله » .... فقال : « ويلك .. أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ؟ » .. ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد : « يا رسول الله .. ألا أضرب عنقه » .. فقال : « لعله أن يكون يصلي » .. قال خالد « وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه » .. **فقال** رسول الله ﷺ : « **إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم ..** إنه يخرج من ضئضئي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .

كما روى أيضاً أنه بينما كان رسول الله ﷺ يوزع أو يقسم ذهباً وفضة .. قال له رجل « يا محمد .. والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت » .. **فقال نبي الله ﷺ : « ويلك .. فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟ » ثم قال نبي الله : « إحذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي** أشباه هذا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم .. فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » .. نعم إنهم يقرءون القرآن كما نقرأ غيره أنه لا يتقبل منهم ولا يصعد عملهم هذا إلى السماء .... بل إن رسول الله ﷺ يوصي بقتلهم .

جـ ـ هل يجاهدون مع المؤمنين ؟

روى ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ كان يقول عن قُزمان : « إنه من أهل النار » .. فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً حتى قتل بضعة نفر من المشركين (قيل إنهم تسعة) .. فأثبتة الجراحات فحمل الى دار بني ظفر فقال له

رجال من المسلمين ابشر يا قرمان . . فقد ابليت اليوم وقد أصابك ما ترى في الله . . فقال : « بماذا أبشر . فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي » . . . فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهما من كنانته فقطع بها رواهش (عصب اليد الظاهر) يده فقتل نفسه . . والمعروف ان قزمان هذا كان من المنافقين .

ذلك مثل من أمثلة بطولة هؤلاء المنافقين وجرأتهم وحميتهم وشجاعتهم . . ولست أعني أن كل المنافقين شجعان . . ولست أعني أن كلهم على جانب عظيم من الجرأة . . ولكنني أقول إن المنافق قد يكون شجاعاً . . ولكن تلك الشجاعة التي ليس لله فيها نصيب لا تمحو النفاق من قلبه . . فلو أن رجلاً منافقاً مثل قزمان هذا كان بين ظهرانينا اليوم . . وقاتل قتال المستميت . . وساعدته ظروفه فقتل اثناء المعركة أو لم يجهز على نفسه مثل قزمان هذا . . ولم يكن وحي مثل الذي كان على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليخبرنا عن المنافقين وأسمائهم . . أفلا يكون قزمان هذا من الأبطال الذين تقام لهم التماثيل . . ويتحدث الناس بذكرهم ولكن إلى حين . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . إلى يوم الحساب الأكبر حيث لا تخفى على الله خافية . . وحيث يفتضح فيه أمر المفضوحين .

تلك أدلة قاطعة على أن هذه الفئة قد يختلط على الإنسان أمرها . . وأن هؤلاء القوم قد يتخذون من التدين والتعبد والمجاهدة ستاراً لجسيم أعمالهم . . والأمر حينما أبرزه على هذه الصورة قد يبدو خطيراً بل وأي خطورة تكتنفه وتحيط به ؟ ولكنني لا أحب أن أقابل الأمور بمثل هذا الجزع ولا أحب أن يسيطر علينا الفزع إلى الحد الذي يذهب معه التفاؤل . . إن هذه الفئة فعلاً فئة خطيرة . . والسر في خطورتهم أنهم يعملون من وراء الكواليس ويندسون بين صفوف العاملين يوقعون الفتنة بينهم . . ويشيعون الفشل بين صفوفهم . . وما كان الله جلت قدرته أن يدع أمرهم سراً غامضاً ولا لغزا لا يستطيع المؤمنون حله أو الوقوف على حقيقته . . ولقد تكفل جلت قدرته بذلك فقال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ (محمد - الآيتان ٢٩ ، ٣٠) .

ولقد أخرج الله أضغان هؤلاء القوم بما أنزل في كتابه تبياناً لصفاتهم وسوء فعالهم حتى أصبح أمرهم معلوماً لجميع المسلمين .

ولقد كانت تسمى سورة التوبة « بالفاضحة » لأنها السورة التي نزل فيها الكثير عن المنافقين فلم يعد أمر هذه الطائفة بالسر الغامض ولا بالطلسم المعقد الذي لا يستطاع معرفة كنهه . . فلقد فضح الله أمرهم وهتك أستارهم وكشف ما انطوت عليه نفوسهم حتى أنه لم يعد بالعسير على الانسان أن يتفرس في حركات الرجل وأعماله وما يبدو من فلتات لسانه وما يظهر على صفحات وجهه فيدرك خطورة أمره وسوء ما انطوت عليه نفسه . . وكما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : « ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه » . . وفي الحديث . . « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيراً فخير وإن شراً فشر » .

أما ما حدثنا عنه الرواة والمحدثون من أن رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يخبره الوحي عن أسماء كثير منهم وفعالهم إنما كان هذا نوعاً من إكرام الله تعالى لرسوله عليه السلام . . ولقد جاءت الأحاديث تؤيد ذلك :

١ - ما رواه الامام أحمد رضي الله عنه عن وكيع عن سلمة عن عياض بن عياض عن أبيه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال : (خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت فليقم - ثم قال : قم يا فلان قم يا فلان قم يا فلان . . . . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . ثم قال : إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله » . . قال : فمر ، عمر رضي الله عنه برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه فقال مالك ؟ فحدثه بما قاله رسول الله ﷺ فقال : بعداً لك سائر اليوم) .

٢ - ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن سعد رضي الله عنه في طبقاته الكبرى . . قال :

أخبرنا الهاشم بن القاسم قال : حدثني سليمان عن ثابت يعني البستاني قال : اجتمع المنافقون فتكلموا فيما بينهم فقال رسول الله ﷺ : « إن رجالاً

منكم اجتمعوا فقالوا كذا وقالوا كذا فقوموا واستغفروا الله وأستغفر لكم » ثلاث مرات . . . فقال : « ما لكم قوموا فاستغفروا الله واستغفر لكم » ثلاث مرات . . فقال : « لتقومن أو لأسمينكم بأسمائكم » . . فقال : « قم يا فلان » قال « فقاموا خزايا متقنعين (أي يغطون وجوههم من الخزي) .

٣ ـ ما كان يخبره به جبريل عليه السلام كما سبق أن ذكرت في حديث نبتل بن الحارث .

٤ ـ ولقد ورد في الأثر أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان يلقب (بصاحب سر رسول الله) ﷺ . . وذلك لأنه عليه السلام كان قد أسر له ببعض أسماء المنافقين الذين كان الوحي قد أخبره بهم أو الذين كان جبريل عليه السلام قد سماهم له . . وهذا حديث أسوقه دليلاً على ما أقول : « روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مات ، فلم يصل عليه حذيفة . . . فقال له عمر رضي الله عنه (وذلك كان في عهد خلافته) : « يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه » . . فقال « يا أمير المؤمنين إنه منهم (يعني من المنافقين) » . . فقال « نشدتك الله . . أنا منهم أم لا ؟ ؟ » قال : « اللهم لا . . ولا أؤمن منها أحداً بعدك » .

ومن أمانة العلم أن أذكر ما قاله ابن حزم في كتابه « المحلى » حـ ١١ ص ٢٢١ (الطبعة المنيرية) تعليقاً على هذا الحديث :

« وأحاديث موقوفة على حذيفة فيها أنه كان يدري المنافقين . . وأن عمر سأله أهو منهم ؟ قال : لا ولا أخبر أحداً بعدك بمثل هذا . . وأن عمر كان ينظر إليه فإذا حضر حذيفة جنازة حضرها عمر وإن لم يحضرها حذيفة لم يحضرها عمر . . وفي بعضها منهم شيخ لو ذاق ألماً ما وجد له طعماً . . كلها غير مسندة » وعن حذيفة قال : « مات رجل من المنافقين فلم أذهب إلى الجنازة فقال له عمر : أنا منهم ؟ . قال : لا » وذكر ابن حزم في المرجع نفسه ص ٢٢٥ :

« وأما الموقوفة على حذيفة فلا تصح ولو صحت لكانت بلا شك على ما بينا من أنهم صح نفاقهم وعاذوا بالتوبة . . ولم يقطع حذيفة ولا غيره على باطن أمرهم فتورع عن الصلاة عليهم . . وفي بعضها أن عمر سأله : أنا منهم . .

فقال له : لا . . ولا أخبر أحداً غيرك بعدك . . . وهذا باطل كما ترى . . لأن من الكذب المحض أن يكون عمر يشك في معتقد نفسه حتى لا يدري أمنافق هو أم لا ؟ . . وكذلك أيضاً لم يختلف اثنان من أهل الإسلام في أن جميع المهاجرين قبل فتح مكة لمْ يكن فيهم منافق . . إنما كان النفاق في قوم من الأوس والخزرج فقط فظهر بطلان هذا الخبر » .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد فاضت روحه إلى الرفيق الأعلى منذ قرون عديدة . . وإذا لم يكن اليوم بيننا حذيفة رضي الله عنه فيخبرنا بأسمائهم . . وإذا كان الوحي لم يعد ينزل على إنسان ما . . وأصبح جبريل يحتجز مكنون سره فلا يقصه لبشريّ بعد رسول الله ﷺ . . فهذه آيات الله وتلك أحاديث رسول الله ﷺ تقوم مقام ذلك فتكشف لنا ما خبأه المنافقون من حقد وضغينة في ثنايا صدورهم . . وتوقفنا على ما احتجزه المرجفون في قلوبهم من كيد للاسلام والمسلمين . . وأنا حينما أحدثكم عن الصفات المعنوية للمنافقين إنما أعني هذه الصفات بقسميها كما سبق أن أوضحت :

أ ـ صفات باجتماعها في شخص يكون منافقا خالصاً .

ب ـ وأخرى صفات متناثرة ليس من الضروري أن تجتمع كلها في منافق واحد . . وقد يكون الاتصاف بإحداها فقط كفيلاً بأن يجعل الشخص منافقا خالصاً .

أولاً صفات المنافق الخالص

وأنا حينما أتحدث عن القسم الأول من الصفات المعنوية . . إنما أعني الآيات والأحاديث التي وردت وهي تبين لنا أن الشخص المنافق الخالص هو الذي يحمل صفات باجتماعها يكون الشخص منافقا خالصاً . . وإن اتصف بإحداها كانت له خلة من خلل النفاق . . وإليكم ما جاء في القرآن الكريم أولاً :

أ ـ جاء في سورة الحديد الآيتان ١٣ ، ١٤ . . قال تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم**

فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * ﴾

ب ـ أما عن حديث رسول الله ﷺ فأنا أسوق هذين الحديثين :

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وأذا ائتمن خان » ـ متفق عليه[1] . . زاد في رواية لمسلم : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » . . متفق عليه .

من الآيتين السابقتين ومن الحديثين اللذين سبق ذكرهما نتبين صفات معينة :

أولاً ـ أما الآيتان فهما مساجلة بين المؤمنين والمنافقين في يوم الحساب صورها القرآن الكريم . . وترى أن المنافقين يتعجبون من هذا المصير المحتوم ويسائلون المؤمنين : ألم نكن معكم ؟ . . لم هذا المصير السيء إذن ؟ . . فيجيبونهم أن : بلى . . ولكنكم ارتكبتم أعمالاً هي التي أودت بكم إلى هذا المصير السيء . . . . ثم تعطينا هذه الأعمال الأربعة صورة أو وصفاً دقيقاً لما كان يفعله المنافقون . . إليكم بيانها :

أ ـ أظهروا خلاف ما أبطنوا .
ب ـ تربصوا الدوائر بالمسلمين .
حـ ـ الريبة والشك في الدين أو في نصر الله .
د ـ الغرور بالدنيا .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان الحديث رقم ٣٨ .

وهذه الصفات والأفعال هي التي كانت السبب في الحكم على المخاطبين في الآيتين السابقتين بالنفاق . . وتأصل هذه الصفات في شخص أو صدور هذه الأفعال من إنسان معين كفيل بأن يحشره في زمرة المنافقين وأن يصدر عليه من الله تعالى ذلك الحكم السابق بعينه .

ثانياً - أما الحديث الأول وهو متفق عليه[1] فقد حوى الصفات الآتية :

أ - إذا حدث كذب .
ب - إذا وعد أخلف .
حـ - إذا ائتمن خان .

وجاء في رواية لمسلم : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . . أي لا يمنعه ذلك إذا جمع هذه الصفات من أن يكون منافقا . . فليصم إذن وليصلِّ ولكن لن يلقي الله إلا منافقاً يجر أذيال الخيبة والندامة .

أما الحديث الثاني فقد احتوى على الصفات الثلاثة السابقة وزاد عليها صفة رابعة : « إذا خاصم فجر » . . وزاد على ذلك أنه من كان به إحدى هذه الصفات كانت به خصلة من خصال النفاق . . وهذا الحديث متفق عليه أيضاً . . وإذا كانت هذه الصفات متصلة بالعقيدة كان النفاق عقيدياً . . وإلا كان نفاقاً عملياً .

ولقد ذكر الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (باب بيان خصال المنافق) عدة آراء وأقوال لبعض السلف والعلماء والصحابة يجمل بنا ذكرها في هذا المقام . . ولنا أن نتخير منها ما ترتاح إليه نفوسنا وتطمئن إليه قلوبنا . . قال الإمام النووي :

قوله ﷺ : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر)[2] وفي رواية : « **آية المنافق ثلاث** : إذا

---

(١) أي رواه البخاري ومسلم .
(٢) اللؤلؤ والمرجان الحديث رقم ٣٧ .

حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » . . هذا الحديث مما عده جماعة العلماء مشكلاً من حيث أن هذه الخصال توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك . . وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بالكفر ولا هو منافق يخلد في النار . . فإن إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال . . وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله . . وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال . . ولكن اختلف العلماء في معناه . . فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه . . وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال . . ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر . . ولم يرو النبي ﷺ أنه بهذا منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار . . وقوله ﷺ « منافقاً خالصاً » معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال . . قال بعض العلماء « وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من يندر ذلك منه فليس داخلاً » فهذا هو المختار في معنى الحديث . . وقد نقل الامام أبو عيسى الترمذي معناه عن العلماء مطلقاً فقال « إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل » . . وقال جماعة من العلماء : « المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فحدثوا بإيمانهم وكذبوا وائتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم » . . وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح . . ورجع إليه الحسن البصري رحمه الله بعد أن كان على خلافه . . وهو مروى عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم . . ورروياه أيضاً عن النبي ﷺ . . قال القاضي عياض رحمه الله وإليه مال كثير من أئمتنا . . وحكى الخطابي رحمه الله قولاً آخر : أن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن يفضي به الى حقيقة النفاق . . وحكى الخطابي أيضاً عن بعضهم : أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق . . وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح القول . . فلا يقول فلان منافق وإنما كان يشير اشارة كقوله ﷺ : « ما بال أقوام يفعلون

كذا . . » والله أعلم . . -وأما قوله ﷺ في الرواية الأولى : « أربع من كن فيه كان منافقاً » وفي الرواية الأخرى « آية المنافق ثلاث » فلا منافاة بينهما . . فإن الشيء الواحد قد تكون له علامات كل واحدة منهن تحصل بها صفته ثم تكون تلك العلامة شيئاً واحداً وقد تكون أشياء . . والله أعلم . . وقوله ﷺ « وإذا خاصم فجر » أي مال عن الحق وقال الباطل والكذب . . قال أهل اللغة : وأصل الفجور الميل عن القصد . . وقوله ﷺ « آية المنافق » أي علامته ودلالته . . وقوله ﷺ : « خلة » و « خصلة » (هو بفتح الخاء فيهما واحداهما بمعنى الأخرى) .

وأغلب ظني أن الذي جعل هذا الحديث مشكلة تتعدد فيه آراء العلماء هي رغبتهم في تفسير الحديث بصورة لا تجعل منافق العمل يخلد في النار شأنه في ذلك شأن منافق العقيدة . . هذا المأزق الحرج هو الذي سبب كثرة الآراء واختلافها . . ويقيني أن هذا الذي اختاره النووي وذلك الذي حكاه الترمذي قد قاربا الصواب . . وقد سارا مع منطق الحديث ولفظه . . هذان الرأيان هما ما يطمئن إليهما قلبي وما ترتاح إليهما نفسي . . ويؤيدهما الحق والمنطق والواقع وما جاء بعد ذلك من حوادث وما ورد من أحاديث لرسول الله ﷺ . . وهما في الحقيقة رأي واحد يعضد كل منهما الآخر ويوضحه . . فهذا الذي نقله الإمام الترمذي عن العلماء هو نفس الذي اختاره النووي رضي الله عنهما . . وهو ما اخترناه أساساً لبحثنا . . فبه وحده ـ في ظني ـ نستطيع أن نفسر مثلاً ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وقد حضرته الوفاة أنه قال : « أنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق . . أشهدكم أني قد زوجته ابنتي » . . فهذا الغدر بالوعد الذي يخشى ابن عمر رضي الله عنه على نفسه أن يقع فيه ليس موجهاً قبل العقيدة . . وإنما هو موجه قبل شخص بعينه .

وإذا لم نفسر النفاق الى عقيدي وعملي . . فكيف يمكننا تفسير ما جاء بهذا الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه على شرطهما من

حديث أبي أمامة أنه ﷺ قال : « **البذاء[1] والبيان[2] شعبتان من شعب النفاق** » . . . وكيف يتاح لعقولنا تكييف ما اتصل من النفاق بالعقيدة وما كان له صلة بأفراد المجموعة الانسانية ؟ . . ويقيني أن هذا المنهج . . أعني تقسيم النفاق إلى عقيدي وعملي كفيل بأن يتلاشى أمامه ما كان مشكلاً من الأمور بصورة تستريح لها النفوس وتطمئن لها القلوب .

وهذا الذي سقناه هو أيضاً معتقد محمد بن حزم في النفاق . . فقد ذكر في كتابه المحلى[3] بعد أن ذكر حديث : « أربع من كن فيه . . » قال : « فقد صح أن ها هنا نفاقاً لا يكون صاحبه كافراً ونفاقاً يكون صاحبه كافراً .

ثم ذكر في موضع آخر من نفس المرجع[4] : -

« قد قلنا إن النفاق قسمان : قسم لمن يظهر الإيمان ويبطن الكفر . . وقسم لمن يظهر غير ما يسر فيما سوى الدين ولا يكون بذلك كافراً . . وقد قيل لابن عمر : « إنا ندخل على الإمام فيقضي بالقضاء فنراه جوراً فنمسك » فقال : « إنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نعد هذا نفاقاً فلا ندري ما تعدونه أنتم » .

وقد ذكرنا قبل **قول رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً وإن صلى وإن صام وقال إني مسلم** » .

فإذا الأمر كذلك فلا يجوز أن نقطع عليهم بالكفر الذي هو ضد الإسلام إلا بنص ولكنا نقطع عليهم بما قطع الله تعالى به من اسم النفاق والضلالة والإركاس وخلاف الهدى ولا نزيد ولا نتعدى ما نص الله تعالى عليه بآرائنا وبالله تعالى التوفيق .

وقال الله تعالى : ﴿**بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً**﴾ إلى قوله ﴿**أجراً عظيماً**﴾ .

---

(١) البذاء : الفحش في القول .

(٢) البيان : إظهار الأمور التي ليس من الواجب إظهارها وسيأتي شرحه بالتفصيل فيما بعد .

(٣) كتاب المحلى ج ١١ ص ٢٠٢ من الطبعة المنيرية .

(٤) المحلى جـ ١١ ص ٢٠٤ الطبعة المنيرية .

قال أبو محمد : « أما هؤلاء فمنافقون النفاق الذي هو الكفر فلا شك لنصه تعالى على أنهم مذبذبون لا إلى المؤمنين ولا إلى المجاهرين بالكفر في نار جهنم وأنهم أشد عذاباً من الكفار بكونهم في الدرك الأسفل من النار » .

ثانياً ـ شعب النفاق

هذا هو العنصر الثاني للصفات المعنوية التي نحن بصدد الحديث عنها والذي عبرنا عنه في حديثنا السابق أنه هو الذي يحوي صفات متناثرة ليس من الضروري أن تجتمع كلها في منافق واحد .. ولكن سبق أن قلت : ربما تكون إحداها كفيلة بأن تضفي على المتصف بها صبغة النفاق .. وربما لا يكون الرجل منافقاً خالصاً إلا إذا جمع عدة صفات منها .. ومن بينها صفات إذا لازمت شخصاً لازمه شطر من النفاق .. والعبرة بنوع العمل وبمقدار الجرم الذي يرتكبه .

ولقد استطعت أن أجمع خمسين خصلة سميتها شعب النفاق على غرار شعب الإيمان التي خرجها البيهقي واختصرها القزويني .. وسأتناول هذه الشعب شعبة شعبة .. ذاكراً المصادر التي استخلصتها منها وأعمال المنافقين التي تنحصر تحتها مستلهماً ذلك من الكتاب والسنة والسيرة .. وبالله التوفيق .

والواقع أن البيهقي لم يبتكر اسم « شعب الإيمان » .. وإنما هو أخذ عن حديث رسول الله ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة**[1] .. **الحديث** » .. وحينما أردت تخريج صفات المنافقين وأحببت تخير اسم مناسب لها لم أشأ التحليق في عالم الخيال والابتداع .. وإنما أردت اقتفاء أثر رسول الله ﷺ .. والناس من بعده عليه السلام عالة عليه .. من فقيه ومشرع ومؤلف .. فهو للبشرية نورها الذي تستضيء به في الظلماء وحصنها الذي تأوى إليه كلما ادلهمت الأمور واشتدت الخطوب .. وهو منبع علمها الفياض كلما تعقدت المشاكل وتضاربت الآراء والأهواء .

---

(١) الحديث الشريف [الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من (الايمان) رواه مسلم والنسائي وأبو داود صحيح الجامع الصغير الحديث رقم ٢٧٩٧ جـ ٢ ص ٤١٧ .

لم أشأ أن أحلق بعيداً عن كتاب الله وسنة رسوله . . ولم أجد بالكتاب ضالتي فعمدت إلى السنة . . فوجدت حديثاً رواه الترمذي وحسنه . . والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ **أنه قال** : « **البذاء والبيان شعبتان من النفاق**[1] . . فقلت : إذن فللنفاق شعب كما للإيمان شعب وسميتها : « شعب النفاق » .

وإليكم بيانها :

أولاً - الشعبة الأولى يظهرون خلاف ما يبطنون (أو الخداع)

جاء في ذلك قول الله تعالى :

(١) - ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون *﴾ (البقرة ٨ ، ٩ ، ١٠) .

والذي يظهر لنا من سياق هذه الآيات أن أناساً كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر لحاجة في نفوسهم . . إما أن يكون ذلك بقصد المنفعة والكسب من الجانب القوي الذي آلت إليه السلطة وهم رجال الدعوة الإسلامية . . وإما فريق آخر قد طوى الحقد في صدره للمسلمين وأغلق القلب على البغضاء والشحناء لهم . . فهو يؤثر أن يرتمى في أحضانهم وأن يكون بين صفوفهم . . لا مناصرة لهم وإنما بقصد العمل في الظلام لإرضاء بغضهم وحقدهم . . وهم بذلك يريدون أن يخدعوا المؤمنين بإظهار الإسلام وإسرار الكفر .

(٢) - ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * ﴾ (سورة البقرة الآية ٢٠٤) .

---

(١) رواه أحمد حـ ٥ ص ٢٦٩ والترمذي باب البر ص ٧٨ .

وذكر المفسرون[1] في هذه الآية رأيين : الأول أنها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي وكان حُسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدعي الإسلام والمحبة وهو يبطن غير ذلك . . والرأي الثاني أنها في المنافقين عامة « يظهرون خلاف ما يبطنون » .

وسواء عندنا أنزلت في منافق بعينه أو في المنافقين كافة فإنما هي تعني النفاق والمنافقين وتبين لنا صفة من صفاتهم . . وإن الآية لتنزل في الرجل خاصة ثم تكون بعد هذا عامة .

ومما جاء في[2] تفسير هذه الآية ما قاله ابن جرير رضي الله عنه مروياً عن نوف وهو البكالى وكان ممن يقرأ الكتب . . قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الآية في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين . . ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر . . يلبسون للناس مسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب . . يقول الله تعالى : الحديث القدسي فعلي يجترئون وبي يفترون . . حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران . . قال القرظي : تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » .

(٣) ـ ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ (آل عمران ١١٩) . وهذه الآية نزلت في منافق أهل الكتاب أو المنافقين عامة يظهرون خلاف ما يبطنون .

---

(١) وسند هذه الرواية هو : قال ابن جرير : حدثني يونس : أخبرنا ابن وهب أخبرني الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن القرظي عن نوف وهو البكالي ثم ذكر هذه الرواية . . وقال ابن جرير أيضاً حدثني محمد بن أبي معشر أخبرني أبو معشر نجيح قال سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي . . ثم روى نحواً من السابق . . قال ابن كثير « وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح . . (حـ ٢ ص ٤٢ طبعة مصطفى محمد) .

(٢) أخرج ابن جرير عن السدي قال نزلت في الأخنس بن شريق أقبل الى النبي ﷺ وأظهر له الإسلام فأعجبه ذلك منه ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر فأنزل الله الآية (يقصد: ومن الناس من يعجبك قوله . الآية) .

٤ ـ ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾(آل عمران ١٦٧) .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان قد استشار الصحابة رضوان الله عليهم فكانت الغالبية العظمى وهم من شباب الأنصار والمهاجرين قد رأوا الخروج لملاقاة قريش . . أما كبار المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول كانوا يرون المكوث والتريث . . فإن اقتحم عليهم المدينة مقتحم خرجوا له وقاتلوه . . غير أن رسول الله ﷺ بينما كان في طريقه إلى أحد فوجىء بتخاذل المنافقين وتراجعهم بالشوط وهو بستان بين أحد والمدينة . . ولقد روى محمد ابن اسحاق رضي الله عنه عن طريق الزهري فقال : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري وذكر آخرون من العلماء فقال : خرج رسول الله ﷺ ـ يعني حين خرج إلى أحد ـ في ألف رجل من أصحابه حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز (أي تخاذل وتراجع) عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس فقال : « أطاعهم فخرج وعصاني ووالله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس » . . فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام أخو بني سلمة . . يقول : « يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا نبيكم وقومكم عند من حضر من عدوكم » . . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال . . فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : « أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم » . . ومضى رسول الله ﷺ . . أي إلى الغزوة (انتهى) .

والذي أحب أن أقوله معلقاً على هذه الحادثة أن المنافقين حينما دعاهم عبد الله بن عمرو بن حزام إلى الرجوع مع رسول الله ﷺ ليقاتلوا أو ليدفعوا عن أنفسهم أو ليكثروا سواد القوم كما ذكر بعض المفسرين . . كانوا يعلمون تمام العلم ويوقنون تمام اليقين أن القتال لا محالة واقع . . غير أنهم أرادوا تبرير مسلكهم السيء فقالوا (لو نعلم قتالاً لاتبعناكم) . . أي لو نعلم أنه سوف يكون هناك قتال لسرنا معكم . . ولذلك قال الله تعالى في حقهم : **﴿يقولون**

بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾ .. ومن هذا يتضح أنهم كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون .

٥ ـ **﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾** (النساء ١٠٨) .

لقد نقب بنو أبيرق بشير ومبشر وبشر مشربة أو نقبها بشر وحده .. وكانت المشربة لرفاعة بن زيد .. وسرقوا أدراعاً له وطعاماً .. فعثر على ذلك .. فجاء ابن[1] أخيه قتادة ابن النعمان يشكوهم إلى رسول الله ﷺ .. فجاء أسيد بن عروة بن أبيرق إلى رسول الله فقال : « يا رسول الله .. إن هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين فأنبوهم بالسرقة ورموهم بها من غير بينة » .. وجعل يجادل عنهم حتى غضب رسول الله ﷺ على قتادة ورفاعة .. فأنزل الله تعالى : **﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ..﴾** الآية .. وأنزل تعالى : **﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً ..﴾** الآية .. وكان البريء الذي رموه بالسرقة لبيد بن سهل قالوا ما سرقناه ولكن سرقه لبيد بن سهل فبرأه الله .. ويقال إنهم وضعوا الأدراع في بيته خفية لتكون دليلاً على صدق قولهم .. وعلى العموم فقد نزلت الآيات من أول (١٠٥ الى ١١٣ النساء) وكان من بينها هذه الآية : **﴿يستخفون من الله ولا يستخفون من الناس ..﴾** الآية ١٠٨ .. والمقصود بذلك أنهم حاولوا تدبير مؤامرة خطيرة لكي يتهموا بريئاً وهو لبيد بن سهل .. ولكي يضللوا رسول الله ﷺ ليحكم ظلماً وجوراً .. وجاءوا وهم يظهرون الخير ويسرون الإثم والشر .. فلقد أظهروا أمراً وبيتوا أمراً آخر .. وهذا ما هدفت الآية الى ايضاحه .. فلما أنزل الله تعالى ما أنزل هرب ابن أبيرق السارق الى مكة ونزل على سلافة بنت سعد ابن شهيب . فقال حسان ابن ثابت رضي الله عنه :

---

(١) **مصادر هذه القصة** : أ ـ ما رواه أبو عيسى الترمذي مروياً عن ابن اسحق عن قتادة وكذا ما رواه ابن جرير في تفسير عن ابن اسحق ب ـ سيرة ابن هشام : الهامش شرح مصطفى السقا وزميليه حـ ـ ما جاء في كتاب « المنقول في أسباب النزول » مروياً عن الترمذي والحاكم وغيرهما عن قتادة وصححه الحاكم على شرط مسلم د ـ ما رواه ابن سعد في طبقاته بسنده عن محمود بن لبيد هـ ـ روى الواحدي في أسباب النزول قريباً من هذا .

وما سارق الدرعين إذ كنت ذاكراً بذي كرم بين الرجال أوادعه
وقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ينازعها جار إستها وتنازعه
ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم وفيكم نبي عنده الوحى واضعه

فقالت : إنما أهديت لي شعر حسان وأخذت رحله وطرحته خارج المنزل . . فهرب إلى خيبر . . ثم أنه نقب بيتاً ذات ليلة فسقط الحائط عليه فمات .

وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينسبه لبعض العرب ويقول : قال فلان كذا وكذا . . فإذا سمع أصحاب رسول الله هذا الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث.

٦ ـ ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون *﴾ (المائدة ٦١ ، ٦٢) .

وقد نزلت هاتان الآيتان في منافقي أهل الكتاب خاصة وفي المنافقين عامة « يظهرون خلاف ما يبطنون » وذلك بدخولهم على رسول الله ﷺ وقد عقدوا النية على الكفر . . غير أنهم يظهرون أمامه الاسلام . . وفي الحقيقة قد دخلوا وقلوبهم قد ملئت كفراً وقد خرجوا وقلوبهم منطوية على الكفر . . والدليل على ذلك أن الكثير منهم كانوا يسارعون إلى الإثم والعدوان وأكل السحت . . فلو أنهم صدقوا النية وصدقوا في إسلامهم ما فعلوه .

٧ ـ ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون﴾ (التوبة ٥٦) .

وهذه الآية تبكيت للمنافقين وفضح لهم وتكذيب لما يظهرونه ويقسمون على ذلك الإيمان المغلظة ليصدقوهم وقد كتموا الكفر في قلوبهم . . وما أظهروا الإيمان إلا لأنهم قوم يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين . . فيظهرون الإسلام تُقْية ويبطنون الكفر والحقد للإسلام والمسلمين .

ح - ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ (الحديد ١٣ ، ١٤) .

وهاتان الآيتان سبق أن تعرضنا لهما شرحاً وتبياناً . والمقصود من الاستشهاد بهما في هذا الموضع هو قول المؤمنين للمنافقين (ولكنكم فتنتم أنفسكم) فهم قد فتنوا أنفسهم بالنفاق وذلك بإعلان إسلامهم والحقيقة أن قلوبهم قد انطوت على الكفر . . وقد أسرت بغض المسلمين والحقد عليهم . . والمفهوم أن الآيتين تصوران مشهداً لمحاورة في الآخرة بين المنافقين والمؤمنين .

ط - ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً *﴾ (الفتح ١١ ، ١٢) .

قيل[1] إن قبائل أسلم وجهنية ومزينة وغفاراً استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش .

والواضح من الآيتين أن هؤلاء الأعراب أظهروا في الاعتذار عن تخلفهم والخروج مع الرسول عليه السلام الانشغال بالأهل والأموال وأخفوا الحقيقة التي من أجلها تخلفوا وهي الجبن . . وخوفهم ألا يعود الرسول صلوات الله وسلامه عليه ومن معه من المؤمنين إلى أهليهم معافين بل ظنوا أن المشركين سوف يستأصلونهم وقوله تعالى « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » يوضح لنا المعنى

(١) الآيتان السابقتان لم يذكر السيوطي في كتابه « لباب النقول في أسباب النزول » ولا الواحدي في كتابه « أسباب النزول » شيئاً عنهما وهما أصح كتابين في هذا الباب وإنما وردت هذه الرواية غير مسندة في تفسيري البيضاوي وأبي السعود .

الذي تقصده وتهدف اليه وهو أنهم كانوا « يظهرون خلاف ما يبطنون » .

ومن الايات السابق ذكرها . . وأسباب النزول التي سقتها . . يتضح لنا أن إظهار المرء خلاف ما يبطنه ليس إلا صفة من صفات المنافقين . . وهي تبلغ من الخطورة منتهاها حينما تكون متصلة بالعقيدة فيكون النفاق إذن نفاقاً عقيدياً . . وحامله ليس إلا كافراً مرتداً عن دينه بعيداً كل البعد عن الرسالة الإسلامية وأصحابها . . أما إذا كان الأمر يتصل بالناس ومجتمعهم فالنفاق ليس إلا نفاقاً عملياً بَعُدَ صاحبه عن مجال الكفر والارتداد الى نطاق الضلالة والزيغ .

ثانياً - الشعبة الثانية الاعتزاز بالإثم

الاعتزاز بالأثم هو الكبر في أبشع صورة والغرور في أحط ما يكون . . وإنها لصفة مرذولة حقاً أن يتضح للمرء خطؤه فيصر عليه ولا يعترف به ولا يحب أن يستغفر من سوء ما فعل أولئك الذين يصرون على باطلهم ويتمسكون بإثمهم لو اتضح أمام أعينهم كفلق الصبح ولو ظهر أمام أنظارهم كضوء الشمس . . أن نفوسهم الضعيفة تأبى عليهم إلا الإصرار على الاثم والجمود أمام الباطل . . بل وتأبى عليهم قلوبهم التي امتلأت كبراً وزوراً وبهتاناً ان تتراجع أمام ضوء الحق القوي ولو بدا للناس جميعاً . . بل وتصرّ هذه القلوب التي لم تنطو إلا على الشر إلا تمسكاً بالباطل ولو وضح أمره وانكشف سره . . إنها بحق لصفة مرذولة دنيئة لا يتخلق بها إلا من حقُرت نفسه وانحطت سريرته . . إنها جديرة بأن تكون شعبة من شعب النفاق . . بل وتتصدر موكبه . . الشر والضلال .

ولقد وردت عدة آيات ترمى المنافقين بهذه الصفة البغيضة وتعيب عليهم تخلقهم بها . . وإليكم هذه الآيات :

١ - ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * ﴾ (البقرة ١١ ، ١٢ ، ١٣)

يتضح من الآيات السابقة أن فريقاً من المؤمنين كانوا ينصحون المنافقين بعدم الإفساد في الأرض بما يحدثون من فتن وقلاقل وتهيج للحرب وإحداث للشغب في صفوف المسلمين وموالاة اعداء الله من أهل الكتاب وغيرهم .. وكانوا يزعمون أن ذلك هو الإصلاح وأنهم ليسوا بمفسدين وانما هم مصلحون.. ومن العجيب أنهم كانوا إذا دعوا للإيمان قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء.. يعنون بذلك أصحاب رسول الله ﷺ .. ويبدو أن الذين كانوا يتولون نصحهم هم فريق من المؤمنين من أقاربهم.. لأنه لا يعقل أن يتحدث المنافقون أمام أحد لا يأمنونه بهذه الجرأة والصراحة الفائقة الحد.. ويبدو أيضاً ان هؤلاء المنافقين إنما كانوا يتحدثون بهذه الصراحة أمام أقاربهم الذين ينصحونهم لأنهم كانوا واثقين أنهم لن يحاولوا أن يفضحوهم.. فضلاً عن محاولتهم ستر أمورهم وكتمانها خوفاً من الفضيحة والعار.

ومن العجيب أنك تلمس من حديث هؤلاء القوم وحوارهم مغالطات عجيبة فهم يزعمون أنهم هم المصلحون وغيرهم المفسدون.. ويدعون أنهم ذوو أحلام وعقول راجحة وغيرهم من الذين يؤمنون عقولهم ضعيفة ناقصة.. حقاً إن هذا لأسلوب ملتوٍ ومنطق معكوس ومغالطات واضحة !! ومراء باطل لا أصل له !!

٢ -﴿وإذا قيل له اتقِ الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ (البقرة ٢٠٦)

ذكروا أنها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي[1] إذ بيت قومه ثقيف وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم.. حتى إذا ذكرٍّ بسوء عمله وذُكر بتقوى الله حملته حمية الجاهلية على الأصرار على الإثم الذي يطالب بتركه.. والمعنى واضح جداً وسواء نزلت في واقعة خاصة أو غير ذلك فهي تبين صورة من أفعال المنافقين.. وتشبث الواحد منهم بإثمة وإصراره على فعله إذا ذكره إنسان ما

(١) أخرج ابن جرير عن السري قال: نزلت في الأخنس بن شريق أقبل إلى النبي ﷺ وأظهر له الاسلام فأعجبه ذلك منه.. ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر فأنزل الله الآية (يعني﴿ ومن الناس من يعجبك قوله...﴾) الآية وما بعدها ٢٠٤، ٢٠٥ ، ٢٠٦

بالرجوع أو العدول خشية من الله وإرضاءً له . . . ولكن أنّي لمن عمى قلبه أن يفهم معنى الرجوع إلى الحق وهجر الباطل متى اتضح له ذلك . . بل على النقيض قد يزيده هذا التذكير إثماً على إثمه وإصراراً على الباطل الذي تشبث به

٣ - وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون» (المنافقون[١]) .

لقد نزلت الثمان آيات الأولى من سورة «المنافقون» ومن بينها هذه الآية في[٢] عبد الله بن أبي بن سلول . . والقصة ليس مجال سردها الآن ولكني سوف أتعرض لها حينما أتحدث عن شعبة «الكيد للاسلام والمسلمين أو الكيد للدعوة وقائدها» . . .

والذي أريد أن أذكره الآن أنه حينما قال عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق قيلته المعروفة «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» . . ويعني بذلك طبعاً إخراج رسول الله ﷺ من المدينة بعد العودة من الغزوة . . فبلغ رسول الله ﷺ ما قاله وغضب وتأثر لذلك تأثراً شديداً . . فذهب لابن أبي رجال من الأنصار وطلبوا منه أن يتوجه إلى الرسول معتذراً وطالباً منه أن يستغفر له . . غير أن هذا أصر على باطله ولوى رأسه واستكبر .

ومن هذه الآيات ومما ذكرت من توضيح لأهدافها ومراميها يتضح لكم أن « الاعتزاز بالإثم » شعبة من شعب النفاق وأنها إن اتصلت بالعقيدة كانت نفاقاً عقيدياً وإلا كانت نفاقاً عملياً .

ثالثاً - الشعبة الثالثة ذوالوجهين

لعل إنساناً ما يعجب عندما يسمع هذا الاصطلاح العجيب أو هذه

---

(١) أخرج ابن جرير عن قتادة قال: « قيل لعبد الله بن أبي لو أتيت النبي ﷺ فاستغفر لك فجعل يلوى رأسه . . فنزلت فيه : ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله . . .﴾ الآية . . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله .

(٢) روى الواحدى في كتابه «أسباب النزول» مسنداً عن زيد بن أرقم أن هذه الآيات نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول . . وذكر القصة بتمامها .

القصة الغريبة . . ولعل أول ما يتبادر إلى ذهنه أنني أعني أن المنافق يكون شخصاً غريب الخلقة شاذ الصورة . . وقد يظن إنسان ما أنني أعني أن ذلك الشخص الغريب الذي له وجهان إنما يحمل وجهاً طبيعياً ووجهاً في قفاه مثلاً . . ولكنني لست أعني هذا ولست أهدف إليه . . لست أقصد شذوذ الخلقة وإنما أريد شذوذ الخلق . . لعكم تريدون أن تسألوا : وما عساه أن يكون ذلكَ الشذوذ ؟ . . . وأنا أجيبكم أن الشخص الذي له وجهان إنما هو شخص حائر مذبذب يلتقي بأحد الفريقين المتباغضين فيمدح ويكيل المدح له جزافاً . . يسب في الفريق الآخر ويبالغ في الإقذاع والفحش ويقسم الإيمان المغلظة على ذلك . . حتى إذا التقى بالفريق الآخر فعل معه مثل الأول . . وكانت تلك المسرحية المحفوظة . . . وما أكثر هؤلاء . . وما أخبثهم . . . ولقد وردت احاديث كثيرة تذم هذا الخلق السيء . . كما وردت آيات وأحاديث تدل على أن هذه صفة من صفات المنافقين . . واليكم بعض هذه الأحاديث :

١ ـ **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ** :«تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا . . وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» . . (متفق عليه) .

ليس موضوع حديثنا ان نتحدث عن هذه الصفة في حد نفسها . . ولكن الذي أهدف إليه هو أن أبين أن هذه خصلة من خصال المنافقين وإنما سقت هذا الحديث لأوضحها . . ولقد اتفق الفقهاء على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق . . وسأسوق لكم أحد الأحاديث الواردة في ذلك :

٢ ـ عن **محمد بن زيد أن أناساً قالوا** لجده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :«إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم به إذا خرجنا من عندهم» . . قال :«كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ» (رواه البخاري) .

ولقد وردت آيات في القرآن الكريم تبين أن هذه الخصلة إنما هي شعبة من شعب النفاق . . واليكم بيانها :

١ - ﴿إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ (البقرة ١٤)

روى[١] في سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة فقال أبن أبي : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم .. فلما دنوا منهم أخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تميم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله ﷺ في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله .. ثم اخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ .. ثم أخذ بيد عليّ كرم الله وجهه فقال: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ وفتنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله .. فنزلت هذه الآية .. وقيل قال له علي رضي الله عنه : يا عبد الله اتقِ الله ولا تنافق فإن المنافقين شر خلق الله تعالى .. فقال له

---

(١) ذكره ابو السعود في تفسيره كما ذكر البيضاوي نحواً منه ولم يذكر «وقيل قال له علي .. الخ» وكلاهما بدون سند .. وذكر محمد رضا في كتابه «محمد ﷺ» أن الثعلبي أخرج عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال نزلت (وإذا لقوا الذين آمنوا. . الآية) في عبد الله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة فقال ابن ابي انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فأخذ بيد أبي بكر فقال مرحباً بالصديق سيد بني تميم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر وقال مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد علي فقال مرحباً بابن عم رسول الله وفتنة وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله .. فقال له علي : اتق الله يا عبد الله ولا تنافق فإن المنافقين شر خليقة الله فقالَ عبد الله مهلاً يا أبا الحسن أتقول لي هذا والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا.. فقال لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت .. فأثنوا عليه خيراً .. فرجع المسلمون إلى النبي ﷺ وأخبروه بذلك فنزلت الآية : **﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾** إلى آخر الآيات التي في المنافقين فيه وفي اصحابه وذكر السيوطي في كتابه «لباب النقول في أسباب النزول» : «أخرج الواحدي والثعلبي من طريق محمد بن مروان والسدى الصغير عن الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أبي: انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فذهب فأخذ بيد أبي بكر فقال مرحباً بالصديق سيد بني تميم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله في الغار والباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر فقال مرحباً بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد علي فقال مرحباً بان عم رسول الله وفتنة سيد بني هاشم ما خلا رسول الله ثم افترقوا فقال عبد الله لاصحابه كيف رأيتموني فعلت فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت فأثنوا عليه خيراً .. فرجع المسلمون الى النبي ﷺ وأخبروه بذلك فنزلت هذه الآية (يعني : إذا لقوا ....) ... هذا الإسناد واهٍ جداً فإن السدى الصغير كذاب وكذا الكلبى وابو صالح ضعيف.

مهلاً يا أبا الحسن أفيّ تقول هذا . . واﷲ إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم . . ثم افترقوا . . فقال ابن أبي لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت فأثنوا عليه خيراً وقالوا ما نزال بخير ما عشت فينا . . فرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك فنزلت هذه الآية .

٢ ـ ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ (النساء ١٤١) .

يتضح لنا من هذه الآية أن المنافقين كانوا يحاولون مصانعة المؤمنين وفي الوقت نفسه كانوا يحاولون مصانعة الكافرين وذلك لكي يأمنوا الطرفين . ويكون ذلك تقية لهم حتى لا ينالهم ضرر أو بأس . . وسياق الآية يدل على أن المنافقين كانوا يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء لزوال دولتهم وذهاب بأسهم فإن نصرهم الله «قالوا ألم نكن معكم» تودداً للمؤمنين بهذه المقالة . . وإذا كان النصر في جانب الكافرين كما حدث مثلاً في غزوة أحد قالوا لهم «ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين» يعنون أنهم تخاذلوا عن نصرة المؤمنين وخذّلوا عن الكافرين وحاولوا أن يشيعوا الفشل في صفوف المسلمين حتى لا ينتصروا على الكافرين . . . ومن هنا كان الوجهان .

٣ ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ (النساء ١٤٣)

والآية تدل على أن المنافقين إنما كانوا لا هم بالمؤمنين المخلصين ولا بالمشركين الصرحاء . . ولقد ورد في ذلك عدة أحاديث كلها تفسر هذه الآية سأذكر بعضها :

أ ـ روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري إيهما تتبع» . . . تفرد به مسلم .

ب ـ **وقال الإمام أحمد رضي الله عنه** : حدثنا يزيد حدثنا المسعودي عن أبن جعفر محمد بن علي قال بينما عبيد بن عمير يقص وعنده عبد الله بن عمر فقال عبيد بن عمير : **قال رسول الله ﷺ «مثل المنافق كالشاة بين ربضين إذا أتت هؤلاء نطحتها وإذا أتت هؤلاء نطحتها»** . . فقال ابن عمر : ليس كذلك وإنما قال رسول الله ﷺ : **«كشاة بين غنمين»** . . قال فاختطف الشيخ وغضب فلما رأى ذلك ابن عمر قال «أما أني لو لم أسمعه لم أردد ذلك عليك» .

جـ ـ وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن قتادة (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) يقول ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك . . **قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع ثم** وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر ان هلم إلىّ فإني أخشى عليك وناداه المؤمن ان هلم إلىّ فإن عندي وعندي ـ يحصي له ما عنده ـ فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى فقرقه وان المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك .

د ـ وروى عن أبن مسعود رضي الله عنه قوله : «مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى وادٍ فوقع أحدهم فعبر ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي : ويلك أين تذهب إلى الهلكة إرجع عودك على بدنك . . وناداه الذي عبر : هلم إلى النجاة . . فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة . . قال: فجاء سيل فأغرقه . . فالذي عبر المؤمن . . والذي غرق المنافق (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . . والذي مكث الكافر .

والذي يبدو واضحاً في الآية السابقة وما سقته من أحاديث توضيحاً لمعناها أن المنافق هو شخص متردد مذبذب يأتي هؤلاء بوجه ويلقي الآخرين بوجه آخر . . وتلك لعمرى خصلة هي من أذم الخصال بل وأبشعها ولا يتصف بها إلا ضعاف النفوس وبغاة المطالب والعروض . . الذين يغريهم المغنم ويرغبهم عن طاعة الله ورسوله ويصرفهم عن ذلك صرفاً .

وما اكثر هؤلاء المنافقين الذين يحملون وجهين بل وجوهاً كثيرة .. متعـــددة متباينة .. ما أكثر هذا الصنف من المنافقين الذين يلقون عامة الناس بوجه ويلقون أصحاب الجاه بوجه آخر ... وذلك والله داء عضال في الأمة الإسلامية.. كثر أمره .. وشاع وفشى سره .. ولئن خلصنا الله من الواقعين فيه من ضعاف النفوس وطلاب الدنيا ودعاة السوء والهزيمة .. ليكونن للأمة الإسلامية شأن آخر غير هذا الشأن .. وعلى كلٍ فليس هذا مجال التعليق وإنما نحن بصدد السرد والتعداد .

وتلك الصفة قد تلحق بالعقيدة فيكون النفاق عقيدياً .. وقد يكون اتصالها بالناس ومجتمعهم فيكون النفاق حينئذ نفاقاً عملياً .. وقد سبقت الإبانة أن النوع الثاني أخف ضرراً على صاحبه من النوع الأول.. كما سبق أن وضحنا الفرق بين النفاق العقيدي والنفاق العملي .

رابعاً ـ الشعبة الرابعة الحقد والضغينة

١ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط *﴾ (آل عمران ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠)

نجد أن الخطاب موجه في الآيات السابقة للمؤمنين تنهاهم عن مصادقة المنافقين والركون إليهم .. فلقد ذكر بعض المفسرين أن المعنىّ بقوله تعالى «بطانة من دونكم» هم المنافقون .. ويقول تعالت قدرته أن هؤلاء المنافقين لا يدخرون جهداً من الإفساد والكيد للمؤمنين ويتمنون شدة الضرر والمشقة لهم وهو المعنىّ بقوله تعالى﴿ودواما عنتُّم﴾ وقد بدت بغضاؤ هم في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم .. غير أن قلوبهم قد انطوت على ما هو أكبر

من ذلك من حقد وضغينة للمؤمنين . . ثم يقول تعالى **﴿قدبينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾** . . ويقول بعض المفسرين أن المعنىّ بهذا هو أن الله تعالى قد بينّ الآيات الدالة على الإخلاص للمؤمنين وعدم موالاة هؤلاء المنافقين . . ثم نجد منتهى الحقد والضغينة الكامنين في صدور هؤلاء المنافقين ونتبين ذلك واضحاً في قوله تعالى **﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾** . . والواضح من الآية أن هذه الطائفة الحقودة إنما تظهر إيمانها إذا التقت بالمؤمنين قولاً لا فعلاً . . تمويهاً وتضليلاً . . وهكذا شأنهم دائماً . . الإثم في أبشع صورة . . حتى إذا انصرفوا عضوا أصابعهم غيظاً وحسرة لأنهم لا يجدون سبيلاً للتشفى والانتقام من المؤمنين . . . والأعجب من ذلك ما جاء من الآية الثالثة أن هؤلاء القوم الذين استولى الحقد على كل ما في نفوسهم وأكل الغيظ منهم القلوب والصدور . . واستحكمت الضغينة بسائر أجسامهم بل بكل قطرة من قطرات دمائهم . . يساءون لكل حسنة أوخير يناله المسلمون . . ويسرون ويطربون لكل شر أو مصيبة . . ثم نجد بعد ذلك نداء من الله عز وجل للمؤمنين وطمأنة في قوله **﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾**

٢ ب - ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم *﴾ (محمد ٢٩ ، ٣٠)

والآيتان فيهما تقريع وتوبيخ للمنافقين لما احتوت عليه قلوبهم من ضغينة وحقد . . وفيهما تهديد من الله تعالى لتلك الفئة الباغية أن يطلع الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ على أمرهم بأن يعرفه اوصافهم بل أسماءهم كما حدث ذلك مراراً في كثير من الحوادث حيث عرف الله تعالى رسوله بعض أسمائهم أو أوصاف بعضهم كما سبق في حديث نبتل بن الحارث وحديث حذيفة بن اليمان . . وكما حدث في نزول بعض آيات القرآن تصف أناساً بأعينهم كما جاء في سورة المنافقين في وصف عبد الله بن أبيّ . . ثم يهدد المنافقين قائلاً سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ **﴿ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾** . . أي

ولتعرفنهم من طريقة حديثهم وكلامهم . . والله عز وجل يعلم الأعمال فيجازي كلاً على حسب نيته .

من الآيات السابقة نستطيع أن نتبين كيف أن الحقد والضغينة شعبة من شعب النفاق لأن قلوب المنافقين التي أعماها الحسد والبغض لا يمكن أن تحمل حباً للمؤمنين وإن بدا هذا في كلامهم وأقسموا مظهرين الجد في حديثهم . . لأن قلوبهم قد ملئت حقداً على المؤمنين وجثم هذا الحقد على صدورهم وأكلت الضغينة كل معاني الخير من نفوسهم . . واضطرمت نار الكراهية في صدورهم . . فهي تتربص الدوائر بالمسلمين وتتمنى لهم الشر . . إن هذه الفئة التي لعنها الله لا يمكن أن يتأتى الى نفوسها الخير . . بل ولا يعرف طريقاً إلى قلوبها . . إنهم ليتألمون للخير الذي يصيب المسلمين ويسرون لنزول الكوارث بهم . . وإنهم ليتحسرون على كل فرصة لا يستطيعون الكيد فيها للاسلام والمسلمين . . فأي فئة أشر من هذه الفئة ؟ ! وأي خلق الله اسوأ حالاً من هؤلاء المنافقين ؟ !

خامساً ـ الشعبة الخامسة سَفاهَة الرأي وَفسَاد العَقيدَة

١ ـ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (آل عمران ١٤٤)

روى[١] أنه في غزوة أحد لما التقى الجمعان حمل أبو دجانة في نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالاً شديداً . . وقاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قتالاً عظيماً حتى التوى سيفه . . وكذا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقتلوا جمعاً من المشركين وهزموهم . . فلما نظر الرماة إليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا إلى نهي الرسول ﷺ إياهم عن ذلك قبل المعركة ولم يسمعوا لأميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده إلا ثمانية

(١) راجع تفاسير أبو السعود والبيضاوي وابن كثير وكتب المغازي والسير.

نفر . . فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم هو وأصحابه من المشركين ودخلوا خلف أقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله ﷺ وقاتلوهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلاً كل منهم يجثو بين يديه ويقول وجهي لوجهك وفاء ونفسي لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع . . ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب اللواء حتى قتله ابن قميئة وهو يزعم أنه قتل النبي ﷺ فقال قتلت محمداً . . وصرخ صارخ قيل إنه إبليس[1] : ألا إن محمداً قد قتل . . فانكفأ الناس . . وجعل رسول الله ﷺ يدعو : « إليّ عباد الله » . . قال كعب بن مالك : كنت أول من عرف رسول الله ﷺ من المسلمين فناديت بأعلى صوتي « يا معشر المسلمين هذا رسول الله ﷺ » . . فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون . . وقال بعضهم ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان . . وقال ناس من المنافقين : لو كان[2] نبياً لما قتل إرجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . . . فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك - : يا قوم . . . إن كان قتل محمد فإن رب محمد ﷺ لا يموت . . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ . . فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا كراماً على ما مات عليه . . ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء . . ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل . . فنزلت ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً** ﴾ أي ومن يرتد عن دين الله فلن يضر الله ارتداده وسيجزي الله الشاكرين أمثال أنس بن النضر وأضرابه وسياق الآية يدل على التهكم الواضح من هذه العقلية الفاسدة ومن هذا الرأي الضعيف التافه والتعجب الغريب من هذه العقيدة المحطة . . وذلك لقولهم « لو كان نبياً ما قتل » . . ثم

---

(١) وأخرج إبن راهويه في مسنده عن الزهري : « أن الشيطان صاح يوم أحد إن محمداً قد قتل . . قال كعب بن مالك وأنا أول من عرف رسول الله ﷺ رأيت عينيه من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي هذا رسول الله (ﷺ) فأنزل الله ﴿وما محمد إلا رسول . . . ﴾ الآية .

(٢) وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال : لما أصابهم يوم أحد ما أصابهم من القرح وتداعوا نبي الله قالوا قد قتل . . فقال أناس « لو كان نبياً ما قتل » وقال أناس « قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به . . فأنزل الله : ﴿ وما محمد إلا رسول . . . ﴾ الآية .

محاولة هؤلاء المنافقين اتخاذ مقتل رسول الله ﷺ ذريعة لارتدادهم وكفرهم، وذلك لقولهم « إرجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم » . . . وقول فريق آخر « ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان » . . من هذه الأقوال يلمس المرء سفاهة في الرأي وضعفاً في العقيدة .

٢ - ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (آل عمران ١٥٤) .

روى[١] إبن اسحاق عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[٢] قال : « قال الزبير لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره قال فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » فحفظتها منه . . وفي ذلك أنزل الله : **﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾** .

وسياق الآية يدل على أن الله تعالى قد كرم المؤمنين بنعاس غشيهم عقب المعركة . . كما روي عن أبي طلحة رضي الله عنه قوله « غشينا النعاس في المصاف حتي كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه » . . وطائفة - أي المنافقون - قد أوقعتهم أنفسهم في الهموم جبناً وخوفاً يظنون بالله

---

(١) وأخرج ابن راهويه عن الزبير قال : لقد رأيتني يوم أحد حين اشتد علينا الخوف وأرسل علينا النوم فما منا أحد إلا ذقنه في صدره فوالله إن لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » فحفظتها فأنزل الله في ذلك ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ إلى قوله : ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ .

(٢) سند الحديث كالآتي : قال ابن اسحاق : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عبد الله بن الزبير قال : . . . .

تبارك وتعالى ظناً لا يليق بالمؤمنين إنما هو ظن المشركين في جاهليتهم . . يقولون : « هل لنا من الأمر من شيء » أي يقولون لرسول الله ﷺ هل لنا من أمر نصر الله ووعده شيء أو نصيب . . يقولون ذلك مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصرة . . مبطنين الإنكار والتكذيب . . يقولون في أنفسهم مخفين ذلك عن رسول الله ﷺ أو يقولون ذلك بعضهم لبعض « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » . . وقيل إن ابن أبيّ حينما أخبر بمقتل بني الخزرج قال « هل لنا من الأمر شيء » يشير إلى أنهم منعوا تدبير أنفسهم أو تصريفها باختيار الصالح . . أو يقصد هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء .

وسواء كان المعنى الأول أو الثاني فلقد رد الله على أقوال المنافقين هذه وآرائهم مسفهاً إياها ومبدياً ضعف عقيدة هؤلاء الذين لا يستطيعون تمييز الخير من الشر ﴿ **قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ . . والقرآن يعجب من عقليتهم لأنهم لم يستطيعوا إدراك أن الذين قدر عليهم القتل لم يكن لتحول إقامتهم في بيوتهم دون لقائهم مصارعهم لأن ذلك مشيئة الله وتلك إرادته .

٣ ـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّيّ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير * ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون *** ﴾ (آل عمران ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨) .

والآيات فيها تهكم واضح وتحذير بيّن للمؤمنين أن تكون عقليتهم سخيفة ضعيفة مثل هؤلاء المنافقين الذين يقولون لاخوانهم في المذهب أو النسب يقولون فيما بينهم ، بعضهم لبعض حينما يخرج أحدهم لشأن له كالتجارة أو غيرها أو خرج للقتال ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ . . ثم ينهي الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين ألا يقولوا مثل هذا القول ليجعل الحسرة خاصة بقلوب هؤلاء المنافقين ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير** ﴾ .

ثم يتولى الله تبارك وتعالى الرد في الآيتين ١٥٧ ، ١٥٨ ، على سفاهة رأيهم وفساد عقيدتهم بأسلوب فيه تبكيت لهم وطمأنة للمؤمنين وتصحيح لعقيدتهم ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ . . وهذه الآيات ليست إلا دليلاً واضحاً على سفاهة رأيهم وفساد عقيدتهم .

٤ - ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلّ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً * ﴾ (النساء ٧٨) .

روى[١] أنه كان المنافقون إذا أصابتهم حسنة كأن تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان . . ﴿ قالوا هذه من عند الله ﴾ وإن أصابتهم سيئة - والسيئة الجدب والضرر في أموالهم - تشاءموا برسول الله ﷺ وقالوا هذه من عندك . . يقولون بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء . . فأنزل الله عز وجل ﴿ قل كلٌّ من عند الله ﴾ .

ومن هذا نستطيع أن نتبين مدى سفاهة آرائهم ومقدار ما عليه عقيدتهم من الضعف . . ولذلك نرى أن الله تعالى إنما يبكتهم ويوبخهم ويعجب من هذه الآراء الفاسدة في قوله ﴿ قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ .

٥ - ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً * ﴾ (النساء ٨٠) .

روى[٢] أنه عليه الصلاة والسلام قال : « من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله » فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل . . لقد قارف الشرك وهو ينهي أن يعبد غير الله . . ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى . . . فنزلت هذه الآية من هذا نتبين

(١) هذا هو معنى ما روى عن ابن عباس وأبي العالية والسدى . . راجع ابن كثير صفحة ٥٢٧ جزء أول
(٢) راجع تفسيري أبي السعود والبيضاوي .

تفاهة عقولهم وسفاهة آرائهم وضعف عقيدتهم وفسادها .

٦ - ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ (التوبة ٤٩) .

روى[١] ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم وهو في جهازه لغزوة تبوك للجد بن قيس أخي بني سلمة « هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر » ؟ فقال : يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني .. فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني واني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر (أي الروم) ألا أصبر عنهن ... فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنت لك » .. ففي الجد نزلت هذه الآية .. ونحن نستطيع مما ذكر في سبب نزول هذه الآية ومن معناها العام تتضح السفاهة التي تصدر عنها آراؤهم والفساد الذي يتبع عقيدتهم .

٧ - ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ (التوبة ٦١) .

روى[٢] أن هذه الآية إنما نزلت في نبتل بن الحارث الذي سبق أن تحدثت عنه وهو أحد المنافقين .. وكان يأتي رسول الله ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه ثم

---

(١) وأخرج الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس قال « لما اراد النبي (ﷺ) أن يخرج إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس : يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر .. فقال : يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن فائذن لي ولا تفتني .. فأنزل الله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ .. الآية .. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث جابر مثله

(٢) أورد ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق ونصها كالآتي : « قال ابن اسحق : ومن بني لوذان بن عمرو بن عوف : نبتل بن الحارث وهو الذي قال له رسول الله ﷺ فيما بلغني من احب ان ينظر إلى شيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث وكان رجلاً جسيماً أذلم (يعني أسود طويل) ثائر شعر الرأس احمر العينين أسفع (احمرار يضرب إلى السواد) وكان يأتي رسول الله ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين وهو الذي قال : إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه .. فأنزل الله عز وجل فيه ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾الآية .. ورواه أيضاً الواحدي عن ابن اسحاق في كتابه (اسباب النزول) .. واخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله (ﷺ) فيجلس اليه فيسمع منه وينقل حديثه الى المنافقين فأنزل الله هذه الآية .

ينقل حديثه إلى المنافقين . . وهو الذي قال : إنما محمد أذن . . من حدثه شيئاً صدقه . . . فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

٨ - ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعفُ عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين * ﴾ (التوبة ٦٥ ، ٦٦) .

قال ابن اسحاق في سبب نزول هاتين الآيتين (وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال مخشى بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر (يعني الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً . . والله لكأنا بكم غداً مقرنون في الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين فقال مخشي بن حمير : والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . . **وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر** « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله (ﷺ) واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : « يا رسول الله إنما نخوض ونلعب » فقال مخشي بن حمير « يا رسول الله قعد بي إسمي وإسم أبي فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر

٩ - ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أوَلا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (التوبة من ١٢٤ الى ١٢٧)

نرى في هذه الآيات أن المنافقين إنما كان يسائل بعضهم بعضاً عندما تتنزل سورة من السور ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ ؟ . . ولقد تولى الله تعالى الرد عليهم بقوله ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض (أي ضعف ونفاق) فزادتهم رجساً ألى رجسهم (أي شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم) وماتوا وهم كافرون** ﴾ . . ثم يقول تعالى في الآية الثالثة ما معناه أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا يذّكرون فيما يستقبل من أحوالهم . . ثم يشير تعالى بعد ذلك إلى ما كان يحدث من هؤلاء المنافقين حين جلوسهم في حضرة رسول الله ﷺ وهو يتلو عليهم ما يتنزل من السور الجديدة من نظرهم بعضهم إلى بعض وتغامزهم بالعيون إنكاراً لها وسخرية أو غَيظاً لما فيها من عيوبهم . . وهم يقولون بعضهم لبعض : هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول (ﷺ) فإن لم يرهم أحد قاموا وان رآهم أحد أقاموا ثم انصرفوا عن حضرته مخافة الفضيحة . . وأنتم تستطيعون أن تتبينوا من لهجة القرآن وطريقة وصفه لأفعال هؤلاء القوم الانكار الواضح لسفاهة آرائهم وعدم إقرار عقيدتهم الضعيفة الفاسدة .

١٠ ـ ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ (الأنفال ٤٩) .

ولقد سبق أن تكلمت عن هذه الآية وسبب نزولها عندما تحدثت عن النفاق في مكة وأمر هؤلاء الفتية الذين ارتدوا تحت تأثير الفتنة والعذاب وأطلق عليهم القرآن صفة النفاق وخرجوا مع المشركين في غزوة بدر لقتال المسلمين . . فلما رأوا المسلمين قلة وأن عدد المشركين يفوقهم بكثير قالوا هذه القيلة : **﴿غر هؤلاء دينهم﴾** . . ومثل هذا القول لا يقوله من صح بالله معتقده وتسامى عن السفاسف والترهات تفكيره .

١١ ـ ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ (الأحزاب ١٢) .

وذلك أنه حينما اشتد الأمر على المسلمين في غزوة الأحزاب وجاءت قريش ومعها القبائل برجال وعتاد لا قبل للمسلمين بهم وغدرت اليهود بالمسلمين ووعد رسول الله ﷺ المسلمين النصر وفتوح الأمصار وبشرهم بذلك قال قائل من المنافقين (يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور) . . وعزى ذلك القول إلى معتب بن قشير . . وذكر ابن إسحاق أن معتب قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط . . فأنزل الله عز وجل فيه ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض . . .** ﴾ الآية .

غير أن ابن هشام علق على قول ابن اسحاق بهذا : وأخبرني من أثق به من أهل العلم : أن معتب ابن قشير لم يكن من المنافقين واحتج بأنه كان من أهل بدر .

وسواء صحت الروايات التي ذكرت أن القائل هو معتب بن قشير أم لم تصح فإننا نستطيع أن نؤكد أن منافقاً من المنافقين قال هذا القول أو ما يشابهه فنزلت فيه هذه الآية وهي على كل تدل على سفاهة في الرأي وفساد في العقيدة .

١٢ - ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ (محمد ١٦)

وسبب[1] نزول هذه الآية أن المنافقين كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة رضي الله عنهم (ماذا قال آنفاً) - أي الساعة - استهزاء واستعلاء إذا لم يلقوا له آذانهم تهاوناً به وغير مكترثين لقوله وهو أمر لا يصدر إلا ممن حقد تفكيره وساء معتقده .

---

(١) وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ويسمعه المنافقون فلا يعونه . . فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفاً ؟ . . فنزلت ﴿ ومنهم من يستمع اليه . . . ﴾ الآية .

١٣ - ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * ﴾ (الفتح ١١ ، ١٢) .

قيل إن أسلم وجهنية ومزينة وغفار استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش . . إنما كان احتجاجهم بانشغالهم بالأهل والأموال كذباً وتمويهاً . . والحقيقة أنهم كانوا يعتقدون أن الرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين سوف يسحقهم الكافرون ولن يعودوا إلى المدينة سالمين .

لقد سقت ثلاثة عشر مثلاً لأستدل على أن سفاهة الرأي وفساد العقيدة شعبة من شعب النفاق استخلصتها جميعاً من كتاب الله وحاولت أن أزيد إيضاحها بذكر أسباب النزول التي رواها المفسرون والمؤرخون . . وما ذلك إلا لألقي ضوءاً على هذه الآيات وأهدافها ومراميها . . وإننا لنستطيع أن نتبين من الأمثلة التي سقتها آنفاً مقدار ما كانت عليه آراؤهم من السفاهة وفي أي مستويات الانحطاط والفساد هوت تلك العقيدة الضعيفة التي لا ثبات لها . . والحق أن المرء إذا حاول استعراض صفحات الدعوة الاسلامية وتاريخها فإنه بدون شك سوف يلتقي بأناس ملء السمع والبصر من الذين قال الله فيهم ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ . . غير أن عقل الواحد[٢] منهم أتفه من عقل الباعوضة . . وأستطيع أن أقول إن رأس الواحد

---

(٢) ومن الأمثلة التي توضح لنا كيف كانت عقول هؤلاء تافهة وعقائدهم فاسدة : أولاً . . ما أخرجه ابن جرير عن السدى بأسانيده لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين (يعني المثلين المضروبين في الآيات من ١٧ إلى ٢٠ سورة البقرة) قوله ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ وقوله ﴿ أو كصيّب من السماء ﴾ . . قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال . . فأنزل الله ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا . . ﴾ إلى قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾ . . ولقد ذكر السيوطي في كتابه (لباب العقول في أسباب النزول) هذا القول . وذكر بعده عدة أقوال أخرى وعلق على ذلك قائلاً : (قلت القول الأول أصح إسناداً وأنسب بما تقدم أول السورة . . وذكر المشركين (يقصد ما ذكرته الأقوال الأخرى من أنها نزلت في المشركين) لا يلائم ـ

منهم قد حشيت بجماجم العصافير فهي لا تفكر إلا في التافه من القول والسفيه من الفعل . . وكثيراً ما ابتليت بأمثال هؤلاء الدعوة الاسلامية حتى إذا قدر لأحدهم أن يضحي بشيء ما في سبيل هذا المبدأ أو من أجل هذه العقيدة بل إن المحن إذا أحاطت بالفكرة ودعاتها أو المنتمين إليها وشاءت الأقدار أن يكون الواحد منهم ضمن الذين عمتهم النكبة وشملتهم المحنة ما أسرع ما ينكص على عقبيه يرتد على دبره . . وما كان لأمثال هؤلاء أنْ يضحوا صادقين أو بمحض اختيارهم اللهم إلا منساقين وراء حماس أعمى أو خشية أن يقول الناس عنهم إنهم جبناء أو رغبة في أن يقول الناس عنهم هم الفرسان أو الشجعان . . وما أكثر هؤلاء الفرسان أو إن شئت قل متصنعي الفروسية . . وما أكثر طلاب السمعة والرياء والظهور . . حتى إذا وقع المرء منهم في بلاء تطيّر بالدعوة وأصحابها وظل يلقي التبعة على هذا أو ذاك ويتربص بهم الدوائر ويحقد عليهم من أعماق نفسه . فحدثوني بربكم أي إيمان حوته قلوب هؤلاء وإن زعموا وأقسموا بالله جهد ايمانهم على ذلك ؟

إن المنافقين هم أتعس خلق الله في أرضه وإن نفوسهم هي أحط نفوس البشر جميعاً وإن عقولهم لهي أتفه عقول خلق الله كافة وإن قلوبهم لأفزع قلوب في الأرض وأخواها .

فماذا تنتظرون من أناس جمعوا بين اللؤم والخسة وتفاهة التفكير ودناءة النفس . . اللهم إلا الرأي السفيه والعقيدة الفاسدة . . والويل كل الويل لطائفة هذا شأنها مما كسبت ايديهم وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد والشر للمؤمنين .

سادساً - الشعبة السادسة الــــردّة

سبق أن تحدثت عن الردة وكيف اعتبرها القرآن الكريم نفاقاً وذلك عند

=كون الآية مدنية . . وما أوردناه عن قتادة والحسن حكاه عنه الواحدي بلا إسناد بلفظ « قالت اليهود » وهو أنسب . . ثانياً اخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون ، الذين يصلون معه : ألا ترى ان له قلبين معكم وقلباً معه : فأنزل الله « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه »

حديثي عن منافقي العصر المكي . . وبينت أن النفاق في مكة لم يكن كالنفاق في المدينة . . والذي أعتقده أن السر في اطلاق صفة النفاق على المرتدين أن الرجل المؤمن القوي لا يمكن أن يرتد تحت تأثير الترغيب أو الترهيب . . ولقد أثبت أن ردة المكره إنما اعتبرت نفاقاً . . وسقت الآيات ٤٩ الأنفال و١٠ ، ١١ العنكبوت و١١ ، ١٢ ، ١٣ الحج كما تحدثت عن ردة غير المكره وبينت كيف أنها اعتبرت نفاقاً واستشهدت بالآيات (من ٨٨ إلى ٩١ النساء) ثم ذكرت عند الحديث عن الشعبة الأولى قصة ذلك المنافق بشر سارق الدرعين وكيف أنه هرب من المدينة ولجأ إلى يثرب مرتداً ومعتصماً بأعداء الله من مشركي مكة وكيف كانت نهايته بخيبر . . تلك النهاية السيئة . . وذكرت أن الآيات التي نزلت في ذلك والتي تحدثت عن قصة هذا المنافق هي الآيات من (١٠٥ إلى ١١٣ النساء) .

١ ـ **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم *﴾** (آل عمران ٨٦ إلى ٨٩) .

ولقد ورد في سبب نزول هذه الآيات عدة روايات كلها تقريباً متشابهة في المعنى الذي تهدف إليه وإن اختلفت في الوقائع أذكر منها :

أ ـ قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع البصري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : « كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة ؟ . . فنزلت « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم . . . إلى قوله : فإن الله غفور رحيم » . . فأرسل إليه قومه فأسلم » . . وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حيان من طريق داود بن أبي هندية وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

ب ـ قال ابن اسحاق : ـ وذلك عند ذكر من نافق من الأنصار :

« وأخوه (يعني جلاس بن سويد) الحارث بن سويد الذي قتل المجذر بن زياد البلوي ،وقيس ابن زيد أحد بني ضبيعة يوم أحد خرج مع المسلمين وكان منافقاً فلما التقى الناس عدا عليهما فقتلهما ثم لحق بقريش » .

« وكان رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به . . ففاته . . فكان بمكة . . ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه فأنزل الله تبارك وتعالى فيه ـ فيما بلغني عن ابن عباس ـ : **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** . . . إلى آخر القصة ولقد علق ابن هشام على ذلك بقوله : « وكان المجذر بن زياد قتل سويد بن صامت في بعض الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج . . فلما كان يوم أحد طلب الحارث بن سويد غرة المجذر بن زياد ليقتله بأبيه فقتله وحده . . وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : والدليل على أنه لم يقتل قيس بن زيد أن ابن اسحق لم يذكره في قتلى أحد » .

حـ ـ وفي رواية لعبد الرزاق قال : أنبأنا جعفر بن سليمان حدثنا حميد الأعرج عن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم . . إلى قوله : غفور رحيم﴾** . . قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرأ عليه . . فقال الحارث : إنك ـ والله ما علمت ـ لصدق[1] . . وإن رسول الله لأصدق منك وإن الله لأصدق من الثلاثة قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه (ابن كثير الجزء الأول) .

---

(١) وذكر السيوطي في كتابه « لباب النقول في أسباب النزول » : وأخرج مسدد في مسنده وعبد الرزاق عن مجاهد قال قال جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ ثم كفر فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه القرآن : **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا . . إلى قوله : غفور رحيم﴾** . . فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحارث إنك والله ما علمت لصدوق وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك وإن الله لأصدق من الثلاثة فرجع وأسلم وحسن إسلامه .

هذه آيات نزلت في منافق ارتد عن الإسلام ولست في حاجة إلى كثير من الجدل بعد ما سقت من الحجج والبراهين على أن الردة تعتبر نفاقاً حين حديثي عن النفاق في مكة . . وإنما هذه قصة من قصص المنافقين الذين ارتدوا سقتها لكم على سبيل المثال . . وتلك قصة أخرى .

٢ ـ **﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين *﴾** (آل عمران ٩٠ ، ٩١) .

وهاتان الآيتان إنما نزلتا في أقوام أسلموا نفاقاً ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عن دينهم وارتدوا عن عقيدتهم . . وهذه رواية في سبب نزول هاتين الآيتين أسوقها مبالغة في ايضاح المعنى :

قال الحافظ أبو بكر البزاز : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن هند عن عكرمة عن ابن عباس أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا لهم ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية : **﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم﴾** وعلق ابن كثير على ذلك بقوله (هكذا رواه وإسناده جيد) .

والذي يفهم من هاتين الآيتين معنيان :

أ ـ أما الأول فهو أن أولئك المنافقين الذين يؤمنون ثم يكفرون لن تقبل لهم توبة عند مماتهم وذلك لأنهم كانوا مصرين على الردة إلى آخر لحظة . . وفي الحديث أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

ب ـ أما المعنى الثاني ففيه وعيد لهم في الآخرة وزجر وتخويف أنهم لن يفلتوا من عذاب الله ولو كان في مقدورهم أن يفتدوا أنفسهم من هذا العذاب بأن يقدم الواحد منهم ملء الأرض ذهباً ليفتدى به ما تقبل منه ذلك وما أغناه ذلك عن عذاب الله يوم القيامة .

٣ ـ منافق بني حنيفة :

وذلك الرحال بن عنفوة رجل قدم مع وفد بني حنيفة والتقى برسول الله ﷺ بالمدينة وأسلم مع وفد من قومه وتعلم القرآن من أبي بن كعب رضي الله عنه ذلك الفقيه الصحابي الحافظ .. وحفظ معظمه فصار فقيه قومه ومبعوث الرسول عليه السلام في اليمامة ليعلمهم أمور دينهم .. ولكن ما كاد يتنبأ كذاب اليمامة حتى أسرع هذا المنافق يؤيده ويناصره ويشد عضده ويزعم أن رسول الله ﷺ قد أشرك مسيلمة الكذاب معه في الأمر .. ويتوافد القوم ضعاف الإيمان والجهلة بأمور الدين ليسألوا أستاذهم ومبعوث نبيهم .. فيؤكد لهم أن مسيلمة نبي وهو شريك محمد ﷺ في الأمر .. ويتكاثر القوم حول مسيلمة يناصرونه ويذودون عن دينه المزعوم .. وما ذلك إلا بفضل مجهودات ذلك الأثيم الرحال بن عنفوة .. وهذا ما أورده ابن سعد في طبقاته الكبرى بصدد هذا المنافق قال :

أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال حدّثني الضحاك بن عثمان عن يزيد بن روحان قال محمد بن سعد وأخبرنا علي بن محمد القرشي عن من سمّى من رجاله .. قالوا : قدِم وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ بضعة عشر رجلاً فيهم رحّال بن عنفوة وسلمى بن حنظلة السحيمي وطلق بن علي بن قيس وحمران بن جابر من بني شمر وعلي بن سنان والأقعس بن مسلمة وزيد بن عبد عمرو ومستلمة بن حبيب وعلى الوفد سلمى بن حنظلة فأُنزلوا دار رملة بنت الحارث وأجريت عليهم ضيافة فكانوا يأتون بغداء وعشاء مرة خبزاً ولحماً ومرة خبزاً ولبناً ومرة خبزاً وسمناً ومرة تمراً نثر لهم .. فأتوا رسول الله ﷺ وكان رحال بن عنفوة يتعلم القرآن من أبيّ بن كعب .. فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أمر لهم رسول الله ﷺ بجوائزهم خمسة أوانٍ لكل رجل فقالوا : يا رسول الله إنا خلفنا صاحباً لنا في رجالنا يبصرها لنا وفي ركابنا يحفظها علينا فأمر له رسول الله ﷺ **بمثل ما أمر به لأصحابه وقال : (ليس بشركم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم)** فقيل ذلك لمسيلَمة فقال : عرف أن الأمر إليّ من بعده .. ورجعوا إلى اليمامة وأعطاهم رسول الله ﷺ إداوه (إناء صغير من جلد يتخد للماء بالكسر) من ماء

فيها فضل طهور فقال : إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم (البيعة المكان الذي يتعبد فيه النصارى) وانضحوا[1] مكانها بهذا الماء واتخذوا مكانها مسجداً ففعلوا وصارت الاداوه عند الأقعس بن مسلمة وصار المؤذن طلق بن علي فأذن فسمعه راهب البيعة فقال : كلمة حق ودعوة حق .. وهرب فكان آخر العهد به .. وادعى مسيلمة (لعنه الله) النبوة وشهد له الرحال بن عنفوة أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر فافتتن الناس به .

سابعاً ـ الشعبة السابعة تثبيط الهمم وإشاعة الفشل بين المسلمين

إننا الآن بصدد الحديث عن شعبة من أهم شعب النفاق والتي تعتبر جزءاً مهماً من برنامج رجال الطابور الخامس الذين يعملون لحساب دولة أخرى للتخذيل عنها والتثبيط .. ولقد كان سلاح التثبيط والتخذيل هذا من أهم الأسلحة الفتاكة التي كان يلجأ إليها الطرفان المتحاربان في الحرب العالمية الثانية والتي كان يتنافس فيها بصورة واضحة المحور والحلفاء .. كلٌ كان يبغي أعوانه وعملاؤه التثبيط وإشاعة الفشل في صفوف الجبهة الأخرى وبث روح الضعف وإماتة الروح المعنوية .. حتى تقضي هذه بدورها على روح المقاومة في صفوف المحاربين .. وسوف يكون حديثنا الآن عن ذلك الدور الخطير الذي قام به المنافقون بقصد تثبيط الهمم وإشاعة الفشل بين المسلمين وما جاء في ذلك بكتاب الله ينعي على المنافقين فعلهم هذا .. ويوضح مقدار خطورة هذا الفعل .. وسأسوق الآيات التي نزلت في ذلك وسأتعرض لها بالتحليل والايضاح .. وإليكم هذه الآيات :

١ ـ ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم

---

(١) انضحوا : رشوا .

القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ (آل عمران ١٥٤) .

لقد سبق أن تحدثت عن هذه الآية حينما عرضنا للحديث عن سفاهة رأي المنافقين وفساد عقليتهم وضعف عقيدتهم . . والذي نهدف إليه في هذه الآية إنما هو القول الذي روى عن معتب بن قشير في هذه المعركة ـ أي معركة أحد ـ والذي نزل فيه قول الله تعالى « يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » ولتتصوروا معي معركة أحد . . ذلك الجو الرهيب المخيف . . المسلمون بعد أن عصوا رسول الله ﷺ ووقعت بهم الهزيمة المنكرة وجرح رسول الله ﷺ وقتل من المسلمين ما يزيد على السبعين وفرّ من المسلمين من فر . . هذا الفشل الذريع وتلك الهزيمة المنكرة . . رسول الله يتعثر من شدة الجراح ويسقط في حفرة حفرها له أبو عامر الراهب. . ودماؤه ﷺ تسيل وجراحه تثقله . . ويشاع قتله . . تصوروا كل هذا . . ثم يخرج أحد المنافقين ليكون داعية للفشل والهزيمة ويقول قولاً ما أسرع ما ينتشر . . وخاصة بين العرب الذين يسمعون الشعر والنثر ويحفظون ما يسمعون ثم يرددون ذلك في سرعة البرق ووميضه . . منافق يقول : « هل لنا من الأمر من شيء » « أين ما وعدنا به من نصر من محمد وربه ؟ » . حدثوني بربكم لو كان رجلاً غير الزبير ابن العوام رضي الله عنه هو الذي سمع حديث ذلك المنافق والزبير كما نعلم هو القوي في إيمانه الثابت في عقيدته . . لو كان رجلاً من ضعاف العقيدة وإنساناً من الذين يحملون نفوساً تافهة بين جنبات صدورهم . . ألم تكن تلك القالة كفيلة بأن ترده على أعقابه . . بل وترد معه العشرات بل المئات من ضعاف الايمان . . ولتسمحوا لي أن أسائلكم : أي فشل وأي تثبيط للهمم . . وأي دعوة للهزيمة حينما يتحدث المنافقون فيما بينهم يرددون هذا القول « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا » . . حينما تقع الهزيمة ويمتحن بها المؤمنون يكثر دعاة الفشل والفوضى والمثبطون وأنصار الشيطان ليوهنوا العزائم ويضعفوا الصفوف ليكونوا عوناً للأعداء . . غير أن المؤمن القوي في إيمانه هو ذلك الثابت كالطود والذي لا تزعزعه النكبات ولا تضعفه البلايا والخطوب .

٢ - ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير * ولئن قتلتم في سبيل الله أو مُتُّمْ لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون *﴾ (آل عمران ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨) وأنتم تستطيعون أن تتصوروا مقدار ما يحدثه قول كالذي قاله المنافقون وجاء بالآية الأولى ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ . . أعني ما تحدثه من بلبلة أفكار وتثبيط همم ودعوة للهزيمة حينما يعود جيش للمسلمين وقد استشهد منه بعض رجاله . . لتتخيلوا معي هذا المشهد . . الجيش عاد منتصراً أو مهزوماً . . وهؤلاء يستقبلونه بهذه الأراجيف وبتلك الأقاويل التي إن لم تجد سبيلاً للوصول الى نفوس المؤمنين وقلوبهم فهي سوف تشق طريقها مسرعة إلى قلوب أولئك الحمقى ضعاف الإيمان والنفوس . . ولتتصوروا معي مقدار الهلع والجزع والارتباك الذي يحدثه هذا عندما يصغي إلى هذه الأقاويل مرضى القلوب وضعاف النفوس من الأمهات والأخوات والأزواج . . توقعوا بعد ذلك أي مشهد مؤلم ! . . ودعوا لخيالكم العنان لينطلق ثم احكموا على مقدارهذا القول ومقدار ما يحمل من خطورة .

ومن ثم نجد أن الله تبارك وتعالى يوجه النداء للمؤمنين ألا يقعوا فيما وقع فيه المنافقون من إثم حتى تكون الحسرة التي تصيب هذه القلوب الضعيفة قاصرة عليهم وخاصة بهم . . ثم نجد أن الله تبارك وتعالى في الآيتين اللتين تليان الآية الأولى يرد على هذا القول الباطل الذي قاله المنافقون في أسلوب فيه الكثير من التعجب من هذه العقلية التافهة والآراء الفاسدة . . ثم فيه الكثير من الطمأنة للمؤمنين والتبشير بمغفرة الله ورضوانه وحشرهم إليه طالما هم يقاتلون فيقتلون أو يموتون في سبيله صادقين في ذلك .

٣ - ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين *﴾ (آل عمران ١٦٨) .

وهذا مثل آخر من أمثلة التعويق والتثبيط أرجف به المنافقون في المدينة

فأخذوا يشيعون هذا القول ويرددونه بين المسلمين وهدفهم الرئيسي هو التثبيط وغايتهم الوحيدة التي يريدون الوصول إليها هي الهزيمة والفشل . . والروايات التي تذكر أن هذه الآية قد نزلت في عبد الله بن أبيّ وأصحابه الذين رجعوا معه في غزوة أحد وأبوا القتال مع رسول الله ﷺ كما سبق أن ذكرنا . . قالت إنهم أخذوا يرجفون بهذا القول وهم يهدفون إلى شيء رئيسي لو توصلوا إلى تحقيقه واستطاعوا ذلك لتوصلوا إلى كل شيء :

١ ـ أما ذلك الهدف الرئيسي فهو إيغار صدور المؤمنين على رسول الله ﷺ وإثبات أن آراءه ليست بالسديدة بدليل الهزيمة التي لحقتهم والقتلى الذين أصاب المشركون منهم حتى يكون ذلك مدعاة لعدم خروجهم مرة ثانية إذا دعوا إلى ذلك وحتى يكون هذا سبباً في تمردهم على رسول الله ﷺ . . وفي هذا كل التثبيط وإشاعة الفشل في صفوف المسلمين والدعوة الى الهزيمة والفرقة .

٢ ـ أما الهدف الثاني وهو ثانوي بحت وهو تابع للهدف الأول الذي إذا استطاعوا الوصول إليه كان الوصول إلى هذا الأخير أمراً محققاً . . أو كان كالظل الذي يتبع صاحبه . . فلو أنهم استطاعوا أن يقروا في نفوس المسلمين المعنى الأول لاستطاعوا أن يقروا في نفوسهم ذلك المعنى التابع : أن عبد الله بن أبيّ وأصحابه إنما رجعوا بناء عن حكمة خفيت على رسول الله . . وفي ذلك تبرير لرجوعهم وجبنهم وتخاذلهم عن رسول الله ﷺ .

والذي يرجح هذا الاستنباط عندنا . . **أولاً** : أن سبب النزول الذي ذكره المفسرون هو ما قاله عبد الله بن أبي وأصحابه « لو أطاعونا ما قتلوا » . . والخطاب بالطبع موجه للذين استشهدوا . . **ثانياً** : ان ما استخرجته من الآية من معانٍ يرجحه ما جاء في قوله تعالى : ﴿**الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا**﴾ ـ أي تخلفوا ـ . . ولم يكن هنالك متخلفون عن القتال إلا عبد الله بن أبي بن سلول ومن تبعه من المنافقين . . والذي يرجحها أيضاً ما جاء في هذه الآية على لسان هؤلاء المنافقين « لو أطاعونا ما قتلوا » . . والذي يفهم بداهة أنهم إنما كانوا يريدون من المسلمين أن يطيعوا عبد الله بن أبي ويتمردوا على أوامر رسول الله ﷺ . . وفي هذا الخطورة الجسيمة التي لا ينتج عنها إلا الفشل الذريع والهزيمة المنكرة .

٤ - ﴿**وإن منكم لمن ليُبطِّئنّ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً** ﴾ (النساء ٧٢) .

لقد أبانت هذه الآية موطنين من مواطن تثبيط المنافقين وإرجافهم :

١ - أما الأول فذلك قبل بدء المعركة وساعة خروج المسلمين إلى القتال . . ويتضح ذلك من قوله تعالى ﴿**وإن منكم لمن ليبطئن**﴾ والمقصود أنه يتباطأ هو ثم لا يكتفي بذلك وإنما يبطيء غيره عن القتال ويخذل المسلمين عن ذلك كما حدث مثلاً في غزوة أحد من تخذيل ابن أبيّ لأصحابه ورجوعه بهم إلى المدينة . . أو كما حدث مثلاً ساعة خروج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك . . إذ تولى فريق من المنافقين تلك المهمة وأخذوا يرددون هذا القول ﴿**أتحسبون جلاد بني الأصفر - كقتال العرب بعضهم بعضاً . . والله لكأنا بكم غداً مقرنون في الحبال**﴾ .

٢ - وأما الموطن الثاني فذلك عقب عودة المسلمين من المعركة . . ويوضحه قوله تعالى محكياً عنهم : ﴿**فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً**﴾ وذلك حينما يصاب المسلمون ببلاء أو هزيمة كما حدث مثلاً في غزوة أحد . . فإنهم يغتنمونها فرصة للاشارة بفضل الله عليهم إذ لم يحضروا هذه المعركة والبرهنة على حكمة آرائهم والارجاف بفساد رأي رسول الله ﷺ كما حدث مثلاً عقب غزوة أحد أيضاً حينما ردد المنافقون القول الوارد في الآية السابقة ﴿**لو أطاعونا ما قتلوا**﴾ .

٥ - ﴿**وإذ**[1] **يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً * وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا**

---

(١) ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً** ﴾ . . أخرج جويبر عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في معتب بن قشر الأنصاري وهو صاحب هذه المقالة : وأخرج ابن اسحاق والبيهقي أيضاً عن عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قال قال معتب بن قشير كان محمد يرى أن يأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط وقال أوس بن قيظى في ملأ من قومه (إن بيوتنا عورة وهي خارجة من المدينة أئذن لنا فنرجع إلى نسائنا وأبنائنا) . . فأنزل الله على رسوله حين فزع عنهم ما كانوا فيه من البلاء يذكرهم نعمته عليهم وكفاية إياهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** ﴾ الآية .

ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ (الأحزاب ١٢ ، ١٣) ولقد بينت هاتان الآيتان ثلاث حالات من حالات التثبيط والتعويق واشاعة الفشل بين المسلمين :

الحالة الأولى : الذي جاء في قوله تعالى وهو ما رددوه في أثناء غزوة الأحزاب ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ .. ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه الآية وذكرنا أن بعض المفسرين قالوا إن معتب بن قشير هو الذي قال في اثناء هذا الحصار المرير وفي خلال هذه المحنة الشديدة .. قال : (يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور) .. وذكرنا أننا لن نهتم كثيراً باسم القائل لهذه المقالة ولكن مدار اهتمامنا يتركز فيما حملت بين طياتها من معاني الفشل والتثبيط والدعوة إلى الهزيمة .. والذي يهمنا أيضاً أن هذا القول قاله منافقون أو منافق .. ولن يصدر هذا إلا عن منافق عريق في النفاق .

الحالة الثانية : يوضحها قوله تعالى ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾ .. والآيتان إنما نزلتا في غزوة الأحزاب .. وهذه الحوادث التي ذكرت في هاتين الآيتين إنما هي حوادث قد وقعت في اثناء هذه المعركة .. وهذا القول الذي ورد في الآية الثانيةإنما نسب إلى أوس بن قيظى وهو زعيم من زعماء المنافقين .. ونسب إلى أتباعه .. ونحن نستطيع أن نتبين لأول وهلة مقدار الخطورة الذي ينم عنه هذا القول .. فتلك دعوة سافرة إلى الهزيمة والفشل .. رجل وأتباعه ينادون في وسط المعركة وفي هذه الشدة العنيفة التي لولا فضل الله ورحمته لأطاحت بالعقيدة وأصحابها .. في هذه الآونة الخطيرة وقد جمعت قريش أفلاذ أكبادها يؤازرها من حولها من القبائل بقضهم وقضيضهم .. حشدت الألوف والمئات .. وبنو قريظة قد كشروا للمسلمين عن أنياب لا تنطق إلا غدراً وخيانة .. في هذا الوقت العصيب يدعو زعيم من زعماء المنافقين يعاونه أتباعه وأنصاره .. يدعون إلى ماذا ؟ .. يدعون إلى شيء خطير وإلى عمل جسيم .. يدعون إلى عودة المسلمين إلى يثرب .. يدعون إلى الانفضاض من حول رسول الله والهزيمة ما أجرأها وما أخطرها .

الحالة الثالثة : فهي التي يوضحها قوله تعالى ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً** ﴾ . . وواضح جداً من سياق الآية أن فريقاً من المنافقين احتج زوراً وبهتاناً رغبة في العودة والفرار أن بيوتهم غير حصينة ولا بد من الدفاع عنها . . والواضح أنهم ما أرادوا بذلك إلا الفرار من لقاء العدو ومن تبعات الجهاد . . وإنما أرادوا بذلك تثبيط همم المسلمين وتعويقهم عن الجهاد وإشاعة الفشل بين صفوفهم والدعوة إلى الهزيمة بينهم .

٦ ـ ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً** ﴾ (الأحزاب ١٨)

ولقد أوضح القرآن الكريم في هذه الآية وسيلة من وسائل تعويقهم للمجاهدين وتثبيطهم لهم عن القتال في سبيل الله وذلك بدعائهم لهم وندائهم ليتمتعوا معهم بالظلال والثمار والماء البارد وترغيبهم في ذلك وتزيين التقاعد لهم ﴿ **والقائلين لأخوانهم هلمّ إلينا** ﴾ .

ومن هذه الآيات جميعها يتضح لنا كيف أن المنافقين كانوا يقومون بدور خطير لصالح الأعداء سواء كان ذلك عن قصد منهم أو دفعهم لهذا مجرد الحقد والحسد والرغبة في الانتقام . . فإننا نستطيع أن نؤكد على كل حال أن المنافقين بدعوتهم هذه إلى الهزيمة ومحاولاتهم بشتى السبل أن يشيعوا الفشل بين المسلمين فتارة يشيعون الأقاويل التي تحطم الروح المعنوية للمحاربين يبغون من وراء ذلك قتل روح المقاومة في نفوسهم وأخرى بالترغيب في البقاء أو الترهيب من اللقاء ورابعة بالقول الذي يتبعه الفعل إذ يشيعون الأقاويل ثم يتبعون ذلك بالتخاذل . . وهذا فن في التعويق غريب وخطير . . فلو أنهم لم يخرجوا في أول الأمر لما كان لذلك الخطر الشديد . . إنهم حينما يخرجون مع المسلمين ثم يرجفون أقوالاً غريبة ثم يتبعونها بالعودة والخذلان تأكيداً لاقتناعهم بما يقولون . . إنما يبغون من وراء ذلك أن يزعزعوا الكثير عن عقيدتهم ويثبطوا هممهم . . فبذلك يكونون قد نجحوا في إيجاد الفرقة والانقسام وإشاعة الفشل والتثبيط كما حدث في غزوة أحد إذ رجع ابن أبيّ بثلث الجيش .

لقد نجحت فعلاً أساليب المنافقين هذه أيما نجاح في التخذيل عن العدو وفي اغراء ضعاف الإيمان.إن الذي أثبته بعض المؤرخين والرواه وما أحصوه في ذلك لأمر يدعو إلى الحيرة بل إلى الدهشة والعجب . . لقد أثبت بعضهم أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ للقاء العدو في غزوة الأحزاب إنما بلغ عددهم في أول المعركة ما يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل . . وهذا أمر يدعو إلى السرور حقاً والغبطة . . غير أن الذي يدعو إلى الألم بل الألم المرير بحق ما أثبته هؤلاء من أن الذين ثبتوا معه إلى نهاية المعركة لا يزيد عددهم على الثلاثمائة مقاتل . . أرى أن الذين ثبتوا كانوا عُشْر عدد المقاتلين وأن الذين آبوا إلى المدينة كانوا هم التسعة أعشار . . ولو أن النتيجة كانت العكس لكان الأمر هيناً لا يزيد على أن يكون أمراً عادياً . . . إن الإحصاء الذي أثبته المؤرخون عن الذين تخاذلوا في غزوة أحد مع ابن أبيّ وذكرهم من أنهم كانوا ثلث الجيش إحصاء إن دل على شيء إنما يدل على أن هذه نسبة كبيرة لا يستهان بها . . أمّا في غزوة الخندق فحينما تبلغ النسبة إلى هذا الحد الخطير بل والخطير جداً وحينما يصبح عدد المتخاذلين تسعة أعشار الجيش . . إن هذا أمر جلل يوضح لنا مقدار الخطورة للدعاية التي كانوا يقومون بها ويبين لنا إلى أي حد كان المنافقون ينجحون في إغراء ضعاف القلوب ومرضى النفوس .

إن تلك الأساليب الغريبة التي لجأ إليها المنافقون محاولة لقتل الدعوة ورجالها والقضاء عليها في مهدها لتوضح لنا كيف أن هذه الفئة كانت وما زالت شر خلق الله جميعاً وأتعس عباد الله في أرضه . . ولولا فضل الله الذي كلأ به دعوته ورحمته التي حفت برسوله والمؤمنين من عباده لما قامت للإسلام قائمة ولما رفع للمسلمين علم على مصر من الأمصار . . . حدثوني بربكم هل كان للمسلمين أن ينتصروا إزاء تلك النكبات العجيبة التي أحاطت بهم في غزوة الأحزاب ؟ . . بل هل كان لهم أن يتمتعوا بالحياة مرة أخرى بعد أن تألبت عليهم معظم قبائل الجزيرة وتنكرت لهم ؟ . . ولكن أين الفضل وأين الرحمة وهما من الله جميعاً يختص بهما عباده ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون**

بصيراً * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * ﴾ (الاحزاب ٩ ، ١٠ ، ١١) .

الشعبة الثامنة : الاضطراب في العقيدة

الآيات القرآنية الواردة في ذلك هي :

١ ـ **﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب[١] من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير * ﴾** (البقرة من ١٧ ، الى ٢٠)

من هذه الآيات نستلخص الآتي :

أولاً ـ لقد ضرب الله تعالى مثلين يشبه بهما المنافق . . أما في الأول فشبهه برجل أوقد ناراً فأضاءت له ما حوله وانتفع بها وأبصر بها . . وبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره فأصبح في ظلام دامس يتخبط في حيرة من أمره . . وكذلك المنافق

---

(١) أخرج ابن جرير عن طريق السدى الكبير عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق فجعلا كلما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق وبرق فجعلا كلما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه وإذا لم يلمع لم يبصرا . . فأتيا مكانهما يمشيان فجعلا يقولان ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يده . . فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما في يده وحسن إسلامهما . . فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة . . وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقاً من كلام النبي (ﷺ) أن ينزل فيهم شيء أو يذكروا بشيء فيقتلوا كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما وإذا أضاء لهم مشوا فيه . . فإذا كثرت أموالهم وولدهم وأصابوا غنيمة أو فتحاً مشوا فيه وقالوا إن دين محمد حينئذ صدق واستقاموا عليه كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهما البرق وإذا أظلم عليهم قاموا وكانوا إذا هلكت أموالهم وولدهم وأصابهم البلاء قالوا هذا من أجل دين محمد وارتدوا كفاراً كما قال ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما .

يؤمن . . ثم يكفر . . ثم يحار ويتردد . . ويستولي عليه الريب والشك ومع هذا فهو أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لا يبصر ولو كان ضياء ما أبصر

ثانياً ـ وهذا مثل آخر ضربه الله لهذا النوع المتحير في عقيدته المضطرب بين الكفر والإيمان (شبه قلب هذا المنافق بالمطر فيه (ظلمات) أي بهذا القلب تلابسه الشكوك والكفر والنفاق (ورعد) وهو ما يزعج المنافقين من الخوف فإن المنافق جبان (وبرق) وهو ما يلمع في قلوب هؤلاء المنافقين أحياناً من نور الإيمان وضوء الحق . . فشبه جل شأنه قلب المنافق تغلب عليه ظلمات الشك والفرق والجبن . . هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى . . بريق ضوء الحق الذي يداعبه أحياناً . . شبه كل هذا بالمطر تصحبه الظلمات والرعد والبرق . . وتارة يشتد ضوء الحق في قلوبهم فيضيء بصيرتهم ويستقيموا على الجادة . . وأخرى تتغلب ظلمات الشك وجزع الجبن فتظلم الدنيا أمام أعينهم ويتخبطون في الشرك والنفاق . . وشبه سبحانه وتعالى هذه الحالة برجل وجد في هذا الظرف من المطر الذي تصحبه الظلمات والرعد والبرق فإن لمع ضوء البرق واصل سيره وإلا تحير من شدة الظلام وتخبط . . وهذه الصورة التي وضحها الله تعالى لنا في هذه الآيات صورة واضحة تضع شخص المنافق أمام أعيننا وتصوره لنا بصورة الانسان المضطرب في عقيدته المتحير بين الكفر والإيمان

٢ ـ **﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً * ﴾** (النساء ١٣٧) .

الآية إنما نزلت في المنافقين وهي توضح لنا شخصية المنافق يؤمن . . ثم يكفر وذلك بنفاقه وإفساده الأمر على المؤمنين . . ثم يؤمن ثم يكفر ثم يزداد كفراً بنفاقه وإفساده . . وواضح من سياق الآية أنها لا تعني الذين يترددون في النفاق ثم يتوبون توبة صادقة وإنما هؤلاء الذين يلقون الله على نفاقهم ولذلك قال تعالى **﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾** . . وهذه تعطينا صورة واضحة عن اضطراب هؤلاء القوم في عقيدتهم وترددهم بين الايمان والكفر .

٣ ـ **﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً * ﴾** (النساء ١٤٣) إن حيرتهم بين الكفر والايمان واضطراب

عقيدتهم يجعلانهم في تردد فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً .. ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً .. بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين .. وهم من حيرتهم وشكهم تارة يكونون مع المؤمنين .. وأخرى مع الكافرين .. والحقيقة أنهم لا مع هؤلاء قلباً وقالباً .. ولا مع هؤلاء ظاهراً وباطناً .. وهذا مثل من أمثلة الاضطراب في العقيدة والشك والتردد بين الكفر والإيمان .

تلك الآيات التي ذكرتها ليست إلا صورة واضحة لاضطراب عقيدة هؤلاء القوم وعدم ثباتهم على رأي واحد .. فهم لذلك في قلق دائم فتارة يؤمنون وأخرى يكفرون .. وإن دلت هذه الآيات على شيء فإنما تدل على أن الاضطراب في العقيدة أمر لا يتصف به إلا من داعب النفاق قلبه .

الشعبة التاسعة الخيانة

أولاً ـ الخيانة بمعناها العادي

الخيانة بمعناها العادي أعني بها أمرين : أولهما .. المعنى الواسع لها وهو ألا يرعى المرء ما للآخرين من حرمة وحقوق ولا يرقب فيهم إلًّا ولا ذمة ولا يرعى لهم جواراً فيسلبهم ما ليس له بملك ويسطو على ما بأيديهم .. وفي المصباح المنير « وربما قيل كل سارق وخائن دون عكس » .. ويؤيد ما ذهب إليه صاحب المصباح ما ورد سبباً لنزول الآيات من ١٠٥ إلى ١١٣ (سورة النساء) من أنها نزلت في سارق الدرعين وقومه .. وأما الثاني فهو أن يؤتمن المرء على شيء فلا يقيم لحرمة الأمانة وزناً .

أ ـ ولقد نزل في الحالة الأولى قوله تعالى :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما *﴾ (النساء من ١٠٥ إلى ١٠٧) .

من المعروف أن هذه الآيات إنما نزلت في ذلك المنافق بشر سارق الدرعين . . وفيها نرى أن الله تعالى قد وصف بشر وإخوته الذين عاونوه سواء في السرقة أو الدفاع عنه ـ بالخيانة في قوله تعالى ﴿ **ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾ فقد نهى الله تعالى رسول ﷺ ألا يكون من أجل هؤلاء الخونة مدافعاً وفي سبيلهم مخاصماً وعنهم مجادلاً . . ثم وصفهم سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله ﴿ **ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم** ﴾ أي يخونونها بالمعصية . . ثم قال تعالى ﴿ **إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً** ﴾ فوصفهم تعالى بالإصرار على الخيانة والإفراط فيها . . كل هذه الصفات التي جاءت يتلو بعضها بعضاً ما جاءت إلا لتقر معنى واحداً وهو معنى الخيانة وتؤكده .

ب ـ أما المعنى الثاني وهو خيانة من ائتمنه . . فلقد ورد في الحديثين السابقين وهما متفق عليهما . . ففي الحديث الأول الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه وهو حديث « **آية المنافق ثلاث** » جاء فيه « وإذا ائتمن خان » . . وفي الحديث الثاني وهو المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وهو حديث : « **أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً** » ذكر من بين هذه الأربع صفات : « إذا ائتمن خان » .

وهذان الحديثان سبق أن ذكرتهما عند حديثي عن الصفات التي باجتماعها في شخص واحد يكون منافقاً .

ثانياً ـ الخيانة العظمى

وهذه الخيانة العظمى هي أخطر شعب النفاق وأقطعها وأشدها تهديداً لكيان الدعوات وأصحابها لأنها خيانة لا تتصل بفرد أو أفراد أو شعب أو شعوب . . وإنما هي خيانة لدعوة ودعاتها . . وعمل على تحطيم كيان مبدأ ورجاله . . فمن هذا كانت الخطورة . . ولذلك كانت الفظاعة والبشاعة . . وقد يتساءل متسائل : وكيف تكون هذه؟ وما أهدافها ؟ وما وسائلها ؟

وسوف أوضح هذه الأعمال التي أقدم على فعلها أو فعلها فعلاً هؤلاء

المنافقون الذين عاصروا رسول الله ﷺ والتي تعتبر خيانة عظمى حتى ألقى الأضواء على هذه الشعبة :

أ ـ التجسس لحساب العدو

١ ـ ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم * ﴾ (المائدة ٤١) .

لقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن هذه الآية والثلاث آيات التي تتبع هذه إنما نزلت جميعها في منافقي أهل الكتاب . . والذي نريد الاستشهاد به من هذه الآية قوله تعالى ﴿ سماعون لقوم آخرين ﴾ أي سماعون لأجل قوم آخرين . . وذلك أنهم كانوا قد وجهوا عيوناً على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين . . يحضرون مجالس رسول الله (ﷺ) وينقلون أخباره إلى قوم وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ لم يأتوك ﴾ أي كانوا عيوناً لأقوام كانوا لا يحضرون مجالسه ﷺ تكبراً وصلفاً وزيادة في الكفر . . ومن هذه الآية نتبين أن فريقاً من المنافقين أو منافقي أهل الكتاب كانوا يزعمون الاسلام لغاية واحدة وهي التجسس لأعداء الله ونقل أخبار المسلمين إليهم .

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تفعلون ﴾ (البقرة ٧٦).

---

(١) وأخرج ابن جرير عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا إن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أيحدث العرب بهذا ؟ فإنكم كنتم تستفتحون عليهم فكان منهم . . فأنزل الله ﴿ وإذا لقوا ﴾ . .

وأخرج عن السدى قال : نزلت في ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكانوا يأتون المؤمنين من العرب بما تحدثوا به فقال بعضهم لبعض : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من ليقولوا : نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم .

قال[1] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه : كان رسول الله ﷺ قد قال لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن فقال رؤساؤهم (رؤساء اليهود) من أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا . . فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر . . وقرأ قول الله تعالى ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ . . وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر . . فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون أليس قد قال الله لكم كذا وكذا فيقولون بلى . . فإذا وجه إلى قومهم يعني الرؤساء فقالوا « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » . . . الآية (ابن كثير حـ ١) .

من هاتين الآيتين ومما ذكره المؤرخون من أن المنافقين إنما كانوا يعملون عيوناً لليهود ولقريش وكانوا يوافونهم بكل أخبار الرسول ﷺ وأنبائه وتحركاته . . من كل هذا نتبين كيف كانت حركة التجسس في صدر الأعمال التي يهتم بها المنافقون للكيد للإسلام والمسلمين والتعاون مع أعداء الله على ذلك . . وليست قصة مسجد الضرار التي سوف أتعرض لها الآن إلا أكبر دليل على ذلك .

ب ـ إفشاء الأسرار للعدو .

وقد يظن إنسان أنه ليس ثمة اختلاف يذكر بين التجسس لحساب العدو وبين إفشاء السر للعدو . . ولكنني أقول إن الفرق بينهما لا شك كبير . . لأن

---

(١) روى أحمد وأبو داود عن ابن عباس قال : أنزلها الله في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا فاصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق فقالت الذليلة : وهل كان ذلك في حيين قط دينهما واحد ونسبتهما واحدة وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض إنا أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وخوفاً وفرقاً فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ﷺ بينهما فأرسلوا اليه ناساً من المنافقين ليختبروا رأيه فأنزل الله : ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ الآية .

الذي يعمل كجاسوس إنما يتخذ هذه مهنة له وغاية يعمل من أجلها ولكن هذا الأخير الذي يفشى السر تحت تأثير شيء معين .. فإنما هو إفشاء وقتي . وضعف ظهر لساعته تحت تأثير الرغبة او الرهبة فهو ضعف لا يلبث أن يزول إذا خالط قلبه نور الايمان .. ونستطيع أن نقسم هذا النوع إلى قسمين :

أولاً ـ إفشاء غير المكره سر الجماعة :

والذي أعنيه بغير المكره هنا ذلك الذي لم يقع عليه إكراه مادي كأن يكون عذاب بدني قد وقع عليه إلى الحد الذي لا تطيقه نفسه واقتطعت منه هذه الأسرار اقتطاعاً رغم أنفه تحت تأثير الفتنة والعذاب أياً كانت صورتها .

والذي بين أيدينا قصتان تمثلان هذه الحالة حدثتا في حياة رسول الله ﷺ واليكم ذكرهما :

١ ـ إفشاء أسرار الجماعة تأثراً بالصداقة الشخصية :

وهذه القصة .. قصة أبي لبابة الأنصاري رضي الله عنه حينما رق قلبه .. بل ضعف قلبه وتأثر لمنظر النساء والأطفال والشيوخ من بني قريظة ـ حلفائه وحلفاء قومه في الجاهلية ـ فزل لسانه ونطق سراً ما كان ينبغي له أن يقوله .. ولندع الآن محمد بن إسحاق يروي لنا قصة ذلك الصحابي الجليل .. ولنترك لحقائق التاريخ أن تصدر حكمها مدعمة بالآدلة مؤيدة بالوقائع والبراهين .. **قال ابن إسحاق** : «ثم إنهم بعثوا (أي بني قريظة بعد أن حاصرهم رسول الله ﷺ حصاراً شديداً بعد أن ظاهروا المشركين عليه في الأحزاب) إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ـ وكانوا حلفاء الأوس ـ لنستشيره في أمرنا .. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم .. فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش (بكى) إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه .. فرقَّ لهم وقالوا له : يا ابا لبابة .. أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ . . . قال نعم .. ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ إنه الذبح .. قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ . . . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأتِ رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى

عمود من عمده وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت . . وعاهد الله : أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ـ وكان قد استبطأه ـ . . قال : «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له . . فأما إذ قد فعل ما فعل مما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» .

ولقد ذكر ابن هشام عن سفيان بن عينيه عن اسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة : وأنزل الله تعالى في أبي لبابة : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾** .

ثم قال محمد بن اسحاق : فحدثني يزيد بن عبد الله بن قسط :

«أن توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ من السَّحَرِ وهو في بيت أم سلمة فقالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك . . قالت : فقلت مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنّك . . **قال: تيب على أبي لبابة** . . قالت : قلت أفلا أبشره يا رسول الله ؟ . . **قال: بلى إن شئت** . . قال فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ـ فقالت : يا أبا لبابة : أبشر فقد تاب الله عليك . . قالت : فثار الناس إليه ليطلقوه . . . فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده . . فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه»

ولقد ذكر ابن هشام أن أبا لبابة رضي الله عنه أقام بالجذع مرتبطاً ست ليال . . تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم تعود فيرتبط بالجذع . . ثم ذكر أن الآية التي أنزلت في توبته هي قول الله عز وجل : **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾** .

هذا ما رواه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق . . إلا أنه قد وردت روايات أخرى ذكرها الواحدي في كتابه «أسباب النزول» **كما أوردها ابن كثير**

في تفسيره . . وهذه الروايات لزم الإشارة إليها والتعرض لها لأنها تخالف هذه الرواية كل المخالفة . . وهذا بعضها :

أ ـ أخرج ابن مردوية وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ فتخلف أبو لبابة وخمسة معه . . ثم أن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا الهلاك . . وقالوا نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد . . والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها . . ففعلوا وبقى ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال: من هؤلاء الموثقون بالسواري ؟ . . فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون انت الذي تطلقهم . . فقال: لا أطلقهم حتى أمر بإطلاقهم . . فأنزل الله: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم . . الآية**﴾ . . فلما نزلت أطلقهم وعذرهم . . وبقى الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء وهم الذين قال الله فيهم : ﴿**وآخرون مرجون لأمر الله** . . .﴾ . . فجعل أناس يقولون هلكوا إذ لم ينزل عذرهم . . وآخرون يقولون: عسى الله أن يتوب عليهم . . حتى نزلت ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا** . .﴾ .

واخرج ابن جرير من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه وزاد : فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا . . فقالوا: يا رسول الله . . هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا . . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً . . فأنزل الله: ﴿**خذ من أموالهم صدقة . . الآية**﴾ . . وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم .

وأخرج عن قتادة أنها نزلت في سبعة . . أربعة منهم ربطوا أنفسهم في السواري وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة .

وأخرج ابو الشيخ وابن مسندة في الصحابة من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة وكعب بن مالك ومراره

بن الربيع وهلال بن أمية .. فجاء ابو لبابة وأوس وثعلبة فربطوا أنفسهم بالسواري وجاءوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله: خذ هذا الذي حبسنا عنك.. فقال: لا أحلهم حتى يكون قتال.. فنزل القرآن: **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم... الآية﴾** .. إسناد قوى (لباب النقول في أسباب النزول للسيوطى).

والذي يتضح مما ذكرته من الروايات آنفاً أن أبا لبابة الأنصاري كان من بين الذين تخلفوا في غزوة تبوك.. ولقد رجعت إلى كتب الحديث والسيرة عساى استطيع الجمع بين هذا الذي رواه ابن اسحاق سبباً لنزول **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم... الآية﴾** وذلك الذي رواه السيوطي في كتابه «لباب النقول في أسباب النزول» والواحدي في كتابه «أسباب النزول».. وعمدت إلى ذلك الحديث المروي عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد أبيه حين أصيب بصره عن أبيه يروى قصته وقصة صاحبيه مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي ولم يرد فيه ذكر لأبي لبابة أو غيره من أهل الإيمان والتقوى أنه كان من الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ .. **لقد ساق ابن كثير في تفسيره الحديث مروياً عن الامام احمد عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ثم علق عليه بقوله: «هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهوى** بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روى عن غير واحد من السلف في تفسيرها ما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» .. قال هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الانصار .. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد.. وكلهم قال مرارة بن ربيعة.. وكذا في مسلم ربيعة في بعض نسخه وفي بعضها مرارة بن الربيع وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب.. وقوله فسموا رجلين شهدا بدراً قيل إنه خطأ من الزهري فإنه لا يعرف شاهد واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً والله أعلم».

وفي روايات الحديث المختلفة أن المخلفين وكانوا بضعة وثمانين رجلاً جاءوا جميعاً فاعتذروا لرسول الله ﷺ . . فقبل منهم إلا هؤلاء الثلاثة الذين صدقوا رسول الله ﷺ فأخبروه أن تخلفهم كان بدون عذر . . هم وحدهم الذين خُلِّف أمرهم حتى ينزل فيهم حكم الله . . ففي رواية البخاري لهذا الحديث :

« . . . وأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . . فجئته فلما سلمت عليه تبسم المغضب . . . ثم ذكر بقية الحديث » .

ولقد ذكر ابن هشام هذا الحديث أيضاً في سيرة عن ابن اسحاق وذكر بصدد غزوة تبوك مروياً عن ابن اسحاق لأسماء اولئك الذين تخلفوا من أصحاب رسول الله ﷺ عنه في هذه الغزوة فذكر ستة رجال هم : ١ ـ ابو خيثمة أخو بني سالم بن عوف واسمه مالك بن عوف .

٢ ـ وعمير بن وهب الجحمي .

٣ ـ وأبو ذر الغفاري .

٤ ـ وكعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة .

٥ ـ ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف .

٦ ـ وهلال بن أمية أخوبني واقف . . أما الثلاثة الأول فقد لحقوا برسول الله ﷺ وأدركوه في الطريق كما ذكر ابن اسحاق. . فمما ذكر عن الأول والثاني «وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجحميّ في الطريق يطلب رسول الله ﷺفترافقا» . . وكان مما ذكره في الثالث «وتلوَّم (أي تمكث وتمهل)» أبو ذرٍ على بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً» . . ولم يرد ذكر لبابة أو غيره من أصحاب رسول الله ﷺ بين المتخلفين عنه عليه السلام في هذه الغزوة ولا أن أحداً منهم ارتبط في مسجد

رسول الله ﷺ إلى عمود من أعمدته .. اللهم إلا ما ذكرناه آنفاً بصدد تلك الروايات التي جاء بها أن أبا لبابة وأصحاباً له على خلاف بين الروايات في عدتهم أقسموا بالله ليوثقن أنفسهم بالسواري فلا يطلقونهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها .

ولقد حاول صاحب السيرة الحلبية إزاء تعدد ما روى بصدد ارتباط أبي لبابة رضي الله عنه بعمود المسجد وهل كان هذا في غزوة بني قريظة ؟ أم في غزوة تبوك ؟.. وهل أُنزل قول الله تعالى **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم .. الآية﴾** بشأن الارتباط الأول أعني في غزوة بني قريظة ؟ أم بشأن ما ورد ذكره في غزوة تبوك مع أنهما لم يقعا في وقت واحد .. فلقد ذكر ابن اسحاق أن غزوة بني قريظة حدثت في السنة الخامسة من الهجرة بينما خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة... أقول حاول صاحب السيرة الحلبية الربط بين هذه الروايات والجمع والتوفيق بينها ولكنني أحسبه لم يوفق في هذا .. فقد قال « وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم .. الآية﴾** قال كانوا عشرة : أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما رجع ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد منهم أبو لبابة .. فلما مرّ بهم رسول الله ﷺ قال: من هؤلاء.. قالوا : أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم .. **قال ﷺ : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم .. رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين .. فلما بلغهم** ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا .. فأنزل الله تعالى : **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... الآية﴾** .. عند ذلك أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم .. **فجاءوا** بأموالهم وقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا **واستغفر لنا .. فقال ﷺ : ما أمرت أن آخذ أموالكم** .. فأنزل الله تعالى **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم..﴾** إلى قوله **﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾** .. وهم الذين لم يربطوا أنفسهم بالسواري .. وتقدم أن أبا لبابة رضي الله عنه ربط نفسه ببعض سواري المسجد في قصة بني قريظة .. وعلى

هذا فقد تكرر منه ربط نفسه وقد ذكره ابن اسحاق فليتأمل ذلك» (اء هـ)

والذي[1] قاله ابن هشام في نزول هذه الآية ما ذكره إبن كثير من أن مجاهد قال : أنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه .

وهذه القصة التي تمثل ما قاله أبو لبابة رضي الله عنه عن نفسه فيما ذكره ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق «فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خُنت الله ورسوله ﷺ» . . ذلك أن بني قريظة حينما اشتد عليهم الحصار أنزلوا شأس بن قيس **فكلمه ﷺ** أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك الأموال والسلاح والخروج بالنساء والذراري وما حملت الإبل إلا السلاح . . **فأبى رسول الله ﷺ** فقال شأس : تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل . . فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه . . وعاد شأس إليهم بذلك . . ثم إن أبا لبابة رضي الله عنه فهم من عدم قبوله عليه السلام مبدأ حقن دمائهم أنه سوف يذبحهم فهو أشار لبني قريظة بذلك . . ثم لم يكد يبرح مكانه حتى علم أنه قد خان الله ورسوله . . وتلك الآية التي ذكر ابن هشام أنها نزلت في حقه **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾** . . . إن الصحابي رضي الله عنه لا شك رجل جليل . . ودليل إيمانه أنه أحس بخطئه لساعته وأدرك أنه خان . . ثم أقبل على التوبة بشيء من تعنيف نفسه وتحقيرها . . وهل يقبل أن يربط نفسه في عمود من أعمدة المسجد طائعاً مختاراً إلا من داعب الإيمان قلبه وأحس بخطورة فعله . . لقد انتظر أبو لبابة حكم الله فيه . .[2] وإن صحت الراوية

---

(١) وأخرج ابن مردوية يسند فيه الواقدي عن أم سلمة قالت : إن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي فسمعت رسول الله ﷺ يضحك في السحر فقلت ما يضحكك يا رسول الله . . قال: تيب على أبي لبابة . . فقلت أوذنه بذلك فقال ما شئت فقمت على باب الحجرة وذلك قبل ان يضرب الحجاب فقلت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك . . فثار الناس ليطلقوه فقال حتى يأتي رسول الله ﷺ فيكون هو الذي يطلقني فلما خرج إلى الصبح أطلقه فنزلت **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾** .

(٢) روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة قال: **﴿لا تخونوا الله والرسول﴾** في أبي لبابة بن عبد المنذر سأله بنو قريظة يوم قريظة «ما هذا الأمر» فأشار إلى حلقه يقول الذبح فنزلت . . قال أبو لبابة ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله .

التي ذكرها ابن هشام وذكرها غير واحد مثل عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهري من أن هذه الآية إنما نزلت في أبي لبابة . . فلقد اطلق الله على عمله هذا خيانة . . ثم قال ﴿**وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾ . . وفي الحديثين المتفق عليهما واللذين سبق أن ذكرتهما: ﴿**وإذا أتمن خان**﴾ هذه صفة من صفات النفاق . . وإن كانت الخيانة لله ورسوله وخيانة جماعة المسلمين بإفشاء أسرارها إنما هي خيانة عظمى أخطر وأفظع من تلك الخيانة العادية التي تتصل بفرد أو أفراد . . . ولست أعني ـ أستغفر الله ـ أن أتهم صحابياً جليلاً مثل هذا بالنفاق . . ولكن أريد أن أقول إن هذه الحالة إنما كانت حالة نفاق طرأت ثم لم تلبث أن زالت مجرد أن عاد للرجل إيمانه . . ولقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في المنافقين مثل عبد الرحمن بن زيد . . ولقد ذكر السدى[٣] «إنهم كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين» وسمى ذلك خيانة وإذا صح أن الآية ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله جن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم**﴾ قد نزلت في توبة أبي لبابة رضي الله عنه . . فلقد جاءت في سياق الحديث عن النفاق والمنافقين في سورة التوبة . . ولقد جاءت تتبع الآية : ﴿**وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم**﴾ .

ومما لا شك فيه أن أقصى ما يتمناه العدو من الفرد هي خيانته لجماعته بإفشاء أسرارها . . أو بالتآمر ضدها . . وحينئذ تكون الخيانة العظمى وهي أقصى ما تؤدي إليه المصانعة . . فلقد حكم الصحابى رضي الله عنه على نفسه بالخيانة . . والخيانة في حد ذاتها نفاق ﴿**وإذا ائتمن خان**﴾ . . ولست أعني بذلك أن اجترىء على مقام صحابى جليل هو من خيرة الصحابة . . ومن السابقين الأولين . . وهو أحد النقباء الذين أَمَّرَهُم رسول الله ﷺ . . وقد تاب الله عليه . . وإنما أعني أن أقول أن العمل في حد ذاته إنما يعتبر نفاقاً ولو أنه نفاق

---

(٣) وأخرج ابن جرير عن السدى قال: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت .

وقتي .. أو نفاق عارض لم يلبث أن زال بقبول التوبة من الله وإسباغ الرحمة والمغفرة أي أن النفاق في هذه الصورة إنما هو نفاق عملي وليس نفاقاً عقيدياً .

٢ ـ إفشاء أسرار الجماعة مصانعة للعدو أو في سبيل تكوين صداقة شخصية

وهذه القصة قصة حاطب بن أبي بلتعة .. رجل من المهاجرين الذين شهدوا بدراً .. ونحن نعلم مكانة أهل بدر عند الله وعند المسلمين .. ولم يكن حاطب هذا من قريش أنفسهم ولكنه كان حليفاً لعثمان رضي الله عنه .. فلما عزم رسول الله ﷺ فتح مكة لنقض أهلها العهد .. ولم يكن يعلم عزمه هذا إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. ولقد استنفر رسول الله ﷺ المسلمين من أهل المدينة ومن الأعراب دون أن يعلم أحد مقصده .. ولقد اتخذ الاحتياطات الشديدة لتحول دون تسرب الأخبار عن طريق المنافقين أو غيرهم .. **وكان يدعو عليه السلام** « **اللهم عم عليهم خبرنا** » وفي رواية : « **اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها** » وفي رواية : « **اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا الا فلتة** » .

ثم أمر عليه السلام بالطرق فحبست وأقام على رءوسها جماعة يراقبون من يمر بها .. وعهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يراقب هذه الجماعة وهو معروف بالحزم والشدة .. فكان يمر عليهم ويقول لهم : لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .

ولقد فطن لمقصد رسول الله ﷺ بعض أناس كان منهم حاطب بن أبي بلتعة .. ولقد كان له في مكة إخوة وبنون ليس لهم عصب يحميهم .. فخاف على أهله من قريش إذا غزاهم النبي ﷺ .. فأحب أن يكون له عندهم يد .. وأراد أن يتقرب إليهم .. ليحملهم هذا على عدم التعرض لأهله وبنيه .. فكتب إليهم كتاباً اختلف في نصه .. فقيل إنه كان فيه :

« من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل .. إن رسول الله ﷺ أذن في الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم

وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد » وقيل إنه كان فيه : « أما بعد . . يا معشر قريش . . فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل . . فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده . . فانظروا لأنفسكم . . والسلام » .

وقيل إنه كان فيه : « إن محمداً قد نفر . . فإما إليكم . . وإما إلى غيركم . . فعليكم الحذر » إن هذه الصيغ جميعها لا يفهم منها أنه قصد أذى المسلمين وإنما هو إفشاء لسر الجماعة وأخبارها بصورة واضحة لأجل سبب معين . . وسأذكر حديثاً قد اتفق على صحته :

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : إن عبيد الله بن أبي رافع أخبره أنه سمع علياً رضي الله عنه يقول : « بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها . . فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة . . قلنا أخرجي الكتاب . . قالت ما معي كتاب . . قلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب . . قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها . . فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . . فقال رسول الله (ص) « يا حاطب . . ما هذا ؟ » . . قال « لا تعجل عليّ . . إني كنت أمرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . . **فقال رسول الله ﷺ « إنه صدقكم »** . . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . . **فقال رسول الله ﷺ « إنه قد شهد بدراً . . وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »** . . **وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه** من غير وجه عن سفيان ابن عيينه به . . **وزاد البخاري في كتاب « المغازي »** : فأنزل الله السورة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ . . وقال في كتاب التفسير قال عمرو ونزلت فيه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ . . قال لا أدري الآية في الحديث أو قول عمرو قال البخاري

قال علي يعني ابن المدني قيل لسفيان في هذا نزلت « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » قال سفيان هذا في حديث الناس حفظته من عمرو ما تركت منه حرفاً وما أرى أحداً حفظه غيري .

ونجد في هذا الحديث أن عمر رضي الله عنه قال : « دعني أضرب عنق هذا المنافق » . . وفي رواية لابن اسحاق « فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق » . . وفي سكوت الرسول عليه السلام عن نفي هذه الصفة عن حاطب رضي الله عنه معناه الإقرار . . ثم إن رده على عمر رضي الله عنه ليؤكد هذا ويقره في أذهاننا فإنه عليه السلام لم ينف هذه الصفة عنه . . ولم ينف أن هذا العمل ليس بالنفاق . . ولكنه قال عليه السلام « إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . . . . . وفي رواية أخرى في الصحيحين « فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني لأضرب عنقه . . فقال : أليس من أهل بدر . . فقال : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو - قد غفرت لكم . . . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . . . هذا لفظ البخاري في المغازي في غزوة بدر مروياً عن أبي عبد الرحمن السلمى عن علي رضي الله عنه .

فمن هذه الأحاديث كلها نجد أن رسول الله ﷺ لم يستنكر وصف عمر لهذا العمل بأنه نفاق . . ولا حتى العقوبة التي أراد عمر أن يوقعها على حاطب وهي القتل . . وإنما كل الذي شفع عند رسول الله ﷺ له أنه كان من أهل بدر .

ثانياً - إفشاء المكره لأسرار الجماعة

في الحقيقة إنني لأجد نفسي مضطراً لأن أقدم قدماً وأؤخر أخرى حينما أهُمّ بالحديث عن هذا الأمر . . وليست ثمة دوافع تمنعني غير تحرير الحقيقة أو أن أتحدث بما لا أعلم . . . ولقد وضعت هذا الموضوع على بساط البحث

ورجعت فيه إلى ما استطعت العثور عليه من المراجع لعلي أجد حقيقة واحدة أقيس عليها أو استخلص منها سواء في ذلك عصر رسول الله ﷺ .. أو عهد صحابته رضوان الله عليهم .. أي أعني عصر الخلفاء الراشدين ... ولجأت إلى كتاب الله فلم أهتدِ إلى آية واحدة تذكر هذا الأمر صراحة أو تشير إليه .. ولجأت إلى حديث رسول الله ﷺ .. وقتلت كتب السيرة بحثاً وتنقيباً فلم أجد بغيتي .

إنني فعلاً عثرت على عدة وقائع وحاولت أن أقارن بينها وبين الحالة التي أبحثها فلم أجد ثمة شبه .. قلت إنني أعني بالمكره : ذلك الذي أكرهوه بل انتزعوا منه أسرار الجماعة ـ أي جماعة المسلمين ـ تحت تأثير الفتنة والعذاب إلى الحد الذي لم تطقه نفسه وضعف جسمه عن تحمله ... فلجأت إلى ما ورد عن عمار بن ياسر .. فتحققت من أنه لم يفش سراً من أسرار الجماعة إنما نطق بكلمة الكفر بلسانه لا يقلبه « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » .. ولقد رخص الله تعالى له بذلك ... والفرق بين الحالتين كبير لأنه رضي الله عنه لم يؤذ جماعة المسلمين .. ولم يفش لهم سراً .. وإنما كان الموضوع متصلاً به وحده ... ولا مجال هنا للمقارنة أو الشبه ... ورجعت إلى قصتي حاطب بن أبي بلتعة وأبي لبابة الأنصاري رضي الله عنهما فلم أجد فيهما بغيتي لأنهما لم يفشيا السر تحت تأثير الفتنة والعذاب .. ولكن كان ذلك بمحض اختيارهما ... ولكن ثمة حديث واحد عثرت عليه هو حديث الراهب والغلام الذي رواه صهيب رضي الله عنه وأورده مسلم في صحيحه .

ولكن هل حدثنا به ﷺ إلا بقصد الموعظة ؟! .. أو ليست هذه القصة قد حدثت في عهد أمة سبقتنا ولم تحدث في عهده عليه السلام ؟ وهل نحن ملزمون بتشريع الأمم السابقة ؟ .. إننا لسنا ملزمين بذلك .. وإن كنت أعلم أن الناس في هذا الأمر أي في أمر تشريع الأمم السابقة ليسوا على مذهب واحد ولا يرون رأياً واحداً فيما إذا كان تشريع الأمم السابقة الذي لم يأت ما ينسخه في الكتاب أو السنة ولم يأت ما يأمر صراحة بالأخذ به .. هل نحن ملزمون بالعمل به أم لا ؟ وليس هذا هو موضوع حديثنا الآن .. ولكنني أقول انني لا

أرى في هذا الحديث ما يمت إلى التشريع بصلة أو الحكم على موضوع معين من رسول الله ﷺ . . . والحديث لا يخرج عن أن يكون قصة أوصى فيها الراهب تلميذه بألا يعترف عليه . . فاعترف الشاب تحت تأثير الفتنة والعذاب أمام الملك . . اعترف أنه أرسل ليتعلم السحر . . ولكنه آثر علم الراهب على علم الساحر . . ودل على الراهب ومكانه فذهب الراهب ضحية هذا الاعتراف فقتل . . ثم نرى أن رسول الله ﷺ لم يتعرض أو لم يأت بالحديث ما يفهم منه أنه تعرض لهذا العمل فوصفه بشيء معين . . أو أصدر حكمه على الغلام أو عمله بأية صورة من الصور . . ولكن الحديث تناول بعد ذلك عدة حوادث كان فيها الغلام مستجاب الدعوة عند ربه . . . وهل معنى هذا أن اعتراف الغلام لم ينقص من قدره عند ربه ؟ وما يدرينا لعله تاب توبة أرجعت له سابق منزلته بل وزادته عند ربه . . . نعم . . . لقد حاول الملك أن يقتل الغلام بعدة طرق حينما أصر على إيمانه بربه وكفره بذلك الملك . . لقد حاول أن يقتله ولكن دون جدوى . . فكان في كل مرة يعود إلى الملك سليماً معافى ويقص عليه أن الذين كانوا معه هم الذين قتلوا بالطريقة التي تخيرها الملك لمقتله . . وما ذلك إلا لأنه دعى ربه . . . وما يدرينا لعل الصورة التي تخيرها لنفسه دليل آخر على صدق توبته . . أعني صورة مقتله أمام الناس جميعاً وبأن يأخذ الملك سهماً من كنانته ويقول « بسم الله رب الغلام » .

ألم تكن هذه الطريقة سبباً في إيمان أهل هذا المكان بأسرهم وكفرهم بذلك الملك . . كانت سبباً في نصر دين الله وخذلان ما عليه الملك وأتباعه من كفر وضلال . . إذن وما عسانا أن نفعل وهذا أمر لا بد أن نعرف حكمه في الإسلام ؟ . .

إنني أستطيع القول أن شيئاً واحداً لا يختلف فيه اثنان هو أن إفشاء سر الجماعة تحت تأثير الفتنة انما هو خلاف الأولى . . والاسلام لا يحب من أتباعه دائماً إلا التطلع إلى الكمال . . فالرسول عليه السلام يقول « **المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف . . وفي كلٍّ خير** » . . القوي في إيمانه والقوي في كل شيء . . هذه هي الحقيقة التي لا يُختلف فيها .

وثمة حقيقة أخرى نستطيع استنباطها من روح القواعد العامة للإسلام وتعاليمه .. فالله تعالى يقول « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .. وحتى يثبت عكس ما نقول به بحجة من كتاب الله أو سنة رسول الله عليه السلام أو هدى أصحابه رضوان الله عليهم .. أقول إن الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ .. **ورسوله عليه السلام يقول : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**[٣] .. فاولئك الأسارى من المسلمين الذين يقعون تحت أيدي اعداء الله والأمة الاسلامية والذين يتذرعون بالصبر الشديد يواجهون به أساليب الفتنة والعذاب حتى لا يفشوا أسرار المسلمين إلى الحد الذي لم تستطع أجسادهم ولا نفوسهم أن تتحمل المزيد من ذلك .. فانهاروا وأملوا على العدو من الأسرار ما يضر جماعة المسلمين .. أولئك يشفع لهم هذان الإذنان المستقيان من الآية والحديث السابق ذكرهما وهما :

أولاً : أن الله لا يكلف نفساً إلا ما تطيقه وتستطيع تحمله .

ثانياً ـ أنه مرفوع عن كل مسلم الخطأ الذي وقع الإكراه بسبب ارتكاب ذنب في الحدود المسموح بها في ظل القواعد العامة للشريعة الغراء .

في كل هذا لا رقيب على المرء إلا ضميره .. هو الذي يستطيع الحكم ما إذا كان الإكراه الذي وقع عليه إلى الحد الذي لا تطيقه نفسه أم الأمر غير ذلك .. ومن فوق هذا الضمير ذلك الرقيب الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ .. فإن حدث تفريط أو إفراط فإن باب التوبة مفتوح للجميع .. ﴿ **قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ .. **وفيما روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى** يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

---

(١) رواه الطبراني كما رواه ابن ماجه في باب الطلاق ص ١٦ بلفظ آخر .

جـ - التآمر مع الأعداء ضد سلامة الدولة

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً[1] وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفُن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون * لا تقم فيهم أبداً لَمسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه[2] رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أَفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم * ﴾ (التوبة من ١٠٧ إلى ١١٠) .

كان أبو عامر الراهب زعيم الأوس . . وقيل انه كان من الخزرج فيما ذكره ابن كثير . . وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر . . **فلما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً قال له أبو عامر : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ . . فقال له : جئت بالحنيفية** . . دين ابراهيم . . . فقال له أبو عامر : فأنا عليها . . فقال له : إنك لست عليها . . فقال أبو عامر : بلى . . ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها . . **فقال له : ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية** . . فلما كان يوم بدر وعلت كلمة المسلمين لم يطق هذا الطاغية الصبر على الحقد الدفين فلحق بكفار قريش وقدم معهم في غزوة أحد . . وكان هذا الحقود قد حفر الحفائر بين الصفين فسقط رسول الله ﷺ في إحداها وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار وحاول استمالتهم نحوه ولكنهم سبّوه ونالوا منه وقالوا له « لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله » . . فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر . . ولقد توعد أبو عامر رسول الله ﷺ في ذلك

---

(١) وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم يخدج فبنوا مسجد النفاق . . فقال رسول الله ﷺ ليخدج : ويلك . . ما أردت إلى ما أرى . . . فقال : يا رسول الله ما أردت إلا الحسنى . . . فأنزل الله الآية .

(٢) وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء . . **﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾** . . قال : كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم .

اليوم قائلاً له : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم . . فلم يزل كذلك إلى يوم هوازن . . حتى إذا انهزموا فر هارباً إلى الشام فأرسل إلى جماعة من المنافقين يطالبهم بالاستعداد بما استطاعوا من القوة والسلاح واقترح عليهم بناء مسجد بجوار مسجد قباء . . وقباء هذه قرية تقع على ميلين من المدينة . . وكان عليه السلام وهو قادم من مكة مهاجراً إلى المدينة قد أقام بين أهلها من بني عمرو بن عوف ثلاثة أيام أسس فيه هذا المسجد الذي أطلق عليه اسم هذه القرية وعرف باسم مسجد قباء .

ثم سار بعد ذلك عليه السلام إلى المدينة وأسس بها مسجده المعروف . . . وكان[1] أبو عامر قد اقترح عليهم بناء هذا المسجد ليكون مقراً لحركتهم السرية ومنه تدبر المكائد وأمور الفتنة وإليه يفد رسل أبي عامر ويكون مرصداً له إذا قدم ومعه الجند الذين زعم أنه سيحضرهم معه . . فلقد زعم أنه ذاهب إلى قيصر ملك الروم ليأتي بجند من الروم ليخرج محمداً ﷺ وأصحابه .

وكان الذين بنوا هذا المسجد وأقاموه اثني عشر منافقاً هم :

خذام بن خالد من بني عمرو بن عوف وهو الذي اقتطع هذا المسجد من بيته . . وثعلبة بن حاطب ومعتب ابن قشير وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حنيف وجارية بن عامر وإبناه مجمع وزيد ونبتل ابن الحارث ويخرج من بني ضبيعة وبجاد بن عثمان ووديعة بن ثابت . . . وقد ذكر ابن هشام في سيرته أن هؤلاء هم الذين بنوا مسجد الضرار . . ولقد أقاموا مسجدهم وشيدوه وأخفوا مقاصدهم الدنيئة في صدورهم كما أخفوا نفاقهم وأرادوا أن يزيدوا في طمأنة المسلمين ويبالغوا في التمويه عليهم فذهبوا ليستأذنوه عليه السلام في أن يصلي

---

(١) وأخرج ابن مردويه عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : إن أناساً من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر ابتنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه . . فلما فرغوا من بناء مسجدهم أتوا النبي (ص) فقالوا له : لقد فرغنا من بناء مسجدنا ونحب أن تصلي فيه . . فأنزل الله ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ . . وأخرج الواحدي عن سعد بن أبي وقاص قال : إن المنافقين عرضوا بمسجد يبنونه يضاهون به مسجد قباء لأبن عامر الراهب إذا قدم ليكون إمامهم فيه فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله (ص) فقالوا إنا قد بنينا مسجداً نصلي فيه . . فنزلت ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ .

لهم فيه افتتاحاً وتبركاً .. وكان ذلك وهو يتجهز لتبوك .. وندع ابن اسحاق يحدثنا عن هذا الأمر .. قال :

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوانٍ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار .. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لنرى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. .**فقال: إني على جناح سفر وحال** شغل أو كما قالﷺ. . .ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه. . فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد (يقصد وهو عائد ﷺ من تبوك ذلك أن المنافقين كانت قد ظهرت أغراضهم السيئة ونواياهم الدنيئة فما كاد يبرح رسول الله ﷺ المدينة حتى أخذوا يصلون في مسجدهم ويضارون به مسجد قباء ويصرفون الناس عن الصلاة فيه إلى الصلاة في مسجدهم .فحدثت بين الناس فتنة وانقسموا على أنفسهم بسبب هذا المسجد .. فما كاد رسول الله ﷺيصل ذا اوان حتى جاءه أهل قباء يشكون إليه هذه الفتنة) .. فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال : **انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه** .. فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدهشم فقال مالك لمعن : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي .. فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه .. ونزل فيهم من القرآن ما نزل :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين . . . ﴾ إلى آخر القصة .

هذه قصة مسجد الضرار وهذه تفاصيل هذه المؤامرة الخسيسة التي دبرها عدو الله أبو عامر الراهب وعاونه فيها المنافقون .. غير أن الله كشف سرهم وهتك أستارهم وأطلع عباده على دنيء مؤامرتهم .

(٢) ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً * ﴾ (الأحزاب ١٤) .

والآية إنما نزلت في هؤلاء الذين جبنوا من المنافقين عند لقاء الأحزاب وذهبوا إلى المدينة محتجين بأن بيوتهم عورة[1] .. فيرد الله على هؤلاء بأنهم ضعاف الإيمان لا عقيدة لهم لأن الله يعلم أن العدو لو قدر له أن يدخل المدينة من جوانبها وأقطارها ثم سألهم المشركون الردة وحمل السلاح في وجوه المسلمين ما ترددوا لحظة وما تريثوا دقيقة واحدة .. وهذه هي الخيانة العظمى في أقصى صورها .. بل وفي أسوأ ما تكون الخيانة .

ولقد ذكر ابن حزم في كتابه « المحلى » كلاماً حول الآية التي تسبقها يوجب الرد والتعقيب .. وهذا ما قاله ابن حزم (وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا .. قال أبو محمد : وهذا أيضاً ممكن أن يقوله يهود وممكن أن يقوله أيضاً قوم مسلمون خوراً وجبناً .. وإذ كل ذلك ممكن فلا يجوز القطع من أجل هذه الآية على أن رسول الله ﷺ كان يعرف أنهم منافقون .. وأما قول الله تعالى « ويستأذن فريق منهم النبي » إلى قوله تعالى : ﴿ **وكان عهد الله مسئولاً** ﴾ .. فإن هذا قد روى أنه كان نزل في بني حارثة وبني سلمة وهم الأفاضل البدريون الأحديون ولكنها كانت وهله في استئذانهم النبي ﷺ يوم الخندق وقولهم « إن بيوتنا عورة » وفيهما نزلت ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليُّهما** » .. كما حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد حدثنا ابراهيم بن أحمد حدثنا الفربري حدثنا البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان بن عيينة قال عمر « سمعت جابر بن عبد الله يقول فينا نزلت ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ قال جابر : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة .. قال جابر : وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى : ﴿ **والله وليّهما** ﴾) .

أقول إنني لا أريد أن أحاجج ابن حزم في قوله إن رسول الله ﷺ كان لا يعلم المنافقين وإنما أريد أن أناقشه في الآية التي سبقت هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت طائفة** ﴾ .. فإن أبا محمد يقول إن هذا القول من الممكن

---

(١) قال ابن اسحق (وحتى قال أوس بن قيظى أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فانها خارج من المدينة فأقام رسول الله ﷺ وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر لم تكن بينهم حرب إلا الرقيا بالنبل والحِصاد) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٣ ص ٢٣٣ .

أن تقوله يهود كما يمكن أن تقوله فرقة من المسلمين خوراً وجبناً . . ولكن الذي أراه غير ذلك . . فهذه الآية متصلة بسابقتها التي وجه الخطاب فيها للمنافقين « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » . . فالضمير في الآية التي تلي هذه الآية وهي التي يتحدث عنها ابن حزم لا يمكن أن يكون إلا عائداً على كلمة « المنافقون » في هذه الآية . . ثم لماذا نفترض ابتداء المعنى ونقطع بذلك تسلسل الآيات وتدرج المعاني فيها ونقطع وحدتها وتماسكها .

وأنا أعجب لأبي محمد كيف يرجح أن هذا القرآن . . أعني من أول « ويستأذن فريق منهم » إلى قوله : ﴿ **وكان عهد الله مسئولاً** ﴾ إنما نزل في بني حارثة وبني سلمة وهم الأفاضل البدريون الأحديون . . وهل يكون مثل هؤلاء من السابقين الأولين ـ على ما ذكر ابن حزم ـ أنه نزل فيهم من الرغبة في الفرار . . ومن أنهم لو سئلوا الفتنة وهي الخيانة العظمى والانتكاص والارتداد عن دين الله لاستجابوا دون تردد . . ثم الخطاب في الآية رقم (١٥) إنما هو موجه لأقوام قد تعودوا الفرار من المعارك والهروب من القتال . . وهذه صفات كلها لا يليق أن يوصف بها أمثال هؤلاء . . أما ما ذكره من أن فيهما نزل قول الله تعالى ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ . . فهذا خاص بأمر رفض نداء ابن أبيّ وأصحابه لهم بالعودة يوم أحد بعد ما كادت قلوبهم أن تلين لذلك . . وفي هذا مفخرة لهم وداخل في نطاق قول الله تعالى ﴿ **إن الذين آمنوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ .

(٣) ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ولئن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون * لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى

(١) أخرج البخاري عن ابن عباس قال : سورة الأنفال نزلت في بدر وسورة الحشر نزلت في بني النضير

ذلك بأنهم قوم لا يعقلون * كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين * ﴾ الحشر من ١١ إلى ١٧)

قتل[١] السبعون جميعاً ـ أعني أصحاب بئر معونة ـ ولم يفلت منهم سوى عمرو بن أمية الصخري .. ذلك الصحابي الذي قتل رجلين من بني عامر كان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به .. قتلهما أثناء عودته إلى المدينة .. فلما أخبر رسول الله (ص) **بذلك قال** : « **لقد قتلت رجلين لأدينهما** » .. ثم توجه عليه السلام إلى حصون بني النضير وكانوا حلفاء بني عامر ليستعين بهم في دية هذين الرجلين فقالوا له : (نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه) .. ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ وكان رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه » .. فانتدب لذلك عمرو بن حجاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك .. فصعد ليلقي عليه الصخرة كما قال .. ولكن خبر السماء لم يكن ليمهلهم .. فرجع عليه السلام إلى المدينة .. وقد كان في نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم .. تفقدوه فلم يجدوه فخرجوا يطلبونه .. ودلهم عليه رجل كان قادماً من المدينة .. فأمر عليه السلام بالتهيؤ لحربهم وقتالهم .. وسار إليهم فتحصنوا بحصونهم فأمر بإحراق نخيلهم وتقطيعها إزعاجاً لهم .. فكانوا ينادونه عليه السلام : أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

ولقد نجم نفاق فئة من الخزرج على رأسهم عبد الله بن أبيّ ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد ودايس وجميعهم من الخزرج .. قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم .. إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أُخرجتم خرجنا معكم .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام

لقد اشرأبت أعناقهم إلى الفتنة فهمّوا بالتآمر على جماعة المسلمين . . غير أن الله ألقى في قلوبهم الرعب فلم يحركوا ساعداً لنصرة بني النضير . . وشاء الله أن تغلب بنو النضير على أمرها ويطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم وأن يجلوا وليس لهم من اموالهم إلا ما حملت إبلهم إلا السلاح ففعل عليه السلام .

وتلك الآيات التي تلوتها عليكم إنما جميعها في شأن هؤلاء المنافقين الذين همّوا بالخيانة العظمى . . وحاولوا شهر السيف مع أعداء الله في وجوه المسلمين . . ولكن الله خذلهم . . وثبطهم . . وألقى في قلوبهم رعباً ملأ قلوبهم جبناً وهلعاً .

من كل ما سبق ترون أن الخيانة بنوعيها إنما هي شعبة من شُعب النفاق . . غير أن الخيانة العظمى جريمة ليس بالهين أمرها . . إنما هي من الشعب التي تكفي وحدها لإثبات صفة النفاق وإلصاقها بشخص سولت له نفسه أن يرتكب إحدى الجرائم الثلاثة التي بينتها ووضحتها . . . وهل هنالك على وجه هذه البسيطة رجل أخطر من هذا الذي ساقته نفسه الخبيثة للعمل كجاسوس لحساب العدو . . أو أوقعه شيطانه في جريمة إفشاء سر الجماعة . . أو تخبط عقله في دياجير الخيبة والظلام . . . كل ذلك ليس إلا لإحكام خطة للتآمر مع عدو الله ضد سلامة الإسلام والمسلمين .

الشعبة العاشرة

الرّغبة عن حُكمِ اللهِ ورَسُوله

إن أمر المنافقين كله عجيب . . والذي أعجب كيف أن هؤلاء القوم يزعمون الإيمان . . ويظهرون الانتصار للدعوة . . حتى إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم . . تولوا على أعقابهم واستكبرت قلوبهم . . ورغبوا عن حكم الله ورسوله وآثروا تحكيم الكهنة . . أو فضلوا الاحتكام إلى أعداء الله من مشركين وكافرين . . تلك لعمري أعاجيب . . وهل في أمر المنافق شيء لا يدعو إلى

الدهشة والاستغراب ؟! لو كانوا يؤمنون بالله ورسوله لما رغبوا عن حكمهما ولما استنكفوا أن ينزلوا صاغرين على ذلك .. ولكن نطقت ألسنتهم كلمة الإيمان وأبت قلوبهم ذلك .. وما كانت أفعالهم وحركاتهم إلا لتكشف عما انطوت عليه هذه القلوب وعما أكنته هذه النفوس من حقد على الإسلام والمسلمين .. أجل .. وتلك آيات الله تعضد ما أقول .. وهذا كتاب الله خير شاهد على ما ارتكبوه من إثم وجريمة .. مهلاً .. مهلاً أيها المنافق .. لقد غررت الناس بعذوبة حديثك وموهت عليهم ببهاء طلعتك .. وضللتهم بإتقانك للدور الذي تمثله .. ولكن .. ثق أيها المنافق العريق في نفاقك .. يا من مردت على النفاق وأتقنت صناعته .. ثق أنك سوف تتحطم يوماً ما على الصخرة التي وضعتها عرض طريق المؤمنين لتعوق سيرهم .. وثق أن أمرك سوف ينكشف يوماً ما ولن تستطيع أن تتقن دورك إلى النهاية .. كن على يقين أن الله لا بد فاضحك لأنه جل شأنه تعهد بذلك .. وما كان لك أن تترك تحقد على المؤمنين وتبغضهم دون ذنب جنوه ولا جريرة ... وهل لك أيها المنافق أن تغدر بالمؤمنين وتنكص على عقبيك وتستهين بمواثيق الله وعهوده ؟ .. أم لك أن تكون مرائياً تبتغي الظهور وتطلب الإمارة وتبغي الرياسة وتتفانى في ذلك ؟.. كيف تفعل كل هذا ثم تريد ألا يفضح الله أمرك وألا يهتك مكنون سرك ؟.. ساء تفكيرك !.. وباءت بخزيٍ سريرتك !

إن الحديث عن النفاق والمنافقين لهو حديث عن القلاقل والآلام التي أصابت الاسلام والمسلمين .. وهل تنتظرون من المنافقين إلا كل شر ... ولكنه في الوقت نفسه حديث خير لأنه ينير السبيل أمام المؤمنين .. ويسد الطريق أمام تلك الذئاب الضارية ويقطع على تلك الأفاعي الخطرة سبيل إيذائها .. وذلك قول الله فيهم هو أبلغ وصف لهم وتوضيح لأحوالهم وما احتوته قلوبهم :

(١) ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد

الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مضيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * اولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً * ﴾
(النساء ٦٠ - ٦٤)

وقبل أن أتناول هذه الآيات تحليلاً وشرحاً فإنني أرى أن أذكر ما ورد في سبب نزولها وإن كانت الآيات تفيد العموم على الإطلاق لا التخصيص . . ولكن هذا لمجرد القاء ضوءٍ يُنير لنا سبيل فهمها .

قال ابن اسحق[1] : وكان جلاس بن سويد بن الصامت قبل توبته - فيما بلغني - ومصعب بن قشير ورافع بن زيد وبشر - وكانوا يدعون بالإسلام - فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ . . فدعوهم إلى الكهان حكام أهل الجاهلية . . فأنزل الله عز وجل فيهم : **﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون ﴾** الآيات إلى آخر القصة .

وروى أيضاً في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضي الله عنهما : (إن منافقاً خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب ابن الأشرف . . ثم إنهما احتكما إلى رسول الله (ص) فقضى لليهودي فلم يرض به المنافق فدعاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال اليهودي : قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق : أهكذا . . قال : نعم . . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما . . فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى بَرَد . . ثم قال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله . . فنزلت . . فهبط جبريل عليه السلام وقال

(١) اخرجه ابن ابي حاتم من طريق عكرمة أو سعيد عن ابن عباس مع اختلاق في اللفظ

إن عمر فرق بين الحق والباطل .. فقال رسول الله ﷺ : « أنت الفاروق » .. فالطاغوت كعب بن الأشرف سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ .. أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم إلى غير النبي ﷺ على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان ... وقال الضحاك : المراد بالطاغوت كهنة اليهود وسحرتهم .. وعن الشعبي أن المنافق دعا خصمه إلى كاهن في جهينة فتحاكما اليه) .

وثمة روايات أخرى كثيرة لا داعي لذكرها هنا .. والذي أريد أن أوضحه الآن مقاصد هذه الآيات :

أ ـ تفيد الآيتان ٦٠ ، ٦١ أن المنافقين إنما كانوا يؤثرون حكم الطاغوت (وهو كل باطل من الأمر) على حكم الله .. وأنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم صدوا وأعرضوا .

ب ـ أن المنافقين كانوا إذا ساقتهم المقادير إلى رسول الله ﷺ في مصائب ألمت بهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليه عليه السلام في ذلك كانوا يقسمون كذباً معتذرين أنهم ما أرادوا بهذا التحاكم إلى غير الرسول عليه السلام إلا الإحسان والتوفيق بأن يداروا أعداءه ويصانعوهم .. وما كان لهم أن يؤمنوا بصحة حكم هؤلاء بينهم وهذا ما يستفاد من الآية رقم ٦٢ .

جـ ـ نستخلص من الآية رقم ٦٣ أمر الله تبارك وتعالى رسوله عليه السلام بالإعراض عن هؤلاء المنافقين لأنه يعلم ما احتوت عليه قلوبهم من النفاق والكذب .. ثم دعاه لأن يعظهم وينصحهم فيما بينه عليه السلام وبينهم بكلام بليغ رادع .

د ـ ومن الآية رقم ٦٤ نرى أن الله يأمر أمراً صريحاً بطاعة رسوله عليه السلام واحترام ما يحكم به لأنه انما يحكم بشرع الله وقانونه .. ثم يطالب المنافقين بالتوبة والاستغفار .. ثم يذكرهم بأن الله إنما يتوب على من صدق في توبته ويرحم الذين يتنكبون طريقه ولكن بعد أن يقروا بخطئهم ويتوبوا عن ذلك توبة فيها إقرار وندم .

وقد ذكر ابن حزم في كتابه « المحلى » معلقاً على الآيات من ٦٠ إلى ٦٥ يقول (فقد صح أن ها هنا نفاقاً لا يكون صاحبه كافراً . . فيمكن أن يكون هؤلاء الذين أرادوا التحاكم إلى الطاغوت لا إلى النبي ﷺ مظهرين لطاعة رسول الله (ص) عصاة بطلب الرجوع في الحكم إلى غيره معتقدين لصحة ذلك . . لكن رغبة في اتباع الهوى فلم يكونوا بذلك كفاراً بل عصاة . . فنحن نجد هذا عياناً عندنا . . فقد ندعو نحن عند الحاكم إلى القرآن وإلى سنة رسول الله ﷺ الثابت عنهم بإقرارهم فيأبون ذلك ويرضون برأي أبي حنيفة ومالك والشافعي . . هذا أمر لا ينكره أحد فلا يكونون بذلك كفاراً . . فقد يكون اولئك هكذا حتى إذا بين الله تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم وجب أن من وقف على هذا قديماً وحديثاً وإلى يوم القيامة فأبى وعَنَدَ فهو كافر) . . انتهى .

(٣) ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً * ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً * ﴾ (النساء ٦٥ ٦٦)

لقد[١] روى أن هاتين الآيتين إنما نزلتا في شأن المنافق واليهودي اللذين سبق أن ذكرت قصتهما في سبب نزول الآيات السابقة غير أن **الإمام البخاري رضي الله عنه أورد في صحيحه في كتاب التفسير رواية أخرى أذكرها لكم :**

قال[٢] البخاري : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر حدثنا معمر عن الزهري عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة فقال النبي ﷺ « إسق يا زبير ثم ارسل الماء إلى جارك » . . فقال الأنصاري : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ . . فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال : إسق يا

---

(١) ذكر ذلك في تفسيري البيضاوي وأبي السعود .

(٢) هكذا رواه البخاري في كتاب التفسير في صحيحه من حديث معمر . . وفي كتاب الشرب من حديث ابن جموح ومعمر أيضاً . . وفي كتاب الصلح من حديث شعيب بن أبي حمزة ثلاثتهم عن الزهري عن عروة فذكره . . وصورته صورة الإرسال وهو متصل في المعنى . . وأخرجه الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير .

زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدرِ ثم ارسل الماء إلى جارك فاستدعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة .. قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ... ﴾ الآية .. هكذا رواه البخاري .

وزادت[١] بعض الروايات « ثم خرجا فمرا على المقداد بن الأسود فقال لمن القضاء فقال الأنصاري قضى لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودي كان مع المقداد فقال : قاتل الله هؤلاء .. يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه في قضاء يقضي بينهم .. وأيم الله لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا .. فقال ثابت قيس بن شماس : أما والله إن الله ليعلم مني الصدق لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها .. وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر رضي الله عنهم فقال رسول الله ﷺ « **والذي نفسي بيده** إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي .. فنزلت في شأن هؤلاء ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم** ﴾ الآية[٢] .

ونستخلص من هاتين الآيتين حقيقتين :

أ ـ أنه سواء صحت الرواية الأولى أم الثانية فإن الله تعالى قد نفى صفة الإيمان عن الذين يرغبون عن حكم الله ورسوله .. وأكد ذلك سبحانه وتعالى بقسم وكأنه جلت قدرته يريد أن يقول ﴿ **فلا وربك** ﴾ (**فوربك ولا هنا زائدة**) ﴿ **لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ يقسم بذاته المنزهة أنهم لن يكونوا مؤمنين حتى يرضوا حكم الله وينزلوا على حكم رسوله .

ب ـ أما الآية الثانية فإنه جلت قدرته يقرر حقيقة يعلمها هو سابق علمه أنه لو فُرض عليهم كما فرض على بني إسرائيل من قبل أن يقتلوا أنفسهم استتابة وإنابة إلى الله .. أو أن يخرجوا من ديارهم ما فعل ذلك عن إيمان وطاعة إلا

---

(١) راجع تفسير أبي السعود .

(٢) يرجع إلى تفسيري ابي السعود والبيضاوي .

قليل وهم المؤمنون . . أما المنافقون فلن يقبلوا هذا ولن ينفذوه لأنهم لن تسمح لهم نفوسهم الشريرة أن ينزلوا على حكم الله ورسوله كما فعلوا من قبل .

(٣) ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * ﴾ (النور ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠) .

وذكرت[١] روايات في سبب نزول هذه الآيات الثلاث والآية التي قبلها رقم ٤٧ **﴿ يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾** . ذكر أنها نزلت في بشر المنافق خاصَمَ يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى رسول الله ﷺ . . وقيل في مغيرة بن وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرضٍ فأبى أن يحاكمه إلى الرسول ﷺ . . وعلى كلٍّ فإنها نزلت في المنافقين عامة يفعلون هذا الفعل ويقدمون على ارتكاب هذا الإثم . . والذي نستخلصه من هذه الآيات يمكن تلخيصه في النقط الآتية :

أ ـ أن المنافقين ما كان لهم أن يرضوا بحكم الله ورسوله .

ب[٢] ـ أن الحق إذا كان معهم أتوا إلى رسول الله ﷺ لعلمهم أنه سيحكم لهم . . أما إذا كان العكس ذهبوا يبحثون عن غيره ليروجوا باطلهم رغبة في الظلم والجور .

---

(١) وأخرج ابن جرير عن السدي قال : لما نزلت **﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾** افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي : والله لقد كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم فقتلنا أنفسنا . . فقال ثابت : والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا . . فأنزل الله **﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾** .

(٢) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض وقال : انطلق إلى فلان . . فأنزل الله هذه الآية . . فقال النبي ﷺ « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعى إلى حكم من أحكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لا حق له » . . وهذا حديث غريب وهو مرسل .

جـ - ثم يتساءل الله تعالى وهو الأعلم جلت قدرته بحقيقتهم ولكن يتساءل للتقريع والتوبيخ .

يتساءل أفي قلوبهم مرض بأن لازمها الشك في الدين وعدم الإيمان بالله وبرسوله أم رأوا من الرسول عليه السلام انحرافاً ففقدوا فيه الثقة . . أم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم . . ثم يرد الله تعالى بقوله : **﴿ بل اولئك هم الظالمون ﴾** . . بل هم الظالمون الفاجرون . . والله ورسوله مبرآن مما يظنون من تلك المعاني التي لا تليق بهما .

من هذه الأمثلة التي سقتها نستطيع التيقن أن الرغبة عن حكم الله ورسوله شعبة من شعب النفاق لأنه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يرغب عن حكم الله ورسوله رجل مؤمن . . أو يدعى للاحتكام إلى شريعة الله وسنة رسوله ثم يعرض عن ذلك . . إن الذين يصدون عن حكم الله ورسوله ويعرضون عن ذلك لا يمكن أن يكونوا إلا منافقين ولا بد أن تكون قلوبهم قد ملئت بغضاً وحقداً للإسلام والمسلمين . . وما كان لهذه القلوب التي تعرض عن الله ورسوله وتنأى عن حكمهما وتتعالى في ذلك إلا أن تكون قلوباً قد عمرها النفاق بل آكل منها الأخضر واليابس . . وأجهز على بقايا الخير فيها إن كان فيها خير . . وهيهات هيهات أن تحوي قلوب المنافقين خيراً . . وهل كان لهذه القلوب إلا أن تكون شريرة عريقة في الشر جبلت عليه ولا تفكر في شيء سواه .

الشعبة الحادية عشرة

مُظَاهَرة (مصانعة) أعداء الله

(١) **﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * ﴾ (النساء ١٣٨ ، ١٣٩) .**

هؤلاء المنافقون الذين كان يقول بعضهم لبعض : « لا ينموا أمر محمد

فتولوا اليهود » فكانوا يصانعون اليهود ليأمنوا جانبهم إذا ما كانت الدائرة على المسلمين . . وما ذلك إلا خشية على أموالهم وأولادهم . . ولذلك فإن الله تعالى يقرعهم على ذلك بقوله ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ . . ثم يرد على ذلك توبيخاً لهم وتقريعاً وتسفيهاً لعقولهم ﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾ ولهذا وغيره قال تعالى :

(٢) ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ (المائدة ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .

كان بين بني قينقاع وبين رسول الله ﷺ عهد « فنقضته هذه الطائفة من اليهود . . ذلك أن امرأة من العرب قدمت إلى سوق بني قينقاع لتبيع شيئاً به « وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت . . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها . . فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت . . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً . . وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود . . فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع » (من كلام ابن هشام)

وندع ابن اسحاق يحدثنا عن سبب نزول هذه الآيات :

قال ابن اسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة . . قال :

« فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . . فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد أحسن في مواليّ . . وكانوا حلفاء الخزرج . . قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن في مواليّ . . قال : فأعرض عنه . . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ . . (قال ابن هشام : وكان يقال لها ذات الفضول) . . فقال له رسول الله

ﷺ : أرسلني . . . وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً (وهي السحابة أصلاً فاستعارها هنا لتغير الوجه إلى السواد إذا أشتد غضبه) . . ثم قال : ويحك . . أرسلني . . . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ . . أربع مائة حاسر (الذي لا درع له) وثلاثمائة دارع (الذي عليه درع) قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة . . إني والله امرؤ أخشى الدوائر . . . قال : فقال رسول الله ﷺ : هم لك » .

وقال[1] ابن اسحاق أيضاً : حدثني أبي اسحاق بن يسار بن عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت فقال : « لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم . . . قال : ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبيّ فخلصهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله (ص) من حلفهم وقال : يا رسول الله أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم . . قال : ففيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت هذه القصة من المائدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي لعبد الله بن أبيّ وقوله : إني أخشى الدوائر ﴿ **يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ ثم القصة إلى قوله تعالى ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ (أي الآيات ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من سورة المائدة) ـ وذكر لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا وتبرُّئه من بني قنيقاع وحلفهم وولايتهم : ﴿ **ومن يَتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ .

وما رواه ابن اسحاق في سبب نزول هذه الآيات وما سرده في أمر بني

---

(١) وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن عبادة بن الصامت .

قينقاع ليوضح لنا كيف أن هؤلاء المنافقين وأشياعهم كانوا يتشيعون لليهود وهم أعداء الله ويصانعونهم ولقد اشتملت الآيات الثلاث التي ذكرتها على المعاني الآتية :

أولاً : النهي المطلق عن مصانعة اليهود والنصارى .

ثانياً ـ الإخبار عن تشبث المنافقين بمصانعتهم وموالاتهم خوراً ورغبة في النصر وتقية .

ثالثاً : تعجب المؤمنين من كذب المنافقين وحلفهم زوراً وبهتاناً أنهم مؤمنون ومع ذلك فهم يناصرون اليهود ويؤازرونهم في كل شيء .

(٣) ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم** * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * ﴾ (محمد ٢٥ ، ٢٦) .

أولئك الذين ارتدوا على أدبارهم بعد الأيمان والهدى وذلك بقولهم لليهود : « سنطيعكم في بعض الأمر » ليسوا إلا ممالئين لهم ويناصحونهم في الباطن على الباطل ويظهرون للمؤمنين إيمانهم .. ولذلك يقول تعالى : ﴿ **والله يعلم إسرارهم** ﴾ .. والله تعالى يعلم ما كتموه في قلوبهم من مصانعة لليهود وحب لهم وتعاون معهم واتحاد معهم ضد المؤمنين .

(٤) ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** * ﴾ (المجادلة ١٤) .

وهذه الآية تبين كيف أن المنافقين كانوا يتولون اليهود ثم يصفهم الله تعالى بقوله ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾ .. والحقيقة أنهم مذبذبون يصانعون الطرفين لأنهم من ذوي الوجهين .. ثم يأتون عقب كل جريمة يرتكبونها ويقسمون بالله مؤكدين إيمانهم ومبرهنين للمسلمين على حبهم لهم ورغبتهم في مناصرتهم ومؤازرتهم .

هذه الأدلة سقتها لكم لأبيِّن كيف أن هؤلاء القوم كانوا يصانعون اعداء الله .. ولعمري ذلك هو عين النفاق .. وشر الخصال .

الشعبة الثانية عشرة

الانشغال بالدنيا عن الجهاد [1]

حينما يدعو نفير الجهاد وينادي المنادي للقتال والكفاح . . تسارع النفوس المؤمنة رغبة في لقاء ربها . . تاركة الأموال والأبناء . . راغبة في التضحية بكل شيء . . ولكن هنالك أقوام تلهيهم الفانية على الباقية ويعطلهم الانشغال بالأهل والأولاد . . يغريهم الظل الوارف والثمر الناضج والماء الزلال والفرش الوثير . . كل هذه الأمور إنما تهيء لهذه النفوس المريضة ولتلك الأفئدة الخاوية من كل شيء اللهم إلا الرجس . . وتزين لأصحاب العقائد الضعيفة البقاء للتمتع بهذه اللذات الفانية والتزود من هذه المتع التافهة . . يغريهم كل هذا ليتقاعدوا مع الخوالف وليركنوا بجوار النساء . . رضوا بهذا العار في سبيل الحصول على متعهم الدنيئة وتحملوا هذه الآثام من أجل إرضاء شهواتهم الخسيسة . . ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ . . وهل يعيشون إلا كما تعيش الأنعام لا غاية يهدفون إليها اللهم إلا الطعام والشراب . . ولا هدف ييممون وجوههم شطره اللهم إلا إرضاء شهواتهم . . وهل للأنعام غاية غير ذلك . . وهل للبهائم هدف غير هذا ؟! . . يا لتفاهة العقول ! . . ويا لقصور التفكير ! . . أولئك الذين عجزت عقولهم عن فهم الحقيقة العليا للحياة . . تضاءلت نفوسهم عن فهم السر الحقيقي للسعادة والرفاهية . . .

ولقد وردت عدة آيات تعيب على المنافقين ذلك . . وإليكم بيانها :

(١) ﴿ **ولئن قتلتم في سبيل الله أو مُتّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ (آل عمران ١٥٧) لقد جاءت هذه الآية رداً على ابن سلول ومن معه من المنافقين حينما تقاعدوا بل تخاذلوا عن رسول الله ﷺ والسير معه إلى القتال . . ثم عابوا على الذين استشهدوا طاعتهم لرسول الله ﷺ وخروجهم معه قائلين « لو أطاعونا ما قتلوا » فجاءت هذه الآية تبكتهم على هذا الاعتقاد الفاسد ثم تخاطب المؤمنين ﴿ **ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ . . . فلقد أغرى المنافقين حطام الدنيا وتكالبهم عليه . . لقد أغرتهم

ثمارهم وزروعهم وما يملكون من الأموال . . وشغلهم كل هذا عن الجهاد . . ومنعتهم خشيتهم من الموت أو القتل أن يخرجوا مع المؤمنين . . لقد عز عليهم أن يموتوا فيفارقوا هذه الأنعام من إبل وأغنام وبقر وخيول . . كل ذلك قد صرفهم عن الجهاد . . ثم لا يمنعهم هذا الصغار ولا يمنعهم جبنهم . . . ولا يمنعهم ملازمتهم النساء . . لا يمنعهم كل هذا مما هو مدعاة للعار والشنار من أن يعيبوا على المؤمنين طاعتهم لله ورسوله . . لأنهم حسبوا أن القتل في سبيل الله خسارة وأن مفارقة الأموال والأولاد مدعاة للحسرة والندم . . . ولذلك يقول الله تبارك وتعالى ما معناه لعباده سواء متّم أم قتلتم في سبيل الله فإن مغفرة الله ورحمته خير مما يجمع هؤلاء المنافقون من الأموال وما يتكالبون عليه من الحطام الفاني .

(٢) ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً * ﴾ (الأحزاب ١٨) .

لقد سبق أن تحدثت عن هذه الآية كمثال من أمثلة تعويق المنافقين للمؤمنين وتثبيطهم أو محاولة ذلك طمعاً في اغرائهم على عدم الخروج مع رسول الله ﷺ . . ولقد ورد في هذه الآية صورة من صور الفتنة والتي تتضح في قوله تعالى **﴿ والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ﴾** . . لقد كانوا يغرونهم بشتى سبل الرفاهية محاولة شغلهم بذلك عن الجهاد كما انشغلوا هم وكما استهوتهم كل هذه المظاهر فآثروا التخلف عن الرسول عليه السلام فباءوا بالخيبة والندامة . . لقد عز عليهم أن يقعوا في الاثم وحدهم فأبى عليهم شيطانهم إلا إيقاع الآخرين في هذه الآثام التي وقعوا فيها .

(٣) ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * ﴾ (الفتح ١١) .

ذلك الاحتجاج الذي احتجت به بعض قبائل الأعراب من أنهم شغلوا بأموالهم وأهليهم عن الجهاد في سبيل الله **﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾**

وإن كان الله تبارك وتعالى قد كذبه وخطأه وأخبر بأنه محض اختلاق . . إلا أن هذا الاحتجاج غريب في نوعه . . غريب في كل شيء . . والأغرب منه . . كيف أن هؤلاء يستسيغون لانفسهم ذلك . . أليس للمسلمين جميعاً أهل وأولاد ؟ أليس الجميع في حاجة إلى الإرتزاق والتكسب والعمل لإطعام نفسه وأهله وأولاده ؟ . . فالناس جميعاً لهم أهل . . والناس جميعاً لهم أموال . . قلَّ ذلك أو كثر . . فكل امرىء تشغله أمور حياته .. أمعنى ذلك ألا يكون هناك جهاد ؟ وهل يكون نتيجة لذلك ألا يكون الكفاح وألا تكون التضحية ؟ . . حدثوني بربكم أي عقول تافهة هذه التي حوتها رءوس المنافقين ؟ . . ما أحقر هذه العقول ! وما أضعف تفكيرها ! . . أليس هذا هو العذر الذي هو أقبح من الذنب ؟! .

حقاً . . إن الناس جميعاً لهم أموال ولهم أولاد . . وإنهم ليهمهم تدبير شئونهم وتصريف أمورهم غير أن المؤمنين لن تشغلهم أموالهم ولا أهلوهم عن الجهاد في سبيل الله وتأدية ضريبة الدم من أجل العقيدة وفي سبيل المبدأ . . ولكن هنالك أقواماً إذا دعى داعي الجهاد لن تجدهم قد شغلوا في إعداد أنفسهم لتلبية النفير . . لن يشغلهم إعداد الراحلة ولا تجهيز السلاح . . ولا أن يهيئوا الطعام . . . لن يشغلهم كل هذا عن هذه الصغائر والتفكير فيها !! . . ولكنهم في واد آخر قد شغلوا بشيء هو عند أنفسهم أعظم . . لقد شغلهم التفكير في انتحال المعاذير وابتكار الأعذار . . لقد شغلهم التفكير فيها وفي مدى ملاءمتها . . وهل هي ستحوز القبول أم لا ؟ . وهل في استطاعتهم أن يموهوا بها على المسلمين ويبهروهم بقوة حججهم فيستبيحوا لهم الأعذار . . أجل . . لقد شغلهم كل هذا لكي يفوزوا بشيء واحد . . لقد شغلوا بالقعود عن الخروج . . وشغلوا بالتخلف وراحته عن المسير إلى القتال ومثوبته . . نعم لقد شغلهم كل هذا عن السير في ركاب الرسول عليه السلام والمجاهدة معه . . فأخذوا ينتحلون الأعذار . . وما لهم لا يقولون ﴿ **شغلتنا أموالنا وأهلونا** ﴾ ؟ . . وما الذي يمنعهم من ذلك ؟!

أجل . . إن المنافقين خليقة أمرها كله عجب . . لقد نسوا أن في الأرض أبالسة وشياطين . . فتطوعوا هم قياماً بأفعال هؤلاء وإفسادهم . . وأيم الله لو لم يكن في الأرض أبالسة وشياطين لكان المنافقون هم شياطينها وأبالستها !!

الشعبة الثالثة عشرة

عدم الصبر على الفتن والنكبات

أو التزعزع أمام الفتن والنكبات

(١) ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين * يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضَرُّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير * ﴾ (الحج ١١ ، ١٢ ، ١٣)

(٢) ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ (العنكبوت ١٠ ، ١١) .

ولقد مرت علينا هذه الآيات عند حديثي عن الردة . . والآيات الأولى إنما حملت من المعاني ما يدل على أن هؤلاء المنافقين كانوا إذا أصابتهم السراء استبشروا وفرحوا . . وإن وقع بهم ضرٌّ تشاءموا بالدعوة وأصحابها وانقلبوا على وجوههم . . وهذا المعنى إن دل على شيء فإنما يدل على أن هؤلاء ما كانوا ليصبروا أمام النكبات أو يثبتوا عند الشدائد .

أما آيتا سورة العنكبوت فإنها تدل على أن هؤلاء المنافقين لا طاقة لهم على تحمل الأذى في سبيل عقيدتهم أو الصبر على الفتن والشدائد **﴿ فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾**

وهاتان الصورتان اللتان وضحتا في آيات سورة الحج وآيتي سورة العنكبوت إن دلتا على شيء فإنما تدلان على ضعف إيمان هؤلاء وعدم صبرهم على الفتن والنكبات . . وتزعزعهم أمام العواصف والأهوال . . ولعمري ليس هذا إلا لضعف قوة الاحتمال وخور العقيدة اللذين يستحيل معهما وجود الايمان . . .وليس هذا إلا خلق المنافقين وصفاتهم .

الشعبة الرابعة عشرة

الإفساد في الأرض

(١) « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ (البقرة ٢٠٥)

وفي هذه الآية يبين الله تبارك وتعالى ما انطوت عليه نفوسهم من حب للشر ورغبة في الإفساد . . فقال تعالى ﴿وإذا تولى﴾ أي أدبر عنك وانصرف بعد أن يؤكد إيمانه ويقسم على إخلاصه . . أو إذا ولاه الله بعض الأمر ﴿**سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**﴾ . . كما فعله الأخنس بن شريق الثقفي . . إذ بيت ثقيف وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم . . أو كما فعل ولاة السوء من الظلم والتعسف وحب الشر والتقتيل والإتلاف . . . ومن هذه الآية نتبين أن من صفات المنافقين الإفساد في الأرض

(٢) ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم *﴾ ﴿محمد ٢٢)

هذه الآية تسوق صورة من صور التقريع جاءت في صيغة الاستفهام للمبالغة . . وزيادة في التبكيت . . لقد جاءت تسائل المنافقين مؤكدة أنهم إذا تولوا أمور الناس أو كان لهم بعض ذلك فهل يسعون إلا إلى الفساد في الأرض وتقطيع الأرحام ؟ . . فالمنافقون لا هم لهم إلا الظلم والسعي إلى الشر والرغبة الشديدة في الإفساد .

فمن الآيتين اللتين سقتهما لكم نتبين أن الإفساد في الأرض هي شعبة من شعب النفاق وصفة من صفات المنافقين .

الشعبة الخامسة عشرة

مفارقة الجماعة

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ﴾ (النور ٦٣) .

وهذه الآية إنما هي موجهة لهؤلاء الذين كانوا يتسللون خفية من الجماعة بغير إذن رسول الله ﷺ . . ولذا فإن قوله تعالى ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ يفيد ألا يقاس دعاؤه عليه السلام إياهم ونداؤه لهم على دعاء بعضهم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن . . فإن المبادرة إلى إجابته واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة . . ولقد ذكر عن مقاتل بن حيان في قوله تعالى ﴿ **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً** ﴾ أنه قال : « هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ويعني بالحديث الخطبة فيلوذون أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد وكان لا يصح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته » . . والآية كما أرى أعم وأوسع وإنما تشمل أولئك الذين كانوا يتخلفون عن رسول الله ﷺ إذا كان في جماعة بدون اذنه وينسحبون من جماعته متسللين لواذاً . . ولقد قال السدي : « كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم » .

والذي اعتقده بل وأجزم به أن الآية وإن كانت موجهة خصيصاً لمن ينفضّون عن جماعة فيها رسول الله ﷺ إلا أنها تحتمل أيضاً أولئك الذين ينفضون عن جماعة فيها من ينوب عن رسول الله ﷺ من إمام . . . وغيره . . والجماعة المعنية هي أي جماعة خاصة بالمسلمين سواء كانت لأمور تعبدية أو تشريعية أو سياسية لخير المسلمين وصالحهم . . والذي يؤكد أن الآية تفيد شمول الانفضاض من أي جماعة كان نوعها الآية التي قبلها :

(١) ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع

---

(١) أخرج ابن اسحاق والبيهقي في « الدلائل » عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا : لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة قائدها ابو سفيان . . وأقبلت قطفان حتى نزلوا بنعمى إلى جانب أحد . . وجاء رسول الله (ص) الخبر فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه وعمل المسلمون فيه وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم من غير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن . . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له . . وإذا قضى حاجته رجع فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع . . . . إلى قوله : والله بكل شيء عليم** ﴾ .

لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

الذين كانوا معه على أمر جامع كصلاة جمعة أو عيد جماعة أو اجتماع مشورة أو اجتماع لحرب أو إجماع رأي على أي شيء .

من ثم نجد أنه من الواضح أن مفارقة الجماعة هذا أمر وصف به المنافقون وما أكثر الحوادث التي تخلفوا فيها عن الجماعة وأحدثوا الفرقة والشقاق بين صفوف المسلمين . . أو كادوا أن يفعلوا ذلك . . فليست « مفارقة الجماعة » إلا شعبة من شعب النفاق وخلة من خلله وفرعاً من فروعه .

الشعبة السادسة عشرة

إحداث الفتن في صفوف المسلمين

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ﴾ (التوبة ٤٧ ، ٤٨) .

قال محمد ابن اسحاق : كان الذين استأذنوا فيها بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أبي ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم إن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده . . وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيها يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال « وفيكم سماعون لهم » . . هؤلاء المنافقون الذين لا يخرجون إلا لإحداث الفتن بين صفوف المسلمين وإشعال نار الفرقة والانقسام . . ولذلك يقول تعالى ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾ . . ذلك أنهم حاولوا قبل ذلك مراراً إشعال الفتن وإيجاد الضغائن والأحقاد كما فعل ابن أبيّ في غزوة أحد حيث أحدث في صفوف المسلمين الانقسام ورجع بثلث الجيش . . وكما حاول في غزوة بني المصطلق من خلق فتنة كبيرة بين المهاجرين والأنصار . . ولو وجد آذاناً

صاغية وقلوباً ضعيفة لكانت الحرب القاسية المريرة بين هؤلاء الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ . . بين المهاجرين والأنصار . . ولكن الله سلم . . وأراد الله أن يرد ابن أبيّ خائباً مذموماً مدحوراً ولم ينل بغيته من قتل الدعوة في مهدها . . ولم يصل إلى غايته من الكيد لرسول الله ﷺ وصحابته . . وإننا لنحس من التعبير الدقيق في قوله تعالى ﴿ **وقلبوا لك الأمور** ﴾ كيف أن هؤلاء القوم كانوا يجهدون أنفسهم في خلق الفتن وإحداث القلاقل . . ولكن في كل مرة كان يأتي نصر الله وتعلو كلمته . . وترتفع راية الحق رغم أنوفهم وهم كارهون لذلك « حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » . . . وواضح جداً من هذه الآيات أن هؤلاء المنافقين إنما كان نهجهم إحداث الفتن والقلاقل في صفوف المسلمين وخلق الاضطرابات وإحداث الشغب بين المهاجرين والأنصار ليفرقوا الكلمة ويشتتوا القوة .

الشعبة السابعة عشرة
تربص الدوائر بالمسلمين

(١) ﴿ **إن[١] تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون** * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * ﴾ (التوبة ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) .

نستخلص من هذه الآيات المعاني التالية :

أولاً ـ أن المنافقين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين . . ويتمنون وقوع المصائب بهم ونزول الكوارث عليهم حتى أنهم كانوا يحزنون إذا أصابتهم حسنة أو فضل من الله . . وكانوا يفرحون إذا أصابتهم مصيبة . . ويتربصون ذلك بهم ويسرون له.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي (ص) أخبار السوء يقولون « إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا » فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي (ص) وأصحابه فساءهم فأنزل الله ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم . . ﴾ الآية .

ثانياً ـ يرد الله تعالى مسرياً عن المؤمنين وموبخاً المنافقين بقوله تعالى ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنين** ﴾ أي هو ناصرنا والمتولي لأمورنا وعليه وحده يتوكل المؤمنون ويفوضون أمرهم إليه .

ثالثاً ـ ثم يرد على هذه الأماني الخبيثة للمنافقين بقوله تعالى ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ .. أي ماذا تنتظرون لنا غير النصر أو الشهادة وكلاهما خير لنا : ﴿ **ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا** ﴾ ونحن نتربص بكم أحد الأمرين : إما عذاب الله وهلاكه كما أهلك الأمم التي قبلكم .. أو أن تعذبوا بأيدينا وهو القتل على الكفر .. ﴿ **فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾ .. فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ونحن نتربص بكم عاقبتكم ولن يكون إلا ما يسرنا ولن يكون إلا ما يحزنكم .

(٢) ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ (التوبة ٩٨) .

هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ **ويتربص بكم الدوائر** ﴾ أي أن هؤلاء إنما كانوا ينتظرون نزول الكوارث بالمؤمنين ووقوع المصائب بهم ... هؤلاء إنما يقول الله تعالى فيهم ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي هي منعكسة عليهم .. والسوء دائر عليهم .. ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ والله سميع بدعاء عباده يعلم من يستحقه النصر ممن يستحقه الخذلان .

من كل هذا يتبين لنا كيف أن هؤلاء المنافقين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ويتمنون لهم كل شر وهلاك .

الشعبة الثامنة عشرة
التخلف عن الجهاد

إنني حينما أتحدث عن التخلف عن الجهاد لست أعني أولئك الذين يتخلفون لعذر شرعي والذين جاء حصرهم في قوله تعالى ﴿ **ليس على الضعفاء**

ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ (التوبة ٩١ ، ٩٢) .. وإنما أعني هؤلاء الذين يتخلفون ولا عذر لهم ويفرون من الجهاد لأن نفوسهم تشتهي ذلك وتريده حرصاً على حياتهم وجبناً .. أعني أولئك الذين قال الله فيهم ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ (التوبة ٩٣) .

(١) ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا[1] الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * ﴾ (التوبة من ٤٢ إلى ٤٩) .

وهذه الآيات كلها تتحدث عن الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين وإليكم تحليلها :

أولاً - يقول تعالى عن هؤلاء الذين تخلفوا أنهم ما تخلفوا إلا لأنهم لم يتوقعوا سفراً قصيراً ولا غنيمة قريبة .. ولكنهم استبعدوا الخروج إلى الشام لما فيه من مشقة وما يتوقعونه من شدة الأعداء .

---

(١) أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : « إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى » فأنزل الله « عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم ... الآية » .

ثانياً ـ يتضح أنهم كانوا يقسمون للنبي أن لديهم أعذاراً . . والحقيقة أنه لم يكن لديهم ما يمنعهم من التخلف . . وكان الرسول عليه السلام يأذن لهم .

ثالثاً ـ بدأ الله تعالى في الآية الثانية بالعفو قبل العتاب لإذنه (ص) لهم دون أعذار قوية تبيح لهم ذلك لأنه قيل أنها نزلت في أناس قالوا « استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا » .

رابعاً ـ ثم يبين أن المؤمنين لا يستأذنون لكي يتخلفوا عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم

خامساً ـ أن الذين يستأذنون في التخلف عن الجهاد هؤلاء أقوام لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . .

وشكت قلوبهم في دين الله فهم في هذا الشك يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى .

سادساً ـ ثم يقول تعالى أن هؤلاء المنافقين لو عزموا على الخروج لأعدوا أنفسهم لذلك ولكن كره الله خروجهم فقدر لهم التثبيط والتأخير وقدر لهم القعود بالمدينة .

سابعاً ـ ثم بين الله تعالى أن سبب ذلك أنهم لو خرجوا في عسكر المسلمين ما زادوهم إلا شراً وفساداً ولسعوا بينهم يبغونهم الفتنة كما حدث من قبل حينما قسم ابن سلول عسكر المسلمين إلى قسمين ورجع بثلث الجيش . . وكما حدث في غزوة بني المصطلق حينما همّ بإيقاع الفتنة بين المهاجرين والأنصار . . ولكن كتب الله له الفشل وقدر لعباده النصر عقب كل محنة رغم أنف المنافقين وهم كارهون لذلك . . لهذه الأسباب مجتمعة قدر الله لهؤلاء المنافقين أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ .

(٢) ﴿ فرح[1] المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن

---

(١) أ ـ أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أمر رسول الله (ص) الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال : يا رسول الله الحر شديد ولا تستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فأنزل الله **﴿ قل نار جهنم**

يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون * ﴾ (التوبة ٨١ ، ٨٢).

وفي هاتين الآيتين صورة عجيبة لتخلفهم حيث يوصي بعضهم بعضاً ألا ينفروا في الحر لأن الوقت الذي خرج فيه رسول الله ﷺ كان شديد الحر ولذلك فإن الله يتوعدهم بجهنم التي هي أشد حراً .. ثم يبكتهم ويهددهم بقوله تعالى ﴿ **فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً** ﴾ أي فليضحكوا قليلاً في الدنيا ولكن سوف يكون بكاؤهم في الآخرة لما فعلوه من أعمال سيئة .

أما هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد ولم يكذبوا كما كذب المنافقون .. هؤلاء هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي ... هؤلاء قد تخلفوا بدون عذر ولكنهم صدقوا الله ورسوله وطلبوا مغفرة الله وصفح رسوله .. وطلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم ... ولو أنهم كذبوا على الله ورسوله لكان مصيرهم كمصير هؤلاء المنافقين .. ولقد نزههم الله عن ذلك .. وما كان لهم أن يفعلوه وبينهم صحابيان قد شهدا بدراً هما مرارة وهلال .. وثالثهما شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف إلا عن بدر وتبوك .. وبدر لم يكن للمتخلفين عنها عقاب .. ولكن ظل هؤلاء الثلاثة خمسين ليلة لا يكلمهم المسلمون جميعاً .. قاطعهم الصغير والكبير .. حتى نساؤهم وأولادهم .. اللهم إلا ما كان من أمر هلال حيث كان شيخاً ضعيفاً كبيراً سمح له (ص) بأن تخدمه امرأته .. ولقد جاءت امرأته **تستأذن** رسول الله ﷺ **في ذلك فتقول** : يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ .. **قال « لا ولكن لا يقربك »** .. وأخيراً جاء حكم الله فيهم وتاب الله عليهم ونزل لهم الفرج من الله بعد أن ضاقت عليهم

= أشد حراً ... **الآية** ﴾ ب - وأخرج عن محمد بن كعب القرظي قال : خرج رسول الله (ص) في حر شديد إلى تبوك فقال رجل من بني سلمة : لا تنفروا في الحر فأنزل الله ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً ... الآية** ﴾ ... جـ - وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق ابن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : قال رجل من المنافقين لا تنفروا في الحر فنزلت .

الأرض بما رحبت ﴿ وعلى[1] الثلاثة الذين خلفوا ﴾ أي تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّف أمرهم إلى الله ﴾ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

ومن هذا نستخلص أن « التخلف عن الجهاد » شعبة من شعب النفاق .. ولا يتصف بها إلا من أكل النفاق قلبه .

الشعبة التاسعة عشرة

القدح في أعراض المسلمين

(١) ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امريء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم * ﴾ (النور من ١١ إلى ٢١) .

---

(١) روى البخاري وغيره عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة غزاها إلا بدراً حتى كانت غزوة تبوك .. وهي آخر غزوة غزاها .. وأذن الناس بالرحيل .. فذكر الحديث بطوله .. وفيه .. فأنزل الله توبتنا ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين (إلى قوله) إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .. قال وفينا أنزل أيضاً ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾

هذا[1] حديث الإفك وهو صورة مما يفعله المنافقون ثم يرجفون به ويشيعونه بين المسلمين فمنهم من يقع في الإثم ويتلطخ بهذا الجرم الكبير . . وما ذلك إلا لغفلته وجهله . . إن القدح في أعراض المؤمنين وافتراء الزور والبهتان ليس إلا جريمة من جرائم المنافقين وعملاً سيئاً من فعالهم . . ذلك أنه لم تكد تنتهي الفتنة الأولى التي أراد ابن أبيّ أن يوقد نارها بين المهاجرين والأنصار والتي سوف يأتي ذكرها في الشعبة السابعة والعشرين . . حتى فكّر من جديد في تلك المأساة التي كانت ضحيتها سيدة من أشرف نساء المسلمين بل هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . . ونسج قصة من وحي الخيال . . بل من وحي شيطانه . . وما أكثر ما يوحى إليه شيطانه الزور والبهتان والإثم والفجور . . .

عجل الرسول ﷺ بالرحيل إلى المدينة بعد انتهائه من غزوة بني المصطلق في وقت لم يتعود الرحيل فيه حتى يقضي على الفتنة التي أراد أن يوقدها ابن سلول . . ولم يكن ليعلم رسول الله ﷺ أن ابن أبيّ سوف يملي عليه شيطانه تدبير فتنة أخرى . . . ذلك أن رسول الله ﷺ لما اقترب من المدينة أذّن ليلة بالرحيل - وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها معه في تلك الغزوة . لأنه كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . . وكانت عائشة هي التي خرج سهمها في سفره إلى تلك الغزوة . . . . وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش . . فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها وتحسست صدرها فلم تجد عقدها فرجعت تبحث عنه وحبسها ذلك عن المسلمين . . وجاء القوم المكلفون بترحيلها . . وكانوا إذا رحّلوا لها بعيرها جلست في هودجها ثم أتى الذين يرحلون لها فيحملونها فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به . . وجاء هؤلاء القوم فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن النساء كن إذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم وكانت عائشة حديثة السن فلم يلحظ أحدهم أن السيدة غير موجودة بهودجها لأنها قد رجعت بعد أن وجدت عقدها فوجدتهم قد ارتحلوا فجلست في مكانها ولم تفارقه ، حتى إذا فقدوها رجعوا إليها فأخذوها من مكانها .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام والصحيحين والقضايا الكبرى في الاسلام لعبد المتعال الصعيدي ومسند الإمام أحمد .

وكان الذي كلف بالسير خلف الجيش يعتقم ضائعه هو صفوان بن المعطّل السُّلَمي رضي الله عنه فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان يراها قبل الحجاب .. فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .. ظعينة رسول الله ﷺ .. ثم قال : ما خلَّفك يرحمك الله ؟ فلم تكلمه .. فأدنى البعير وقال : اركبي استأخر عنها فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس فأدركهم .

وشاء القدر أن يوجد لابن أبيّ فرصة سانحة أخرى لإحداث شغب وبعث فتنة من جديد ليلعن بها في الدنيا والآخرة .. أو ليزداد بها لعنة على لعناته السابقة .. فمرت عليه عائشة رضي الله عنها وصفوان وهو نازل في جماعته من المنافقين مبتعدين عن الناس .. قال : من هذه ؟.. قالوا : عائشة وصفوان ... فقال : فَجَر بها ورب الكعبة ما برئت منه وما برىء منها ... وصار يقول : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ... ولما دخل المدينة صار يشيع ذلك بين الناس .. وزعموا أنه كان يُتحدث به عنده فيقره ويستمعه[1] ويستوشيه .. ولقد شاركه في هذا الإثم ووقع معه في هذا الذنب جماعة من المسلمين هم :

١ - يسطح بن أثاثه وهو ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
٢ - قمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها
٣ - عبد الله بن جحش أخو زينب بنت جحش .

ولقد زاد بعض الرواه والمؤرخين رابعاً هو زيد بن رفاعه .. وزاد الآخرون خامساً هو حسان ابن ثابت رضي الله عنه .

وحديث الإفك حديث طويل ولسنا بصدد الحديث عنه الآن .. إنما نريد أن نظهر الدور الذي لعبه المنافقون في هذه المأساة .. وبين يدي أحاديث عدة تقص علينا نبأ هذه المسرحية المؤلمة التي مثلها المنافقون ولم يجدوا لها مسرحاً إلا بيت رسول الله ﷺ .. ولم يكن لها ضحية إلا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصحابي بدري جليل هو صفوان رضي الله عنه ... ومن بين هذه الأحاديث حديثان رواهما ابن اسحاق والإمام أحمد عن السيدة عائشة رضي الله عنها

(١) أي يستخرجه بالبحث عنه .

تصف فيها هذه المأساة التي كانت هي ضحيتها . . وكم كنت أود أن أسوق هذين الحديثين لما فيهما من عبر وعظات غير أن طولهما يحول دون ذلك . . .

ولكن لا بأس من ذكر بعض ما جاء بأحدهما خاصاً بموضوعنا :

جاء فيما رواه الإمام أحمد عن الزهري مروياً عن السيدة عائشة رضي الله عنها من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما . . من حديث الزهري وهكذا رواه ابن اسحاق عن الزهري : فمما قالت « . . . . وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ بن سلول » . . . . إلى أن قالت : فقام رسول الله ﷺ من يومه (بعد أن أخذ رأي كبار الصحابة في أمر عائشة رضي الله عنها واستوثق من براءتها . . وما كان له عليه السلام أن يشك في السيدة عائشة وهي التي تزوجها بأمر الله ولكنه كان في ضيق من تصرفها وايجادها فرصة أخرى للمنافقين . . . وكان راغباً في أن يستشير الصحابة ويتعرف رأيهم) فاستعذر من عبد الله بن أبيّ بن سلول . . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي » . . فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه قال : أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك . . . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . . . فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين . . . فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر . . فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ) .

تلك صورة من أعمال المنافقين . . وهل يسعى المنافقون إلا إلى الشر وهل لهم غاية سواه ؟! لقد فشل ابن سلول في إيقاد نار الفتنة فلماذا لا يلجأ إلى الحديث عن الأعراض وافتراء الأكاذيب والقدح والذي يبغي من ورائه

غرضاً دنيئاً هو إثارة الشكوك والريب حول رسول الله ﷺ وآل بيته لأنه فشل في محاربته بالأسلحة التي على الأقل-يمكن أن يقول الإنسان فيها أنها تحمل بعض معاني الشرف والرجولة .. فليلجأ ابن سلول الى أسلحته الدنيئة .. ولينقب له شيطانه عن الحيل الخسيسة .. وليجتهد في ذلك ما وسعه الاجتهاد .. نعم .. لقد كادت نار الفتنة أن تشتعل من جديد بين الأوس والخزرج من أجل نفاق ابن سلول لولا حكمة رسول الله ﷺ وفضل الله على عباده ... ولكن هل كان للوحي أن يمهل ابن سلول ليواصل فتنة ويتغاضى عنه ليستمر في كيده ... ولكن ليمهله شهراً يبوء فيه بالإثم والخزى والخذلان .. ثم يتنزل بعد ذلك الوحي .. يتنزل ببراءة عرض أم المؤمنين .. ويتنزل بالوعد والوعيد لزعيم المنافقين فيبوء بالخزى واللعنة إلى يوم الدين **﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾**

(٢) ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (الأحزاب ٥٨) .

وأي إيذاء أعظم من أن يقدح المنافقون في أعراض المؤمنين ويقذفونهم بغير ما اكتسبوا من الإثم والبهتان .. أجل إن المنافقين لا يتورعون عن السفاسف من الأمور .. ولا عن الدنيء من السلاح وما داموا يعتقدون أن هذا سوف يوصلهم إلى غايتهم وما أدنأها غاية .. وما أحط الوسائل التي يلجأون إليها للوصول إلى غاياتهم هذه ....

ومن هذا الذي سقته أستطيع القول ـ بعد أن أوضحت حديث الإفك ودور المنافقين فيه وما نزل في ذلك ـ من أن « القدح في أعراض المؤمنين » شعبة من شعب النفاق .

الشعبة العشرون
الرَّغبة في اتِّقاء المغرم والتكالُب على المغنم

(١) ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معكم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني

كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً * ﴾ (النساء ٧٢ ، ٧٣) .

من الآيتين السابقتين يتضح لنا أن المنافقين إنما كانوا يتباطئون ويبطئون غيرهم عن الجهاد . . حتى إذا رجع المسلمون من المعركة واستبانوا نتيجتها وكانت الدائرة على المسلمين من هزيمة أو قتل أو غيره حمدوا الله لعدم حضورهم حتى لا يصابوا كما أصيب المسلمون . . ومن هذا تتضح رغبتهم الشديدة في اتقاء المغرم . . ولكن إذا كانت النتيجة في صف المسلمين وكثرت الغنائم وعاد الجيش منتصراً كانت الحسرة وكان الألم لفوات هذه الفرصة الذهبية . . ومن هذا يتضح كيف كانوا يتكالبون على المغنم ويكثرون عند الطمع ولكنهم عند الفزع قليل . . بل لا يتواجدون . . إنما يفضلون الفرار ويؤثرون الجبن .

(٢) **﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * ﴾** (التوبة ٤٢) أولئك الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من المنافقين يصفهم الله تبارك وتعالى بقوله **﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾** والذي يتضح لنا من هذا أن هؤلاء حينما كانوا يحسون أو يدركون أن الغزوة قريبة وأنه سوف تكون غنائم كثيرة كانوا يسرعون في الخروج رغبة في الحصول على الغنائم وطمعاً فيها . . ولكن . . إذا وقع في مخيلتهم أن الغزوة أو المعركة سوف تكون عنيفة لبعدها عن محال إقامتهم وأن المرجح الخسارة أو الهزيمة إنما كانوا يتباطئون ويثبطون غيرهم بإلقاء الروع في قلوبهم كما حدث مثلاً في غزوة تبوك . . ومن هذا يتضح لنا أنهم كانوا حريصين كل الحرص أن يتقوا المغرم وألا يضحوا بأي شيء في سبيل الاسلام والمسلمين .

(٣) **﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * ﴾** (التوبة ٩٨) .

ومما جاء في هذه الآية ووصفه تعالى المنافقين من الأعراب بقوله **﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾** . . من هذا الوصف الدقيق الذي وصف الله تعالى به منافقي الأعراب بأنهم يعتبرون ما ينفقون في سبيل الله مغرماً فهم لا يدفعونه عن عقيدة ولكن رياء

وتقية . . ومن هذا الوصف الدقيق الذي أطلقه الله تعالى عليهم نستطيع أن نقول : ما كان لهؤلاء وهم ينفقون في سبيل الله مكرهين أن تكون عندهم الرغبة في البذل والإنفاق وإنما يحاولون بقدر المستطاع أن يحولوا بين أنفسهم وبين كل مغرم وأن يباعدوا بينها وبين كل تضحية . . فهم يقلون عند الفزع ولكن ما أكثرهم عند الطمع .

(٤) **﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً * ﴾** (الفتح ١٥) .

كان رسول الله ﷺ قد استنفر المسلمين في المدينة ومن حولها من الأعراب للخروج إلى العمرة فخرج من آمن وتخلف من كان في قلبه مرض . . وكان في هذا العام صلح الحديبية . . ورجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ثم اعتزم غزو خيبر في هذا العام بمن شهد الحديبية . . وهرول الذين تخلفوا بالأمس من المخلفين خشية أن تصيبهم الدوائر حينما يلقون قريشاً وظناً منهم أنه عليه السلام ومن معه سوف لا يعودون إلى المدينة ثانية . . ولكن خيب الله ظنهم . . هؤلاء الذين انفضوا من حول الرسول عليه السلام بالأمس خوفاً وفرقاً حينما ظنوا أن هنالك سوف يكون المغرم . . . أقبلوا اليوم حين اعتزامه الخروج إلى خيبر . . لا للقتال . . وإنما رغبة في الغنائم المنتظر الحصول عليها من اليهود وطمعاً في ذهبهم وأموالهم . . . ولكن كان وعد الله قد سبق لأهل الحديبية لا يشاركهم أحد في غنائم خيبر . . وكان أمره قد سبق لرسوله عليه السلام ألا يخرج معه هذه المرة وألا يشهد خيبراً إلا من شهد الحديبية . . . ومن هذه القصة نرى كيف كان هؤلاء يقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع وإلى أي حد كان حرصهم على اتقاء المغرم . . وكيف كانوا يتكالبون على المغنم ويتهافتون عليه ونحن نرى قول الله تعالى في هذه الآية **﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ﴾** هنا منتهى الحرص على الحصول على الغنائم ونيلها ـ والله تعالى يعلق على ذلك بقوله **﴿ يريدون[1] أن يبدلوا كلام الله ﴾** بأن يشاركوا في الغنائم التي خص بها أهل الحديبية . . ثم إننا نرى الإلحاح الشديد والحرص

---

(١) قال مجاهد وقتاده وجويبر وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية واختاره ابن جرير . . . يرجع إلى تفاسير : ابن كثير والبيضاوي وأبي السعود .

العجيب على الخروج في قولهم للمؤمنين ﴿ بل تحسدوننا ﴾ . . أي ليس هذا أمر الله ولكنكم لا تريدون لنا أن نشارككم في الغنائم وتحسدوننا على ذلك .

هذه عدة صور أوضحتها الآيات الكريمة عن خلق هؤلاء القوم بما فيه من تناقض وتضارب . . وإنه حقاً لخلق عجيب . . إننا نلمس من حركات هؤلاء المنافقين وسكناتهم كيف أنهم يقدرون لكل خطوة من خطواتهم ألف حساب . . إنهم لا يحركون قدماً من مكانها ولا يسيرون خطوة واحدة إلا بعد تمحيص عجيب وتفكير طويل عما إذا كان وراء هذه الخطوة مغنم أم مغرم . . وما أسرعهم إلى الفرار حينما يدركون بل يتوهمون وجود خطر . . . وما أشبههم في هذه الحالة بتلك الجرذان التي تسارع إلى جحورها عند إحساسها بوجود القطة . . بل عند مجرد شكها في ذلك أو توقع ذلك . . . ولكن سرعان ما يخف هؤلاء القوم إلى مكان الغنيمة لمجرد الحدس والتخمين . . وما أشبههم بجمع من الكلاب يتهافت على قطعة من العظم يداعبهم بها صبي من الصبيان . . حقاً . . إنهم ليقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع . . وما أحرصهم على اتقاء المغرم وتكالبهم على المغنم .

الشعبة الحادية والعشرون

إيذاء المؤمنين

قد يقول أحدكم وما الفرق إذن بين الإيذاء والكيد . . ولكنني أجيب أن البون بينهما شاسع وأن الفرق لا شك عظيم . . فالكيد إسم يبدو منه جسامة العمل وخطورته . . وينم عن فظاعة في الفعل وفي التدبير والتفكير ضد المسلمين . . . أما الإيذاء إنما هو أخف وطأة . . وقد يكون على أية صورة من الصور التي قد يعتقدها الانسان بسيطة . . ويظن خطأ أنها لا تعتبر في قاموس النفاق عملاً من أعماله . . وذلك كأن يسخر رجل من مسلم أو كأن يؤذيه بأية صورة من الصور التي تنم عن الإيذاء وتعبر عنه سواء كان ذلك بالتجريح بالقول أو الفعل .

إنك تستطيع أن تسمي الكيد ايذاء ولكن لا تستطيع أن تسمي الإيذاء كيداً . .

ذلك لأن الكيد في الحقيقة ما هو إلا نوع مجسم من أنواع الإيذاء إلا أنه يتميز عنه بأنه سُبِق بالتفكير الشديد والتدبير الطويل اللذين يصحبان بالحقد والضغينة . . . أما هذا الإيذاء فلا يزيد على أن يكون شيئاً نبت لوقته وظهر إلى حيز الوجود لسبب طارىء كأن يرى المنافق مسلماً ماراً فيسخر منه أو يسبه . . أو كأن يجد الفرصة مواتية فيقدح في حقه مغتاباً . . سواء كان هذا القدح نيلاً من كرامته أو متصلاً بعرضه أو عرض آل بيته . . والحق . . وإن كان القدح في أعراض المسلمين قد يبدو جزءاً من الإيذاء . . إلا أنني رأيت أن يكون شعبة قائمة بذاتها لخطورة العمل وجسامته وبشاعته وفظاعته .

وإليكم ما ورد في كتاب الله في شأن الإيذاء :

أولاً : السخرية من المؤمنين :

﴿ والذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم * ﴾ (التوبة ٧٩) .

أ ـ **ولقد علق ابن كثير على هذه الآية بقوله** «هذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم . . وإن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء وإن جاء بشيء يسير قالوا إن الله لغني عن صدقة هذا »[1] . . ولقد روى البخاري حديثاً في سبب نزول هذه الآية عن أبي مسعود رضي الله عنه قال « لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مُراءٍ . . وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . . فنزلت ﴿ **الذين يلمزون المطوعين . . . الآية** ﴾ » . **وكذا رواه مسلم أيضاً في صحيحه** من حديث شعبة .

ب ـ **ولقد وردت** عدة روايات أخرى كلها متقاربة سأذكر إحداها مبالغة في الايضاح :

وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع

---

(١) وورد نحو هذا من حديث أبي هريرة وأبي عقيل وأبي سعيد الخدري وابن عباس وعميرة بنت سهيل بن رافع أخرجها كلها ابن مردويه .

من تمر فقال : يارسول الله هذا صاع من تمر بت ليلي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيت بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعان بصاعك من شيء . . . ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ . . فقال رسول الله ﷺ « لم يبق أحد غيرك » . . فقال له عبد الرحمن بن عوف : فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات . . فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أمجنون أنت ؟! . . قال : ليس بي جنون . . قال : أفعلت ما فعلت ؟ . . قال : نعم . . مالي ثمانية آلاف . . أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف فلي . . فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » . . . ولَمَزَه المنافقون فقالوا : والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء . . وهم كاذبون . . إنما كان به متطوعاً . . فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ . . . الآية

وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد (تفسير ابن كثير - جـ٢)

ويكفي أن أسوق هذين الحديثين لأوضح كيف كان المنافقون يسخرون من المؤمنين . . وفي هذا ايذاء لهم . . ولذلك يقول الله تعالى في هذه الآية نفسها ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

ثانياً - عموم الإيذاء[1]

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ (الأحزاب ٤٨) .

الخطاب بالطبع موجه لرسول الله ﷺ . . وهو نهي له ﷺ عن مداراتهم واستعمال اللين معهم . . وفي الوقت نفسه يطلب منه ألا يبالي بإيذائهم له بسبب تصلبه معهم في الدعوة . . والإيذاء هنا أياً كان نوعه وكيفما كانت طريقته . . وليس الإيذاء الموجه لرسول الله ﷺ إلا إيذاءً موجهاً لعامة المسلمين وجماعة المؤمنين . . والإيذاء هنا - وإن لم

---

(١) أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي (ص) أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم . . وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ .

يكن قاصراً على المنافقين وحدهم وإنما يشترك معهم في ذلك الكافرون ـ إلا أن إيذاء رسول الله (ص) والمؤمنين إن صدر عمن ادعى الاسلام فليس إلا عمل أهل النفاق والتمرد .

﴿ إن[1] الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً * ﴾. (الأحزاب ٥٧ ، ٥٨) .

ولقد ذكر ابو السعود في تفسيره عدة أسباب لنزول الآية رقم ٥٨ . . قال : « قيل نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه . . وقيل في أهل الافك » . . ثم علق على ذلك بقوله « والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتي من أراجيف المرجفين » .

والظاهر من سياق الآية أنها موجهة إلى هؤلاء المنافقين الذين كانوا يتفننون في إيذاء المؤمنين وذلك قولاً أو فعلاً بدون جناية يستحقون عقابها . . وينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعلموه ولم يفعلوه . . كل ذلك دون ذنب أو جريرة .

والذي يبدو لنا من سياق الآيات التي ذكرتها أن ايذاء المؤمنين[2] إنما يكون بالسخرية أو الاستهزاء منهم أو افتراء الكذب عليهم أو القدح في حقهم مواجهة . . أو غير ذلك بما لم تجنه أيديهم افتراء وبهتاناً .

كل هذا وغيره من الأقوال والأفعال التي يمكن للإنسان أن يسميها ايذاء . . إنما هي من صفات المنافقين وأفعالهم ولا يجوز لرجل مؤمن أن يقدم عليها أو يفكر فيها .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله **﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾** . . الآية قال : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي . . وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : أنزلت في عبد الله بن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة فخطب النبي (ص) وقال : مَن يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني . . . فنزلت .

(٢) ومن الصور التي توضح لنا كيف كان المنافقون يؤذون المؤمنين ما أخرجه ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك . . قال : كان نساء النبي (ص) يخرجن بالليل لحاجتهن وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذيْن فشكوا ذلك فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما نفعله بالإماء . . فنزلت هذه الآية : **﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾** . . ثم أخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي .

الشعبة الثانية والعشرون

الجبن

وسوف أوضح لكم أن هذه الصفة هي إحدى الصفات الملازمة للنفاق .. وحجتنا في ذلك آيات من كتاب الله .. وإليكم بيانها :

(١) **﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور * ﴾** (آل عمران ١٥٤) .

وهذه الآية سبق أن تعرضت لها في حديثنا قبل ذلك .. والذي يهمنا أن نشير إليه في هذا الموضع قول الله تبارك وتعالى **﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾** .. ويفسر هذا الوصف الذي ورد في هذه الآية أنه عقب هزيمة المسلمين في غزوة أحد أنزل الله على عباده المؤمنين أمنة نعاساً غشى طائفة من المسلمين هم المؤمنون .. أما هذه الطائفة الأخرى فإنهم من جبنهم وفرقهم وما استولى عليهم من الخوف والفزع لم يداعبهم النعاس لحظة واحدة .. وإنما شغلهم عن ذلك الجبن والظن السيء بالله الذي لا يرد إلا على خواطر المشركين .

(٢) **﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولّوْا إليه وهم يجمحون * ﴾** (التوبة ٥٧) .

وفي هذه الآية اوالتي قبلها نرى القرآن الكريم يصور مقدار هلع هؤلاء القوم وجزعهم وما احتوت عليه نفوسهم من الجبن .. فنرى أنه سبحانه وتعالى يصفهم بالفرق في قوله تعالى **﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾** .. أي أنهم جبناء يخافون من المسلمين أن يفعلوا بهم ما يفعلون

بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية . . . ثم نرى بعد ذلك أن القرآن الكريم يصف جبنهم في تصوير بديع يبين لنا مقدار هذا الهلع والجزع . . فأنبأ عنهم أنهم لو استطاعوا أن يجدوا حصناً يلجأون إليه أو مغارة أو نفقاً لولوا إليه يبغون الاختفاء والفرار في سرعة تفوق سرعة الفرس الجموح .

ما أعظم هذا التصوير . . وما أبدعه . . لقد أبان نفسية المنافق ووضح ما يعتريه من جبن وهلع . . حتى أنه يحاول التنقيب عن حصن أو مغارة أو نفق ليختفي فيه عن أعين الناس . . فأي جبن بعد هذا ؟! وأي فرق يلجيء صاحبه لمثل هذا ؟! . . اللهم إلا أن يكون شخصاً منافقاً عريقاً في النفاق يفكر بعقلية جرذان يبتغي السلامة والمأمن !!

(٣) **﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * ﴾**(التوبة ٨٦ ، ٨٧) .

وفي هاتين الآيتين نجد التعبير في أقوى ما يكون . . ساخراً وموبخاً ومبكتاً بصورة يندى لها جبين أصحاب الضمائر الحية . . . والقرآن هنا يعيب على جماعة من المنافقين من ذوي السعة والفضل استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف عن الجهاد دون عذر يبيح لهم ذلك . . وطلبوا منه أن يتخلفوا مع القاعدين الذين سمح لهم رسول الله ﷺ لتواجد أعذار حقيقية . . ثم هو بعد ذلك يبالغ في تبكيتهم وتقريعهم بأن يصف ـ جلت قدرته ـ هؤلاء القوم بقوله **﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾** . . فأي تقريع أشد من وصفهم بالتقاعد مع النساء . . وأي صورة من صور الجبن تأباها النفس الكريمة أشد من هذه الصورة .

(٤) **﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً * ﴾** (الأحزاب ١٣) وردت في هذه الآية روايتان إحداهما للعوفي عن ابن عباس رضي الله عنه أن بني حارثة قالوا بيوتنا نخاف عليها السراق . .

وكان ذلك في غزوة الأحزاب حينما اشتد الأمر على المسلمين . . وذكر ابن اسحاق أن أوس بن قيظي ـ وهو أحد المنافقين ـ هو قائل ذلك القول . . وقد سبق أن تعرضت لسبب نزول هذه الآية وناقشت حجج الإمام محمد بن حزم التي ساقها مرجحاً نزول هذه الآية في بني حارثة . . وذلك حينما كنت أتحدث عن التآمر مع الأعداء ضد سلامة الدولة أثناء سردي لشعبة الخيانة العظمى . . ولقد ذكرت وقتها أن بني حارثة إنما هم البدريون الأحديون الذين لا يمكن أن ينزل فيهم مثل هذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون قد نزل إلا في منافقين ورجحت نزوله في هؤلاء المنافقين .

وعلى كلٍّ فإن المتحقق منه أن ناساً من المنافقين قالوا هذا القول واحتجوا بأن بيوتهم عورة ليس دونها من يحجبها من العدو . . فإن الله قد رد هذا القول وأثبت كذبه بأن كشف عن نيتهم الخبيثةِ . . وأبان العذر الأصلي وهو رغبتهم في الفرار وشغفهم بالهروب من وجه العدو . .فحدثوني بربكم أي جبن بعد هذا ؟!

(٥) ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً** * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً * ﴾ (الأحزاب ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

لقد احتوت هذه الآيات عدة مظاهر من مظاهر الجبن والخور وعدة مشاهد لا تنبىء إلا عن الجزع المزري بأصحابه . . وإليكم بيانها :

أ ـ أما المشهد الأول فيتركز في قوله تعالى ﴿ **ولا يأتون البأس إلا قليلاً** ﴾ . . وهذا القول يحتمل معنيين :

١ ـ أنهم كانوا إذا خرجوا مع المسلمين لا يقاتلون إلا قليلاً خوفاً من الموت وجبناً عن لقاء العدو .

٢ ـ كانوا يثبطون المسلمين عن الخروج مع رسول الله ﷺ وينتحلون الأعذار تهرباً من الخروج معه وخوفاً من لقاء العدو.

ب ـ وجاء في الآية الثانية صورة أخرى من صور الجبن ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد** ﴾ .. ولقد شبه القرآن الكريم خوف هؤلاء وجزعهم عند سماع نبأ القتال تشبيهاً يدل على مقدار فَرَق هؤلاء وضعف قلوبهم .. ولقد صور نظراتهم في هذه الحالة بنظرات رجل يعالج سكرات الموت .. فهذا التشبيه القوي والتصوير البديع والمنطق القوي .. كل هذا يعطينا صورة واضحة عن جبنهم وضعف نفوسهم .

جـ ـ الصورة الثالثة يوضحها قوله تبارك وتعالى ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ .. وفي هذا الوصف تصوير للوهم الشديد الذي كان يسيطر عليهم إلى الحد الذي جعلهم في فرق من الأحزاب رغم هزيمتهم وانصرافهم وقد خاب كيدهم وتحطمت آمالهم .. ومع هذا فالجزع المخزي الذي استولى عليهم قد بيّتهم في ظن مفزع هو أن عسكر الأحزاب ما زالت باقية .. وهكذا يصور لنا القرآن الكريم كيف أن الوهم يسيطر على نفوس الجبناء ويستولي عليها .

د ـ أما المشهد الرابع وهو الرغبة في الفرار عند السماع بقدوم الأعداء .. فيتضح في قوله تعالى ﴿ **وإن يأتِ الأحزابُ يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً** ﴾ .. ثم صور هذا الهلع وهذا الخوف بأنهم لا يكتفون بالفرار إنما يودون أن يكونوا خارج المدينة بين الأعراب يسألون كل قادم من جانب المدينة عن أنباء المسلمين .. وذلك للوهم الذي يصيبهم .. ثم يعلق الله تعالى على ذلك بقوله : ﴿ **ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً** ﴾ .. وهذا وضع طبيعي لأنهم جبناء .. وفي الوقت نفسه يخشون الفضيحة والعار فيقاتلون أو فيتظاهرون بذلك رياء وحتى لا يقال عنهم إنهم جبناء .

ومن هذه الآيات التي نزلت تصف جبن المنافقين وخورهم في غزوة

الأحزاب وتخاذلهم عن رسول الله ﷺ نستطيع أن نلخص المشاهد الأربعة التي سبق الحديث عنها آنفاً كالآتي :

أولاً ـ الجبن عند لقاء العدو وحرصهم على النجاة .

ثانياً ـ الخور وضعف الأعصاب .

ثالثاً ـ الخوف من القتال والوهم الشديد الذي يصيبهم عند توقعه .

رابعاً ـ الحرص الشديد على عدم لقاء الأعداء والرغبة في الفرار من وجوههم ومجابهتهم .

(٦) ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * ﴾ (محمد ٢٠ ، ٢١) .

لقد احتوت الآية الأولى منهما على مشهد من مشاهد الخور وضعف الأعصاب الذي لا ينم إلا عن الجبن والهلع والذي يوضحه قوله تعالى **﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾** . . وهو تصوير بديع بهذا الجبن سبق أن مر علينا في الآية ١٩ من سورة الأحزاب . . أما قوله تعالى **﴿ فأولى لهم *** طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * ﴾ فقد احتوى ذلك القول الترغيب في التخلي عن نفاقهم والصدق في إيمانهم والتخلص من مرذول ما اتصفوا به .

(٧) ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون * ﴾ (المنافقون ٤) .

وفي هذه الآية مظهر من مظاهر جبنهم وهو الوهم الذي يصور لهم أن كل مكروه أو خوف لا محالة نازل بهم . . ولقد سبق أن حدثتكم عن هذه الآية وذكرت أنها نزلت في عبد الله ابن أبيّ بن سلول .

وكم تلقي هذه المشاهد والصور لجبن المنافقين في نفس المؤمن صوراً أخرى لجبن آخرين في القديم والحديث .. ولكم تتراءى أمام عينيه صورة الرجل جميل الطلعة عذب الحديث قوي الحجة بارع التمثيل .. قوّاماً .. صوّاماً .. تبدو عليه مظاهر العبادة والورع .. يراه الناس يتصدى لكل محنة .. متعبداً كما يتراءى لهم .. شجاعاً كما يظهر لهم !! .. ولكن ليت الأمر يتوقف عند هذا فيكون في ذلك الخير كل الخير للإسلام والمسلمين .. ولكن الرجل قد جمع في قلبه صفة من صفات المنافقين لا تتكشف إلا من عميق خبرة وطول معاشرة .. ولا يفضح أمرها إلا قوي الفراسة .. عظيم التجربة ... ولكم تكون الفجيعة - وأي فجيعة - في شخص مثل هذا حينما يشتد الأمر وتعظم المحن ويتحقق الموت .. هنا .. وهنا فقط .. يتجلى الجبن في أحط مستوياته .. الجبن الفاضح المخزي .. أتصوره وأيم الله .. أي ذلك الرجل الذي حوى قلبه صفة من صفات المنافقين .. أتصوره وقد نظر إليك « نظر المغشى عليه من الموت » .. كم تكون الحسرة مريرة في هذا الوقت المؤلم .. وكم يكون تكشف تلك الصفة الخسيسة - صفة الجبن - أشد ألماً وأشد مرارة .. نعم .. إن المنافقين يستطيعون أن يخفوا أمرهم عن الناس .. ولكن ليس إلى الأبد .. وإنهم يستطيعون إتقان الدور الذي يقومون به ولكن ليس إلى النهاية .. وليعلم المنافقون جميعاً أن الله توعدهم بالفضيحة والعار .

الشعبة الثالثة والعشرون

الأنانيّة

﴿ **ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** * ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنّا إلى الله راغبون * ﴾ (التوبة ٥٨ ، ٥٩) .

نستخلص من هاتين الآيتين تلك الحقيقة التي يتضح فيها مقدار ما انطوت عليه نفوس هؤلاء المنافقين من أنانية غريبة .. ذلك بأنهم كانوا يرضون عن رسول الله ﷺ ويصفونه بالعدل إذا أعطاهم من الصدقات .. ولكن ..

إذا لم يكونوا مستحقين لذلك وأعطى رسول الله ﷺ من كان في حاجة إليها عابوا عليه ذلك .. وزعموا أنه غير عادل .. وهم في ذلك يغضبون لأنفسهم .. وفي هذا منتهى الأنانية التي لا يقرها خلق ولا دين .. اولئك الذين يريدون أن يستأثروا بها دون غيرهم وهم أحوج إليها منهم .. والذي يوضح لنا هذا المعنى جيداً ما روى في سبب نزول هذه الآية :

أ ـ **قال ابن جريج : أخبرني داود بن أبي عاصم قال** : أتى النبي ﷺ بصدقه فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت .. قال ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل .. فنزلت هذه الآية .

ب ـ **وقال قتادة في قوله** « ومنهم من يلمزك في الصدقات » يقول ومنهم من يطعن عليك في الصدقات .. وذكر أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ **وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله** أمرك أن تعدل ما عدلت .. فقال نبي الله ﷺ « ويلك .. فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟ » .. ثم قال نبي الله « احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » .

(٢) ولقد[١] روى الشيخان حديثاً عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص حديثاً مشابهاً لما رواه قتادة .. وهذا الآخر صورة واضحة لما احتوته قلوب هؤلاء القوم من أنانية ورغبة في الاستئثار بالنفع .. وذلك لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين طالباً منه أن يعدل فقال : « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » .. **ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً** : « إنه يخرج من ضئضئي هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما

---

(١) ولقد ذكر السيوطي في كتابه « لباب النقول في أسباب النزول » أن البخاري روى عن أبي سعيد الخدري قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة فقال : اعدل .. فقال « ويلك .. من يعدل إذا لم أعدل » .. فنزلت ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ ... الآية ثم قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر نحوه .

لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء » وذكر بقية الحديث .

هذه الآية وتلك الأحاديث إنما هي صورة واضحة وحقيقية ناطقة لحب هؤلاء المنافقين أنفسهم وغضبهم لها ومن أجلها ورغبتهم في الاستئثار بالنفع دون غيرهم وإن كانوا لا يستحقون ذلك وليسوا في حاجة إليه . . إنما هو الطمع الذي تخرجه إلى حيز الوجود هذه الأنانية البشعة . . ولذلك نجد أن الله تعالى يبكتهم قائلاً ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ .

ومن ثم نتبين أن الأنانية إنما هي شعبة من شعب النفاق وصفة يتصف بها المنافقون وأنها لا يمكن إلا أن تكون من صفاتهم . . ومن اتصف بها من غيرهم فقد اتصف بشعبة من شعب النفاق وعليه أن يتخلص منها ويطهر قلبه من إثمها وشرورها .

الشعبة الرابعة والعشرون

الرّيَـــــاء

قبل أن أتحدث عن الرياء وهل هو شعبة من شعب النفاق أم لا ؟ . . سأسوق بعض الأحاديث النبوية التي تبين جسامة هذا الجرم الذي يقع فيه كثير من الناس . . وإن كان موضوعنا ليس الحديث عن الرياء في حد ذاته . . وإنما الحديث عنه من حيث أنه شعبة من شعب النفاق . . غير أنني لجأت إلى ذلك لأوضح ماهيته .

ولقد وردت في الرياء أحاديث كثيرة أذكر منها :

١ ـ **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال** : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . . قال فما عملت فيها . . قال قاتلت فيك حتى استشهدت . . قال : كذبت . . ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جريء فقد قيل . . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه

فعرفها . . قال : فما عملت فيها . . قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل . . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . . قال : فما عملت فيها ؟ . . قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار » . . رواه مسلم والنسائي ورواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه بلفظ واحد .

٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال رجل يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه لله وأريد أن يرى موطني » فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . . رواه الحاكم وقال صحيح على شرطيهما . . والبيهقي من طريقه .

٣ ـ وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكي . . فقال : ما يبكيك . . **قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال** : « اليسير من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في كتاب الزهد له وغيره . . وقال الحاكم : صحيح ولا علة له .

لقد سقت هذه الأحاديث لأوضح ما هو الرياء . . ولأبين كيف يكون الرجل مرائياً . . وأما موضوع حديثنا الذي نحن بصدده الآن والذي يهمنا أن نتحدث فيه ـ وإن كنت أعتبر أنني حينما سقت الأحاديث السابقة دون تعليق لم أخرج بذلك عن موضوعنا الحقيقي . . أعني الحديث عن الرياء وهل هو شعبة من شعب النفاق أم لا ؟ . . فلقد ورد في كتاب الله ما يفيد ذلك صراحة بل ما يؤكده . . ولقد قلت في أول حديثي وأكدت ذلك مراراً وما زلت أؤكد هذا : أن مصدرنا الأول هو كتاب الله . . فلننظر ما جاء فيه حول موضوعنا هذا . . وإليكم بيانه :

١ ـ **﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾** (النساء ٣٨) .

إنني حينما أذكر هذه الآية لا أذكره على سبيل الاحتجاج الذي لا يقبل المناقشة ولا النقض . . ولكن أذكره لأن بعض المفسرين ذكروا فيها رأيين : الأول أنه من المحتمل أن تكون قد نزلت في مشركي مكة . . والثاني أنه من المحتمل نزولها في المنافقين . . وفي الحقيقة أنني لا أستطيع أن أقطع فيها برأي أو أن أرجح رأياً على الآخر . . وخاصة إذا قرأنا الآية التي قبلها **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** . . وتكاد الآراء تجمع على أن هذه الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وإن كانوا قد اختلفوا في ماهية البخل وكنهه . . وقال البعض أن أهل الكتاب كانوا يلقون الأنصار فيقولون لهم بلسان الناصح « لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر » . . وقال الآخرون : إن المعنّى بالبخل بخل علمهم وكونهم قد كتموا ما بين أيديهم من العلم عن صفة رسول الله ﷺ . . وهذا القول رواه ابن إسحاق عن أناس من الصحابة رضوان الله عليهم . . ورجح ابن كثير القول الأول . . والآية التي تلي الآية رقم ٣٨ لا نستطيع أن نرجح بها أحد الرأيين « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً » . . غير أن ما يرتاح إليه قلبي هو أن هذه الآية إنما نزلت في المنافقين . . والذي يرجح هذا الشعور القلبي ويجعلني أطمئن إليه بعض الشيء وجود ثلاثة أسباب :

أ ـ أما الأول : أننا لو تتبعنا الآيات التي نزلت في أهل الكتاب وخاصة التي تعيب عليهم محاولة تسميم أفكار بعض المسلمين . . لوجدنا أن هذه الآيات إنما يتبعها الله تعالى بأخرى تفضح المنافقين وتزجرهم وتطالبهم بالتوبة . . ويمكن أن يقال العكس لما كان معروفاً من موالاة المنافقين لأهل الكتاب واتفاقهم في المشرب والروح والأفكار .

ب ـ السبب الثاني : أن لفظ الشرك أو المشركين لم يذكر صراحة في الآية رقم ٣٨ أو في الآية التي تليها وتتصل بها في المعنى . . أما ما ذكر من دعائهم للإيمان بالله . . ونعتهم بأنهم « لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فهذا كثيراً ما

يوجه إلى المنافقين كما يوجه إلى المشركين أو الكافرين من أهل الكتاب .

جـ ـ أما السبب الثالث : فهو أن الآية التي قبلها **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** وردت في سبب نزولها هي والآيتين اللتين بعدها الرواية الآتية :

أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحرى ابن عمرووحـي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون . . فأنزل الله فيهم **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . . إلى قوله : وكان الله بهم عليماً﴾** . . ولقد سبق أن قلت أن ابن إسحاق قد أورد أن رفاعة بن زيد ابن التابوت هذا إنما هو من زعماء منافقي أهل الكتاب الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر . . ويبدو أن الباقين هم من زعماء أهل الكتاب . . ونحن نعلم من سياق الآيات الكثيرة والنصوص التي وردت إلينا أن المنافقين إنما كانوا يتعاونون في كثير من الأحيان إن لم يكن كلها مع أهل الكتاب للكيد للإسلام والمسلمين . . ويبدو أن هذه الآيات إنما نزلت في حق بعض المنافقين ومن تعاون معهم من أهل الكتاب . . ووجود اسم رفاعة في هذه الرواية السابقة . . واتفاق المنافقين وأهل الكتاب أعني اليهود في هذا الموضع ـ في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر واتصافهم جميعاً بالرياء والبخل . . أما قوله تعالى **﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** . . لأن الواضح من الرواية السابقة أن الذي اشترك مع زعماء أهل الكتاب في الواقعة السابقة منافق من أهل الكتاب . . والكل قد كتم علمه بأن رسول الله ﷺ نبي مرسل . . فلم يؤمن ولم يدع غيره ليؤمن . . كل هذه الظروف جميعاً تجعلني أرجح الرأي القائل بأن هذه الآية إنما نزلت في المنافقين ولكنني لن أترككم في حيرة من الأمر ولن أدع الأمر وفيه ترجيح أو شك وسأدع كتاب الله يفصل في ذلك . . فلقد جاء فيه قوله تعالى :

٢ ـ **﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا**

كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ (النساء ١٤٢) .

لقد جاءت هذه الآية لتقطع الشك باليقين ولتغلق الباب أمام التأويل أو الترجيح بما ورد فيها من صراحة ووضوح . . ولقد ورد قول الله تعالى قوياً واضحاً لا يحتاج إلى شرح أو تبيين **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾** . . فلقد اتضح في هذا القول أن المنافقين إنما كانوا يقومون إلى الصلاة في تكاسل وتثاقل لا عن عقيدة وإنما رياء وتمويهاً وتضليلاً حتى لا ينكشف أمرهم ولا يفتضح سرهم . . ولقد وردت أحاديث توضّح كيف كان هؤلاء القوم يؤدون صلاتهم أذكر منها :

أ ـ ما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » . . **وفي رواية** « والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً[1] سميناً أو مرماتين[2] حسنتين لشهد الصلاة ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار » .

والذي يبدو من هذا الحديث أن المنافقين إنما كانوا يشهدون صلاة النهار التي يراهم فيها الناس رياء وتقية ومصانعة . . أما الصلاة التي لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء (العتمة) وصلاة الصبح في وقت الغلس فكانوا لا يشهدونها .

ب ـ روى الحافظ أبو يعلى عن عبد الله قوله : قال رسول الله ﷺ « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » .

جـ ـ وقد روى الإمام مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « تلك صلاة المنافق . . تلك صلاة المنافق . . تلك صلاة المنافق . . يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » وكذاه رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث

(١) العرق : العظم الذي أخذ من لحمه (٢) المرماة : ما بين ظلفي الشاة من لحم

إسماعيل بن جعفر بن المدني عن العلاء بن عبد الرحمن ، **وقال الترمذي حسن صحيح** .

من الآية السابقة ومن الأحاديث التي ذكرتها نتبين كيف أن المنافقين كانوا يراءون الناس في عبادتهم وصلواتهم ولا يذكرون الله فيها إلا قليلاً رياء وسمعة .

٣ - **﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون *﴾** (التوبة : ١٥٤) .

نرى في هذه الآية أن الله تعالى قد أصدر حكمه جلت قدرته بعدم قبول نفقات المنافقين ولا ما يخرجونه من أموال مدعماً بحيثيات ركزها سبحانه وتعالى في ثلاثة أسباب :

أ ـ أما الأول فلأنهم كفروا بالله وبرسوله سراً وإن أظهروا الإيمان علانية وكفروا لأن أعمالهم ليست بأعمال المؤمنين وإنما هي أعمال الكفر .

ب ـ « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » وهذا هو السبب الثاني لعدم قبول نفقاتهم لأنهم لا يلبون نداء الله إلى الصلاة صادقين وإنما يصلون رياء .

جـ ـ أما السبب الثالث فيتركز في قوله تعالى **﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾** . . إنهم لا ينفقون عن عقيدة ولا عن إيمان . . وإنما يراءون الناس بذلك حتى لا يقال عنهم إنهم غير مؤمنين أو بخلاء . . وفي الحقيقة إنما يدفعون أموالهم ونفوسُهم كارهة لذلك والذي يهمنا الآن هو أننا نستطيع أن نستخلص من السببين الثاني والثالث . . أن المنافقين كانوا يراءون الناس في العبادة والإنفاق » .

٤ - **﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾** (الأحزاب ٢٠) .

تدل هذه الآية على أن المنافقين إنما لفرقهم وجبنهم كانوا يظنون أن الأحزاب لم يهزموا . . ثم يصف الله تعالى مقدار هلعهم بقوله تعالى **﴿وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم﴾** . . وهذا منتهى الجبن وإلا ما أدى بهم خوفهم وضعف أعصابهم إلى الخروج إلى البدو يسائلون كل قادم من قبل المدينة عن أنباء من بها خوفاً من القتال وأخباره . . وقد يتساءل أحدكم قائلاً : إذن فلماذا قال الله تعالى : **﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾** . . وأنا أجيب : أن هذا هو بيت القصيد وهذه الملاحظة من الله تبارك وتعالى للمؤمنين وهذا التنبيه منه جلت قدرته هو الذي نعني من تحليلنا لهذه الآية .

نعم . . **﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾** . . إن المنافقين لأجبن خلق الله . . وما كان لهم أن يضحوا في سبيل مبدأ لا يؤمنون به . . وإنهم لأشد الناس فراراً من الخروج إلى القتال وأرغبهم في التخلف والقعود . . ولكن إذا فشلت الحيل في إيجاد المعاذير وأعياهم التفكير في التخلص من الخروج . . ولم يكن هنالك بد من الخروج خشية أن يوصفوا بالجبن والتخاذل . . هنا وفي هذا الوقت فقط يخرج المنافقون مع المؤمنين ولكن لا عن عقيدة ولا عن رغبة في الجهاد . . وإنما رياء وسمعة ومصانعة . . وهل تنتظرون من أقوام هذا شأنهم أن يقاتلوا جادين في ذلك ؟! أو يقابلون الموت راغبين في الشهادة ؟! . . إنهم أحرص الناس على الحياة وأشدهم رغبة في العودة إلى أهليهم وذويهم وأموالهم ودنياهم التي بها يعتزون . . إنهم يريدون العودة لكن يدبروا المؤامرات من أجل الجاه والرياسة وينصبوا الفخاخ ويتفننوا في الكيد . . كل ذلك من أجل الإمارة ورغبة في الظهور وطمعاً في الدنيا . . أي بلهاء هؤلاء في منطقهم حتى يضحوا بحياتهم من أجل عقيدة لا يؤمنون بها ؟ أو في سبيل نبي لا يكنون له إلا كل القتال والإرهاق ؟ . . ولكن هل يكفون أيديهم ويفرون خلسة حتى يتهموا بالجبن ويشاع عنهم ذلك فينقص هذا من قدرهم عند قومهم . . والعربي أشد ما يكون حرصاً على سمعته وكرامته ؟ . . إذن فليقاتلوا ولكن قتالاً يسيراً . وإذن فليحاربوا ولكن عن حذر وحرص حتى لا يفقدوا أنفسهم في سبيل لا شيء زعمهم أنك ولو حللت قول ابن أبيّ يوم أحد « علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس » . . لماذا ؟ . . أمن أجل محمد

ﷺ وهو أشد الناس بغضاً له ؟ أم من أجل هذه العقيدة وهو أشد الناس كرهاً لها ولأهلها ؟ إذن فلماذا يقاتلون وعلام يحاربون .. إنهم لن يقاتلوا إلا لكي لا يوصفوا بالجبن .. وإنهم لن يحاربوا إلا رياء وسمعة .. ولذلك « لو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً » .

وأخيراً .. وبعد هذا التحليل نستطيع أن نخرج بثلاث نتائج :

أ ـ من الآية ٢ ، ٣ يتّضح لنا أن المنافقين كانوا يتعبدون لا عن تقى وورع ولكن عن رياء وسمعة .

ب ـ من الآية رقم ٣ نتبين أن المنافقين ما كانوا لينفقوا رغبة في البذل وإنما كانوا يراءون الناس بذلك .

جـ ـ من الآية رقم ٤ نستنتج أن هؤلاء القوم لم يكونوا بالذين يقاتلون رغبة في التضحية ونصرة للدعوة وإنما يغلب عليهم في ذلك الرياء وتدفعهم الى ذلك السمعة حتى لا يوصفوا بالجبن ومن ثم نستطيع أن نقول إن الرياء شعبة من شعب النفاق بل إنها لشعبة لها خطرها الذي يتهدد الدعوة والداعين إليها والمجتمع الإسلامي والمنتمين إليه .

الشعبة الخامسة والعشرون

الكذب

والذي أعجب مما مضى أن هؤلاء القوم إنما كانوا يرتكبون الآثام ويغضبون الله ورسوله وينشدون معصيته ومخالفة أمره .. ثم يأتون يقسمون بالله « إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » .. ثم يحلفون الأيمان المغلطة أنهم هم المؤمنون الصادقون ثم يؤكدون بالأيما المتتابعة ما فعلنا كذا .. ويحضرني في هذا قول الشاعر :

فلا تغررك ألسنةٌ رطابٌ بطائنهن أكباد صوادي

ولقد سقت قبل ذلك حديثين أحدهما مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه والآخر عن عبد الله ابن عمر .. وهما من الأحاديث المتفق عليها وجاء فيهما من

صفات المنافق « وإذا حدّث كذب » . . وسأتلو عليكم ما جاء في ذلك من كتاب الله محللاً ذلك وذاكراً أسباب النزول إن كان هنالك أسباب :

١ - ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً *﴾ (النساء ٦٢ ، ٦٣) .

ذلك أن المنافقين كانوا يعرضون عن حكم الله ورسوله ويتحاكمون الى غيره . . حتى إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم من الإثم والعدوان واحتاجوا إلى رسول الله ﷺ في ذلك إنما كانوا يأتون إليه مقسمين أنهم ما أرادوا بهذا التحاكم الى أعدائه إلا إحساناً وتوفيقاً بأن يداروهم ويصانعوهم . . وفي هذا الكذب الواضح . . والله تعالى يعلق على كلامهم هذا بأن طلب منه - عليه السلام - الإعراض عن هؤلاء القوم وعدم السماع لما يقولون لأنه تعالى يعلم ما احتوت عليه قلوبهم من الكذب والنفاق .

٢ - ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً *﴾ (النساء ١٠٨) .

وهذه الآية وغيرها من سورة النساء إنما نزلت في قصة بشر بن أبيرق سارق الدرعين وقومه الذين تشفعوا له عند رسول الله ﷺ . . والذي يهمنا أن نعرض له في هذه القصة والذي يتصل اتصالاً مباشراً بهذه الآية هو ما كان من أسيد بن عروة بن أبيرق وقومه حينما جاءوا فكذبوا على رسول الله ﷺ محاولين تبرئة بشر والصاق التهمة بآخر قيل إنه لبيد بن سهل . . ولم يستحوا من الله ورسوله . . وفي ذلك الكذب الظاهر والتضليل الواضح . . وقد نزلت هذه الآية تعيب عليهم ذلك وتفضحهم . . ولقد سبق أن ذكرت هذه القصة وتحدثت عنها .

٣ - ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً *﴾ (النساء ١١٣) .

وتشير هذه الآية إلى أن الكذب الذي حاولوا إدخاله على رسول الله ﷺ كاد

أن يثمر ويؤتي أكله .. وذلك أنه روى أن رسول الله ﷺ عنّف الشاكي وكاد أن يعلن براءة بشر لولا أن تداركه الله برحمته وأنزل عليه آياته التي فضحت المنافقين .

٤ - ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين *﴾ (التوبة ٤٣) .

إنما يعتب الله على رسوله إذنه للمنافقين بالتخلف عن الجهاد قبل أن يبدوا أعذارهم ويتبين الصادق منهم من الكاذب .. غير أن الله تعالى بدأ عتابه بالعفو والصفح فيقول جل من قائل « عفا الله عنك »[1] .. وقيل إن هذه الآية إنما نزلت في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .

٥ - ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون *﴾ (التوبة ٥٦) .

وفي هذه الآية رماهم الله تبارك وتعالى بالكذب في أوضع صورة .. الكذب في الإيمان والكذب في العقيدة .. ويبين لرسوله وللمؤمنين أن المنافقين إنما هم قوم اتصفوا بالكذب حتى لا يغتروا بالأيمان التي يقسمونها .. فيقول جلت قدرته « يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » .. يشير تعالى إلى حلفهم بالله أنهم مؤمنون ليموهوا على رسول الله ﷺ وعلى الصحابة رضوان الله عليهم ولكن الله يؤكد لهم أنهم ليسوا منهم .. وقد يتساءل إنسان ما : إذن فما الداعي لهذا الادعاء الكاذب ؟ .. والله تعالى لم يدع مجالاً لسؤال أحد فقال مجيباً على ذلك : « ولكنهم قوم يفرقون » .. ولكنهم قوم يظهرون إيمانهم فرقاً ورعباً وخوفاً منكم أن تفعلوا بهم كما تفعلون بالكافرين .

٦ - ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين *﴾ (التوبة ٦٢) .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال والله إن هؤلاء لخيارنا

---

(١) مروياً عن مجاهد وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأساري فأنزل الله ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ .

وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير . . . فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحقٌ ولأنت أشر من الحمار . . قال : فسعى بها الرجل الى النبي ﷺ فأخبره فأرسل الى الرجل فدعاه فقال : ما حملك على الذي قلت ؟ . . فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله الآية .

وسياق سبب النزول يبين لنا مقدار ما كان عليه هؤلاء من الكذب حتى أن نفاقهم ليوحى اليهم أن يقسموا الأيمان المغلظة ليرضوا بها المسلمين والله تعالى ينكر عليهم ذلك ويطالبهم أن يرضوا الله أولاً قبل أن يحاولوا ارضاء المسلمين بالكذب والتضليل ولن يرضوا الله إلا إذا صدقوا الإيمان وأحسنوا التوبة .

٧ - ﴿ولئن[1] سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ (التوبة ٦٥) .

ولقد سبق أن ذكرت سبب نزول هذه الآية بالتفصيل . . وذكرت أنها نزلت في وديعة بن ثابت ومن معه من المنافقين حينما كان رسول الله ﷺ خارجاً إلى غزوة تبوك . . وقال بعضهم لبعض (أتحسبون جلاد بني الأصفر « الروم » كقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الأصفاد) . . غير أنهم اعتذروا لرسول الله ﷺ حينما سئلوا في ذلك بقولهم « إنما كنا نخوض ونلعب » . . وفي هذا كذب ظاهر وتضليل واضح .

٨ - ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً : ما رأينا مثل قرآن هؤلاء ولا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء منهم . . فقال له رجل : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ . . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن ... قال ابن عمر فأنا رأيته متعلقاً بحقب رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . . ورسول الله ﷺ يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ . يقصد بنزول القرآن . . « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . . » الآية . . ثم أخرج من وجه آخر عن ابن عمر نحوه . . وسمى الرجل عبد الله بن أبيّ . . وأخرج عن كعب بن مالك قال مخشى بن حمير لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منكم مائة مائة على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن . . فبلغ النبي ﷺ فجاءوا يعتذرون فأنزل الله « لا تعتذروا » . . الآية ٦٦ فكان الذي عفا الله عنه مخشى ابن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً فقتل يوم اليمامة لا يعلم مقتله ولا من قتله .

وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ (التوبة ٧٤) .

لقد وردت في سبب نزول هذه الآية عدة روايات قد اخترت منها ما روى عن محمد بن إسحاق عن الزهدي عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال : « لما قدم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض الغلة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه . . وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي ﷺ الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير . . فسمعها عمير بن سعد فقال والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي بلاء وأعزهم على أن يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحني وإن كتمتها لتهلكني ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى . . فمشى الى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس . . فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليّ فأنزل الله عز وجل فيه ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ . . إلى آخر الآية . . فوقفه رسول الله ﷺ عليها[1] . . فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع (. . هكذا رواه الأموي في مغازيه . . وروى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق ما يقارب هذا) . . كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس نحواً منه وأخرج كذلك عن كعب بن مالك نحواً منه . . ولقد أخرج ابن سعيد في طبقاته نحواً منه عن عروة . . ولقد روى البخاري رواية أخرى وإن اختلفت مع هذه في وقائعها إلا أنها تتفق معها في المعنى الذي نقصده .

---

(١) علق ابن كثير على هذا بقوله « هكذا جاء هنا مدرجاً في الحديث متصلاً به وكأنه والله أعلم من كلام ابن اسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك .

نتبين من هذه القصة كيف أن هؤلاء القوم كانوا ينطقون كفراً حتى إذا ووجهوا بما قالوا أمام الرسول عليه السلام كانوا يحلفون الأيمان المغلظة محاولين تبرئة أنفسهم .. ولكن لم يكن الوحي بالذي يمهلهم وكم كان يفضح سرهم ويشهر بهم .. وإننا لنرى في هذه الآية حكماً صريحاً بكفرهم وتكذيبهم في لهجة التأكيد والتحدي (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) .

٩ - ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين *﴾ (التوبة ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦) .

تفيد هذه الآيات المعاني الآتية :

أ - إن المنافقين كانوا يحاولون الاعتذار عن عدم الخروج عقب عودة المؤمنين من القتال والله جل شأنه إنما يطلب من المؤمنين ألا يقبلوا منهم أعذاراً لأن الله نبأهم أخبار هؤلاء وكذبهم وعدم صدقهم فيما يقولون ثم يتوعدهم بأن أعمالهم سوف يظهرها للناس ويكشفها .

ب - أن الله عزت قدرته يخبر المؤمنين أن المنافقين سيحاولون الحلف لهم حتى لا يعاتبوهم وطلب منهم أن يعرضوا عنهم ولا يحاولوا أن يحاسبوهم لأنهم رجس لن يجدي معهم شيء .. وما كان لهم أن يصدقوا الحديث .

جـ - أنهم يحلفون بالله كذباً طلباً لرضائكم فإن قبلتم هذا فإن الله عز وجل ما كان ليرضى عن قوم عصوا رسوله وكذبوا عليه وحلفوا به كذباً وزوراً ليرضوكم متجاهلين رضاءه سبحانه وتعالى .

من هذه الآيات ومن ذلك التحليل العابر لها نتبين أن المنافقين إنما كانوا يلجأون إلى الكذب والخداع لتضليل رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم .

١٠ - ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * ﴾ (الفتح ١١ ، ١٢) .

أولئك الرهط من قبائل العرب الذين دعوا إلى الخروج مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فتخلفوا وكذبوا على رسول الله ﷺ معتذرين في تخلفهم بأن أموالهم وأهليهم قد شغلتهم .. والحقيقة أنهم ظنوا أن رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين لن يعودوا إلى المدينة سالمين إنما سوف يهلكهم الكفار .. لقد أخرهم جبنهم عن الخروج ولم تشغلهم حقاً الأموال والأولاد كما زعموا بل استباحوا لأنفسهم الكذب على رسول الله ﷺ ففضحهم الله وكشف أمرهم .

١١ - ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذاباً شديداً وإنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون *﴾ (المجادلة ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨) .

من هذه الآيات نستخلص الآتي :

أ ـ أن المنافقين إنما كانوا يوادون اليهود وهم أعداء المسلمين وينقلون إليهم أخبار المسلمين .

ب ـ أنهم[1] كانوا يرتكبون أعمالاً تغضب الله ورسوله حتى إذا سئلوا في

---

(١) وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ في ظل شجرة وقد كاد الظل أن يتقلص فقال : « إنه سيأتيكم انسان فينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه » .. فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فدعاه رسول الله ﷺ فقال له حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك فقال ذرني آتك بهم .. فانطلق فدعاهم فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا فأنزل الله ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ .. الآية المجادلة رقم ١٨ .. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس نحواً منه ولم يذكر أنه أعور .. وهكذا=

هذا أقسموا الأيمان المغلظة أنهم ما فعلوه . . ومن ذلك ما ورد في سبب نزول هذه الآيات أنه عليه السلام كان في حجرة من حجراته فقال : « يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان » فدخل عبد الله بن نبتل المنافق - وهو ابن نبتل بن الحارث المنافق - وكان أزرق . . فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك . . فحلف بالله ما فعل . . فقال عليه الصلاة والسلام : فعلت . . فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ .

جـ - إن المنافقين إنما يتخذون الأيمان الكاذبة تقية خوفاً على دمائهم وأنفسهم من المؤمنين .

د - يخبر الله تعالى عن مشهد من مشاهد الآخرة يوم يأتي سبحانه وتعالى بالمنافقين ليحاسبهم فيقسمون أمامه كذباً وتقية كما كانوا يقسمون للمؤمنين في الدنيا بلاهة منهم وظناً أن هذا سوف ينجيهم من عذاب الله[1] .

١٢ - ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جُنَّة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون *﴾ (المنافقون ١ ، ٢ ، ٣) .

من الآيات السابقة نخرج بالمعاني الآتية :

أ - أن المنافقين كانوا يأتون عقب كل جريمة يرتكبونها أو مؤامرة يكشفها الله يقسمون الأيمان المغلظة أنهم يؤمنون بأن الرسول حق ويؤكدون البيعة ويجددون الإيمان بالله ورسوله .

ب - أنهم كانوا يتخذون أيمانهم تقية خشية أن يبطش بهم الرسول عليه السلام وأصحابه . . فكانوا بكذبهم هذا يحاولون تضليل المؤمنين والتمويه

=روى الامام أحمد نحواً منه من طريقين عن سماك به ورواه ابن جرير عن محمد بن المثنى عن سماك به . . وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثوري عن سماك .

(١) وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : « ألم تر إلى الذين تولوا قوماً . . » الآية قال : بلغنا انها نزلت في عبد الله بن نبتل .

عليهم .. غير أن الوحي كان دائماً يكشف أعمالهم ويفضحهم .

جـ ـ الآية الثالثة توضح حالة من حالات الاضطراب في عقيدتهم .. ذلك أنهم آمنوا أول الأمر ثم كفروا .. فهم لا يستقرون على حال واحدة .

من الآيات التي سبقت جميعها .. ومما أوردته من التحليل لها تستطيعون أن تتبينوا كيف أن المنافقين إنما كانوا يرتكبون من الآثام أبشعها ويتطاولون على مقام رسول الله ﷺ فيما بينهم ويوادون من حاد الله ورسوله من أهل الكتاب وغيرهم .. ثم هم بعد ذلك لا يرون بأساً من الكذب .. والكذب الذي تؤيده الأيمان الباطلة والحلف بالله حتى يثبتوا بذلك أنهم مؤمنون بالله ورسوله وأنهم أبرياء مما قيل عنهم .. وما يقصدون بذلك إلا التضليل والتعمية حتى يأمنوا بأس المسلمين وحتى يطمئنوا على أرواحهم وأولادهم .. غير أن الوحي الذي كان يفضحهم كلما أقدموا على الشر أو فكروا فيه ما كان ليتوانى عن ذلك لحظة وإنما كان لهم بالمرصاد يوقف رسول الله والمؤمنين على حركاتهم أولاً بأول حتى لا يستفحل أمر هذه الفئة التي كانت تبغى للإسلام والمسلمين الشر وتتربص بهم الدوائر .

الشعبة السادسة والعشرون

إذا عاهد غدر

قد ورد في الحديثين اللذين سقتهما سابقاً عن صفات المنافقين أن هذه شعبة من شعب النفاق .. فلقد جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه « **حديث آية المنافق ثلاث ... وإذا وعد أخلف** » .. **وجاء في الحديث الثاني المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ... وإذا عاهد غدر** » ... وهما متفق عليهما .

ولقد وردت في القرآن عدة آيات تفيد هذا المعنى وتؤكده وسأسردها الواحدة تلو الأخرى متعرضاً لها ببعض التحليل :

١ - ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة[١] منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ (النساء ٨١) .

وواضح من هذه الآية أن المنافقين إنما كانوا يعطون رسول الله ﷺ العهد والميثاق على طاعته وتنفيذ أوامره حتى إذا خرجوا من عنده اتفقوا ليلاً فيما بينهم على غير الذي أعلنوه عند رسول الله ﷺ .. وفي هذا نقض للعهد والميثاق وخلف للوعد ظاهر وغدر بالعهود والمواثيق .

٢ - ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقنَّ ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ (التوبة ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨) .

ولقد روى في سبب نزول هذه الآيات أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري - وهو من الذين أورد ابن اسحاق أسماءهم من المنافقين - [٢] روى انه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله ان يرزقني مالاً .. قال فقال رسول الله ﷺ **« ويحك يا ثعلبة**

---

(١) طائفة منهم : هم المنافقون .

(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ : الحديث .. وذكر الواحدي نحواً من هذا الحديث مروياً عن أبي أمامة الباهلي قال : أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن الفضل حدثنا أبو عمرو محمد بن جعفر بن مطر قال حدثنا أبو عمر أن موسى بن سهل الحوش قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا محمد بن شعيب قال حدثنا معاذ بن رفاعة السلامى عن أبي عبد الملك علي بن يزيد أنه أخبره عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة بن حاطب أتى رسول الله ﷺ .. ثم ذكر الحديث .. وقد ذكر السيوطي في كتابه « لباب النقول في أسباب النزول » أن هذا الحديث أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلايل بسند ضعيف عن أبي أمامة وذكر أيضاً أن ابن جرير وابن مردويه قد أخرجا من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه .. وقد ذكر ابن حزم في كتابه المحلى تعليقاً حول ما روى من أن هذه الآيات إنما نزلت في ثعلبة بن حاطب وسأنقله نصاً « وقال تعالى ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله﴾ إلى قوله تعالى ﴿يكذبون﴾ قال وهذه أيضاً صفة أوردها الله تعالى يعرفها كل من فعل ذلك من نفسه وليس فيها نص ولا دليل على أن صاحبها معروف بعينه على أنه قد روينا أثراً لا يصح وفيه أنها نزلت=

قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » قال ثم قال مرة أخرى فقال « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت » قال والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه . . فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » قال فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ « ما فعل ثعلبة »؟. . فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : « يا ويح ثعلبة . . يا ويح ثعلبة . . يا ويح ثعلبة » وأنزل الله جل ثناؤه « خذ من أموالهم صدقةً » . . الآية ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهنية ورجلاً من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما « مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذا صدقاتهما » . . فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال : « ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا اليّ » . . فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر الى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما

= في ثعلبة بن حاطب وهذا باطل لأن ثعلبة بدري معروف حدثناه حمام حدثنا يحيى بن مالك بن عائذ حدثنا الحسن بن أبي عنان حدثنا زكريا بن يحيى الباجي حدثني سهل السكري حدثنا أحمد ابن الحسن الخراز حدثنا مسكين بن بكير حدثنا بن رفاعة السلالي عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة قال : جاء ثعلبة بن حاطب بصدقته إلى عمر فلم يقبلها وقال لم يقبلها النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا أقبلها قال أبو محمد : وهذا باطل بلا شك لأن الله تعالى أمر بقبض زكوات أموال المسلمين وأمر عليه السلام عند موته أنه لا يبقى في جزيرة العرب دينان . . فلا يخلو ثعلبة من ان يكون مسلماً ففرض على ابي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد ولا فسحة في ذلك وان كان كافراً ففرض ألا يقر في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك . . وفي رواية معان بن رفاعة والقاسم بن عبد الرحمن وعلي بن يزيد وهو أبو عبد الملك لهاني وكلهم ضعفاء ومسكين بن بكير ليس بالقوي » انتهى .

ولكنني أقول لو كان كل ما لدينا من روايات لهذا الحديث من هذه الطريق التي ذكرها ابن حزم لسلمنا معه بما يقول ولكنه روى من طريق أخرى هي طريق العوفى عن ابن عباس . . ولو لم يكن هذا هو المشهور في سبب نزول هذه الآيات والمأثور عن كثير من المفسرين لما حاججنا الامام أبا محمد في دعواه .

رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن تأخذ هذا منك .. فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي له . . فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال : أروني كتابكما . . فقرأه فقال : « ما هذه إلا جزية . . ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي » . . فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمى . . فأنزل الله عز وجل « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . . » الآية . . قال : وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا . . فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ **فسأله أن يقبل منه صدقته فقال** : « إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك » . . فجعل يحثو على رأسه التراب . . **فقال له رسول الله ﷺ** « **هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني** » فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً . . ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي . . فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها فمات (قبض) أبو بكر ولم يقبلها . . . فلما ولى عمر رضي الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي . . فقال : لم يقبلها ، رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟ . . فتوفي (قبض) ولم يقبلها . . فلما ولى عثمان رضي الله عنه أتاه فقال : إقبل صدقتي . . فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ . . فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة في خلافة عثمان . . (وقد روى ابن جرير هذا الحديث عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري . . وعلق ابن كثير على هذه القصة في تفسيره أن هذا هو المشهور في سبب نزول هذه الآيات . . كما أورد أبو السعود في تفسيره قصة ثعلبة وذكر أن هذا هو المشهور في سبب نزول هذه الآيات . . وأثر عن كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري رضي الله عنهما أنها في ثعلبة بن حاطب ومن سياق هذه القصة يتبين لنا أن هذا الرجل إنما أعطى الله موثقاً إن أعطاه من فضله لينفقن

في سبيله . . ولكنه بعد أن أعطي وكثر الله ماله غدر بعهده ونكص على عقبيه وبخل بماله وضن به ولذلك يقول الله تعالى في ذلك « فأعقبهم نفاقاً إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون» . . فلم يقبل الرسول عليه السلام توبته ولا الخلفاء الثلاثة من بعده . . وكان كل هذا نتيجة لغدره بوعد قطعه على نفسه وعهد تعهد الوفاء به . . . وكثير من الناس يظنون أن هذا لأمر هين . . يعد الرجل ثم يخلف ويعطي المواثيق والعهود ثم لا يفي بها . . أليست كلمات قيلت؟ وماذا عليه لو لم يبر بها؟ . .

ولقد ورد حديث عن عبد الله بن عمر يجدر بنا أن نذكره في هذا المقام :

روى أنه لما حضر عبد الله بن عمر الوفاة قال : « إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان مني اليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق . . أشهدكم أني قد زوجته ابنتي » . . ولقد روى هذا الحديث الإمام أبو بكر جعفر بن الفريابي في مؤلفه « صفة النفاق وذم المنافقين » عن عبد الله ابن عمرو لا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم جميعاً مع خلاف في اللفظ فقال :

١ ـ حدثني إسحاق بن راهويه أنبأنا عيسى بن يونس حدثنا الأوزاعي عن هرون بن زياب أن عبد الله ابن عمرو لما حضرته الوفاة خطب اليه رجل ابنته فقال له : « إني قد قلت فيه قولاً شبيهاً بالعدة واني أكره أن ألقى الله عز وجل بثلث النفاق » .

٢ ـ حدثني أبو بكر سعيد بن يعقوب الطالقاني حدثنا عبد الله بن المبارك عن الأوزاعي عن هرون بن زياب أن عبد الله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال : « انظروا فلاناً ـ لرجل من قريش ـ فإني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشبيه العدة وما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق وأشهدكم أني قد زوجته » فهذا عبد الله بن عمر أو عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم جميعاً لم يكن أعطى وعداً إنما هو شبه الوعد يخشى إن لم يحققه لقى الله بثلث النفاق . . أو ربما عرض لأحدهما من الأمر ما عرض للآخر فصدر عن كل منهما رضي الله عنهما ما أثر عنه . . وعلى كل . . فهذا خلق الصحابة رضوان الله عليهم . . فكيف بأقوام يبايعون الله ثم

ينقضون ؟ ويعدون ثم يخلفون ؟ ويعاهدون ثم يغدرون . . ويعطون مواثيق الله وعهوده ثم لا يوفون بل وبها يستهينون !! . . ذلك لعمري خلق من لا خلاق لهم ولا دين . . أولئك الذين صرفوا عن الحق وأعمى الله أبصارهم وبصائرهم فهم في ظلام الباطل يتخبطون .

٣ ـ ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولاً *﴾ (الأحزاب ١٥) .

ذكروا في سبب نزولها رأيين : الأول أن بني حارثة كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا ألا يعودوا لمثله . . وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن .

وعلى كل . . سواء كان سبب النزول هذا أو ذاك أو سبب آخر فإن الآية نزلت في المنافقين . . كانوا يولون الأدبار ويفرون من الزحف فعاهدوا الله ورسوله ألا يعودوا لمثله . . غير أنهم نقضوا العهد وغدروا بالوعد وعاودهم جبنهم حينما دعوا لمقابلة أعداء الله في غزوة الأحزاب .

٤ ـ ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين *﴾ (النور ٤٧) .

وهذه الآية إنما نزلت في المنافقين تصف حالة من حالات غدرهم وخلفهم لوعدهم . . ذلك أنهم كانوا يأتون رسول الله ﷺ ليؤكدوا له إيمانهم ويعاهدوه على الطاعة . . ثم بعد ذلك ينقضون هذه العهود ويحطمون المواثيق ولا يحترمون ما تعاقدوا عليه مع رسول الله ﷺ .

ومن هذه الآيات التي سقتها والأحاديث التي استشهدت بها نتبين أن خلف الوعد إنما هي خلة ملازمة للمنافقين(١) وأن الغدر بالعهد إنما هي شعبة

---

(١) يقسم المؤلف النفاق إلى اعتقادي وهو خاص بمن أظهر الايمان وأسر الكفر ، ونفاق عملي وهو خاص بالمؤمنين كخلف الوعد والبخل وقد فصل ذلك في مواضع متعددة كما اوضح ذلك بعد الكلام عن الشعبة الخمسين وبعنوان تذييل وتعقيب . الناشر .

من شعب النفاق . . وأن هؤلاء المنافقين إنما جبلوا على عدم احترام مواثيقهم والتقيد بوعودهم والمحافظة على عهودهم .

الشعبة السابعة والعشرون

الفجر في الخصام

أو الكيد للدعوة وقائدها

أو الكيد للإسلام والمسلمين

قد ورد في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً . . وإذا خاصم فجر »[1] .

ولقد وردت عدة آيات تخبرنا عن مقدار كيد هؤلاء للدعوة وقائدها . . وتحدثنا عما كانوا يدبرونه في الخفاء للنيل من الإسلام والمسلمين .

وقد يقول قائل منكم : وما صلة الفجر في الخصام بالكيد للدعوة وقائدها أو بالكيد للإسلام والمسلمين ؟ . . وأنا سأبين فيما سأقوله هذه الصلة وأوضحها .

وإليكم ما جاء في كتاب الله خاصاً بهذه الشعبة التي من الممكن أن نتخير لها أحد هذه الأسماء الثلاثة :

١ ـ ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ (النساء ١٠٨) .

أولئك الرهط من المنافقين الذين فجروا في خصامهم لله ورسوله حتى أنهم أعدوا في ظلام الليل قصة هي من نسج الخيال . . أرادوا فيها أن يدسوا على رسول الله ﷺ الزور والبهتان . . أولئك الرهط من بني أبيرق بشر وأقاربه الذين سبق أن أوردت قصتهم عن آخرها . . أولئك الذين كادوا أنّ يجعلوا رسول الله ﷺ يبرىء الظالم ويظلم البريء لولا لطف الله به . . وما كان له ﷺ أن يفعل ذلك . . حدثوني بربكم . . لولا عناية الله ولطفه . . وتصوروا معي

(١) رواه البخاري ومسلم صحيح الجامع الصغير حـ ١ ص ٣٠٦ الحديث ٩٠٢ .

مؤامرتهم قد أثمرت وآتت أكلها .. كم من البلبلة في الأفكار كانت ستحدث ... وأي تأثير كانت ستسببه في ضعفاء القلوب ومرضى النفوس .. حقاً إن هذا لهو الكيد للدعوة في شخص قائدها .. وإن هذا لهو التآمر على الإسلام والمسلمين .. وهل التآمر على رسول الله إلا تآمراً على الرسالة وأصحابها ؟! .. وهل يكون كل هذا إلا الفجر في الخصام ؟.. الخصام للدعوة وأصحابها ؟!

٢ ـ ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام *﴾ (البقرة ٢٠٤) .

وسبق أن ذكرت أن هذه الآية إنما نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ـ منافق يظهر إيمانه ويكتم كفره ـ .. والآية على كل تفيد العموم لا الخصوص .. والذي يهمنا أن نتعرض له هنا قوله تعالى « وهو ألد الخصام » .. يصفه تبارك وتعالى بالفجر في خصامه .. لا يتورع أن يلجأ إلى كل الطرق من كذب وافتراء وزور وبهتان لكي يكيد خصمه ولا يستحي أن يلجأ الى كل هذا لكي ينتقم من الإسلام والمسلمين أو يكيد للدعوة وقائدها .

٣ ـ ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير *﴾ (التوبة ٧٤) .

والذي يهمنا التعليق عليه الآن قوله تعالى **﴿وهموا بما لم ينالوا﴾** .. **ذكر المفسرون عدة أسباب لنزول هذه الآية أورد منها ما أورده البيهقي في كتابه « دلائل النبوة »** عن ابن إسحاق مروياً عن حذيفة **بن اليمان رضي الله عنه قال** : « كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به .. وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوق وعمار يقود .. حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها .. قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم فصرخ بهم **فولوا مدبرين فقال** لنا رسول الله ﷺ **(هل عرفتم القوم ؟)** .. قلنا : لا يا رسول الله قد كانوا

متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب . . **قال** : (**هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة** . . **وهل تدرون ما أرادوا** ؟) . . قلنا : لا . . قال : (أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ **في العقبة فيلقوه منها**) . . قلنا : يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ . . قال : لا . . أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم . . ثم **قال** : اللهم ارمهم بالدبيكة . . قلنا : يا رسول الله وما الدبيكة ؟ . . قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » .

ولقد أورد مسلم في صحيحه حديثين يؤكدان هذا الذي رواه البيهقي ويقطعان بصحته . . أما الأول **فهو ما رواه مسلم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال** : « **في أصحابي إثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون** ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط . . ثمانية منهم تكفيكهم الدبيكة سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم » .

أما الحديث الثاني الذي رواه مسلم هو : « قال : حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : « كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس . . فقال : أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال فقال له القوم : أخبره إذ سألك . . فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . . وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم وقد كان في حمرة يمشي فقال إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ » .

ولقد علق الإمام أبو محمد بن حزم على هذا الحديث في كتابه « **المحلى** » **بقوله** « وأما حديث حذيفة فساقط لأنه من طريق الوليد بن جميع وهو هالك ولا نراه يعلم من وضع الحديث فإنه قد روى أخباراً فيها أن أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أرادوا قتل النبي ﷺ وإلقاءه من

العقبة في تبوك وهذا هو الكذب الموضوع الذي يطعن الله تعالى واضعه فسبقط التعلق به والحمد لله رب العالمين » .

هذا تعليق ابن حزم على هذا الحديث قد سقته لأضع أمام كل طالب للحقيقة صورة كاملة أو قريبة من ذلك بقدر المستطاع .

ولقد كان حذيفة يقال له « صاحب سر رسول الله ﷺ » لمعرفته جماعة من المنافقين . . وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى عن ابن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس بن قنطي والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد وداعس من بني الحبلى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة ابن الحمام وهما من بني قينقاع أظهروا الإسلام .

هذه القصة أوردها المفسرون في سبب نزول قوله تعالى ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ . نعم . . هموا بما لم ينالوا . . لقد أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك غير أن الله ألقى في قلوبهم الجبن والروع وتلك طبيعة المنافقين . . نعم . . إنهم حقدوا على رسول الله ﷺ بغير ذنب أو جريرة « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » . . نعم وما نقموا عليه وما حقدوا عليه إلا لذنب واحد في عرفهم . . في عرف الغدر والخيانة . . ذلك أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ولذلك خاصموه وحقدوا عليه لأن زعيمهم ابن سلول قد حقد عليه وكرهه . . إذن يكون الفجر في الخصام . . ويبتكر الشيطان أحط الحيل وأدنأها ويوحي بذلك لأوليائه من هؤلاء المنافقين لينفذوها . . لماذا إذن لا يكون الكيد للدعوة وقائدها ؟ . . ولماذا لا يكون التآمر على سلامة الإسلام والمسلمين بالانتقام من شخص الرسول الكريم وزعيم الإسلام والمسلمين ؟ تلك لعمري الأساليب الشيطانية التي لا يعرفها إلا الأبالسة والمنافقون فهم عند الله وعند المؤمنين سواء . . وذلك وأيم الله لفجر وأي فجر في الخصام الذي لا دافع له إلا الحقد والضغينة .

٤ - ﴿إن[١] الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً *﴾ (الأحزاب ٥٧، ٥٨)

كيف يكون إيذاء الله ومن الذي يجرؤ أو يستطيع أن يؤذيه سبحانه وتعالى ؟! . . إن إيذاء الله ليس إلا إيذاء رسوله والكيد لدعوته وإيذاء المؤمنين والمؤمنات . . وهل يكون إيذاء الرسول عليه السلام وإيذاء المؤمنين والمؤمنات إلا كيداً أريد للدعوة ؟ . . فالذين يؤذون رسول الله ﷺ والمؤمنين سواء قولاً بالقدح في أعراضهم وافتراء الكذب عليهم واتهامهم بما لم يكتسبوا . . أو فعلاً بأن يكيدوا لهم أو يتآمروا ضدهم . . أولئك هم الفجرة الذين استباحوا الأعراض وانتهكوا الحرمات ليرضوا شهوة الحقد التي استقرت في أعماق قلوبهم .

٥ - ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم * ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيِّك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير *﴾ (المجادلة ٧ ، ٨) .

والآيتان[٢] نزلتا في المنافقين كانوا يتناجون مع اليهود فيما بينهم تآمراً وكيداً

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله « إن الذين يؤذون الله ورسوله » قال نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حي . . وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنزلت في عبد الله بن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة فخطب النبي ﷺ وقال من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني فنزلت .

(٢) يرجع إلى تفاسير ابن كثير وأبي السعود والبيضاوي وكذا أسباب النزول للواجدي ولباب العقول في أسباب النزول للسيوطي . . وردت روايات كثيرة تذكر أن آية « ألم تر الى الذين نهوا . . . » الآية قد نزلت في « نجوى اليهود » كما وردت روايات أخرى تذكر أن قوله تعالى ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ قد نزل في اليهود . . ومن ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان وما أخرجه أحمد والبزاز والطبراني بسند=

للدعوة وأصحابها حتى إذا مر بهم المؤمنون تغامزوا بأعينهم فنهاهم عن ذلك رسول الله ﷺ ولكنهم لم ينتهوا .. وكانوا إذا دخلوا على رسول الله عليه السلام قالوا : أنعم صباحاً أو السام عليك .. ولقد قالْ العوفى عن ابن عباس رضي الله عنهما (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) قال كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه سام عليك .. قال الله تعالى **﴿حسبهم جهنم ولبئس المهاد﴾** .. وقد ذكر الإمام الصفوي في تفسيره (جامع البيان في تفسير القرآن) في تفسير قوله تعالى **﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾** يقولون سام عليك والسام هو الموت .. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره قال : في الصحيح وعن **عائشة قالت « دخل يهود على النبي ﷺ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم .. فقالت عائشة : عليكم السام والذام واللعنة .. فقال ﷺ : إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش وإنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا »** .

وفيما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ما يبين مقدار حقد هؤلاء وبغضهم للإسلام والمسلمين وكرههم لرسول الله ﷺ .. ذلك الحقد وهذا البغض هو الذي كان يدفعهم لخصومة رسول الله عليه السلام .. وبالتالي الخصومة الشديدة للإسلام والمسلمين .. هذه الخصومة التي تسوقهم إلى الفجر .. فيتناجون فيما بينهم وبين اليهود ليحيكوا المؤامرات للإسلام والمسلمين وليدبروا المكائد للدعوة وقائدها ثم بعد ذلك يدفعهم رأيهم السفيه وإيمانهم الضعيف لأن يقولوا في أنفسهم « لولا يعذبنا الله بما نقول » ... يقولون لو كان هذا نبياً حقاً أما كان جديراً بربه أن يعذبنا بالذي ندبره له في الخفاء وما نكنه له في أنفسنا من بغض وحقد !!

جيد عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ « سام عليكم » ثم يقولون في أنفسهم (لولا يعذبنا الله بما نقول) فنزلت هذه الآية ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ .. وفي الباب عن أنس وعائشة .. غير أنه من المعروف أن المنافقين إنما كانوا يجالسون اليهود .. فجمعا بين الروايات التي جاءت تؤيد كلا الرأيين .. أقول أنه ليس هنالك ما يمنع أن تكون هذه الآيات نزلت لتعيب على المنافقين واليهود على السواء هذا الفعل الشنيع .. خاصة وأنه كان من اليهود أنفسهم منافقون .. ولقد جاءت رواية تؤكد الرواية التي ذكرت أن آيات النجوى نزلت في المنافقين : « أخرج ابن جرير عن قتادة قال : كانوا يتناجون بينهم وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم فأنزل الله ﴿إنما النجوى من الشيطان ..﴾ الآية المجادلة رقم ١٠ .

٦ ـ ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون *﴾ (المنافقون ٧ ، ٨) .

وسبب[١] نزول هاتين الآيتين أن رسول الله ﷺ كان قد خرج في غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة للهجرة وخرج معه كثير من المنافقين الذين لم يتعودوا الخروج معه إلا في الغزوات التي يتوقعون فيها الحصول على الغنائم . . فحدث في هذه الغزوة أن أجيراً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اسمه جهمان بن سعيد الغفاري أو ابن مسعود كان يقود فرساً فازدحم جهمان وسِنان بن وَبَر أو بن تميم الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار وصرخ جهمان : يا معشر المهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : ما بال دعوى الجاهلية . . فأخبر الخبر . . فقال : دعوها فإنها فتنة أو « دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة » ثم كلم عليه السلام الحليف وكان الأجير قد ضربه حتى سال دمه . . كلمه حتى أسقط حقه وانتهى الأمر على ذلك وسكنت الفتنة التي كاد لهيبها أن يشتعل . . غير أن ابن أبيّ رأس النفاق وزعيم طائفة الملعونين بلغه هذا الخبر وما كان له أن يضيع هذه الفرصة الذهبية حتى يوقد نار الفتنة ويكيد للإسلام والمسلمين . . وكان عنده جماعة من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلة . . أو قد فعلوها ؟ نافرونا في ديارنا . . والله ما نحن والمهاجرين إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . . أما والله « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . . ثم التفت إلى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم عُرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من

---

(١) مراجع هذه القصة : ١ ـ نور اليقين ٢ ـ سيرة ابن هشام ٣ ـ رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق :

عنده » . . فبادر زيد بن أرقم ـ وكان شاباً حدثاً مؤمناً ـ وأخبره عليه السلام بذلك فتغير وجهه ﷺ وقال : **يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت ؟ . .** فقال : **والله يا رسول الله لقد سمعته . . قال : لعله أخطأ سمعك . . ونزلت بعد ذلك سورة المنافقين تؤيد زيداً .**

هذه صورة من صور استغلال الفرص بل والتقاطها للكيد للإسلام والمسلمين والانتقام من الدعوة في شخص رسول الله ﷺ . . ولولا حكمة رسول الله ﷺ وإيمان الصحابة لاندلعت نار الفتنة ولتزعم ابن أبيّ حركة ثورية انتقامية . . . أي فجر هذا الذي يدفعه لمثل ما كان يعتزم أن يقوم به ؟ . . أجير وحليف يقتتلان ثم يصفى موضوعهما عليه السلام . . ولكن ذلك الخصم اللدود الفاجر في خصامه الذي يريد أن يقتنص أية فرصة للانتقام والكيد يأبى أن تضيع منه هذه الفرصة الذهبية حتى يؤلب المسلمين في زعمه ـ على الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى المهاجرين معه حتى أنه ليطلق عليهم كما أورد ابن إسحاق « والله ما أعدنا وجلابيب (لفظ أطلق عليهم للاستهانة والازدراء) قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك » ! . . انه ليطلق على المهاجرين لفظ « جلابيب » استهانة وازدراءً . . أي فاجر هذا يبغى الفتنة والكيد . . فذلك الرسول عليه السلام يصل إليه خبر هذه الفتنة التي أوشكت أن تندلع فيأمر من يؤذن في الناس بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه من قبل . . وفي وقت اشتد حره . . ولكنه أراد أن يشغل الناس عن الحديث في هذا الموضوع حتى أن أسيد بن حضير . وهو أحد زعماء الأنصار وسيد من أشراف الأوس ليدرك الأمر ويسأله عليه السلام عن السبب في هذا الرحيل الغريب . . فيقول عليه السلام : **أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟** . . فيقول أسيد : وأي صاحب يا رسول الله ؟ . . قال : عبد الله بن أبيّ . . **قال : وما قال ؟ . . قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** . . قال : **فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال : يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخزر ليتّوجوه فإنه ليرى إنك قد استلبته ملكاً .**

وهذا عمر رضي الله عنه يستأذن الرسول عليه السلام في قتله فيقول عليه السلام : « **كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه** » . . وهذا إبنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ يطلب منه عليه السلام أن يسمح له بقتله ولكنه يرده رداً جميلاً ويصرفه صرفاً حسناً ويقول : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

ما أكرمك من رسول تترفق بمنافق يأتمر بك وبدعوتك ثم بعد ذلك تدعو ولده الذي لم يستطع أن يتحمل صنيع أبيه أن يترفق ويحسن صحبته بدل أن يقتله . . حدثوني بربكم . . لولا حكمته عليه السلام وعناية الله تعالى التي كانت تحف بالمسلمين وإيمان الصحابة رضوان الله عليهم . ما الذي كان سيحدث بعد هذا الكيد . . إن المنافقين قد أكل الحقد قلوبهم واستولت الضغينة على نفوسهم فلا ينفذون إلا ما يأمرهم به شيطانهم بل شياطينهم . . وما أكثر هذه الشياطين التي تحالفهم وتأمرهم فيأتمرون بأمرها .

من هذه الأمثلة التي سقتها لكم نتبين أن « الفجر في الخصام » ليس إلا شعبة من شعب النفاق ولن يكون إلا كذلك ما بقيت السماوات والأرض . . وأنه ليس هنالك اختلاف كبير أو صغير بين الفجر في الخصام وبين الكيد للدعوة وقائدها أو الكيد للإسلام والمسلمين . . لأن الفجر في الخصام لن يكون إلا أحد نوعين : إما فجر في الخصام بين فاجر وفاجر وهذا لا حاجة لنا به . . وإما فجر في الخصام ضد مسلم مؤمن عامل . . فليس هذا ـ وإن قصد به العامل الشخصي البحت ـ إلا تعطيلاً لأعمال الدعوة الإسلامية وتحطيماً للوحدة التي هي أساس قوة المجتمع . . وفي هذا كيد للإسلام وهدم لأهدافه ومبادئه . . وحينما يكون الفجر في الخصام في صورة كيد موجه لشخص رسول الله ﷺ باعتباره قائداً للدعوة الاسلامية أو من يقوم مقامه عليه السلام من صحابته رضوان الله عليهم وأتباعهم باحسان الى يوم الدين . . أو كيد قصد به الدعوة في حد ذاتها فإن ذلك يكون أمراً أوضح لا يحتاج إلى مزيد من البيان .

الشعبة الثامنة والعشرون

الكبر

﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوْا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ (المنافقون ٥) .

وهذه الآية توضح لنا صورة يبرز فيها كبرياء المنافقين في صورة لا تستسيغها النفوس المؤمنة . . أولئك الذين كانوا يخطئون حتى إذا كلمهم المؤمنون في ذلك وطلبوا منهم أن يتوجهوا طالبين صفح رسول الله ﷺ راجينه الاستغفار لهم « لوّوا رءوسهم » كأن يلتفت يمنة وينظر بعينيه شذراً أو نحواً من هذا . . استكباراً وإعراضاً . . ثم يقول تعالى : **﴿ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾** . . ورأيتهم يعرضون عن الحديث أو عن المحدث وهم مستكبرون .

والمعروف أن سورة المنافقين إنما نزلت في الفتنة التي أراد أن يشعلها عبد الله بن أبيّ بن سلول . . كما أن هذه الآية إنما نزلت في حقه أيضاً حينما كلمه رجال من الأنصار أن يذهب إلى رسول الله ﷺ طالباً الاستغفار له فلوى رأسه وأعرض مستكبراً . . والآية وإن نزلت في حادثة معينة كما سبق أن أوضحت ذلك إلا أنها تفيد العموم وتبرز صفة من صفات المنافقين التي تمثلت في فعالهم وحركاتهم .

وقد يستهين إنسان ما بعقوبة هذا الخلق السيء . . إلا أنه ورد عن عمر رضي الله عنه في قصة ذهابه لتسلم القدس ولقاء أمراء الجيوش له واستنكاره ما أعدوه له من ثوب أبيض وبرذون مهلمج ـ وكانوا قد أنكروا عليه دخوله على الروم بحالته التي كان عليها من ثياب بالية ـ فروى عنه أنه قال أو قال نحواً من ذلك : « أقيلوا عثرتي أيها الناس أقال الله عثرتكم . . خذوا عني برذونكم (هو

---

(١) وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قيل لعبد الله بن أبيّ لو أتيت النبي ﷺ فاستغفر لك فجعل يلوي رأسه . . فنزلت فيه : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله . الآية » وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله .

حيوان بين الفرس والحمار أي البغل وقيل « الرهوانة ») وثوبكم الأبيض . . لقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل في قلبي من العجب . . واني سمعت رسول الله ﷺ يقول (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**)[1] ومن هذه الآية . . ومما أوضحته نرى أن الكبر صفة من صفات المنافقين وخصلة من الخصال التي لا ينبغي لمؤمن أن يتصف بها .

الشعبة التاسعة والعشرون

الظلم

﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون *﴾ (النور ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠) .

والذي نستخلصه من هذه الآيات المعاني الآتية :

أولاً ـ أن المنافقين ما كان لهم أن يرضوا بحكم الله ورسوله .

ثانياً ـ أنهم كانوا إذا رأوا أن الحق معهم جاءوا ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون أنه سيقضي لهم . . وإذا كان غير ذلك ذهبوا باحثين عن غيره وأبوا التحاكم إليه رغبة في ترويج باطلهم والحكم لهم ظلماً وجوراً . . وهذا هو منتهى الظلم والجور .

ثالثاً ـ ثم يتساءل الله جل وعلا لا عن جهل بحقيقتهم سبحانه وتعالى . . ولكن في لهجة التقريع والتوبيخ . . يتساءل : أفي قلوبهم مرض بأن لازمها شك في الدين وعدم الإيمان بالله ورسوله . . أم ارتابوا . . أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . . أم رأوا من الرسول عليه السلام تهمة ففقدوا فيه الثقة . . أم

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وله بقية هي [قيل إن الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس) صحيح الجامع الصغير للألباني حـ ٢ ص ٢٢٧ الحديث ٧٥٥١ .

يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ؟ ! . . ثم يعقب سبحانه وتعالى على ذلك ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ .

نعم . . وهل هنالك أظلم من المنافقين أو أشد منهم حرصاً على التعدي على حقوق المسلمين ؟ وهل هنالك صورة توضح الظلم في أبشع ما يكون أكثر مما وضحته هذه الآيات ؟ . . أقوام يريدون أن يحكم لهم سواء أكان معهم الحق أم لا . . أي ظلم بعد هذا الظلم . . ولقد نعتهم الله تعالى نعتاً صريحاً بقوله ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ . . . نعم . . إن الظلم صفة من صفات المنافقين وخلة ملازمة لا تفترق عنهم بحال من الأحوال . . فهي شعبة من شعب النفاق .

الشعبة الثلاثون
الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون *﴾ (التوبة ٦٧) .

نعم . . ما كانت سجية المنافق وطبيعته لتسمحا له بأن يشارك المؤمنين في أفكارهم وأفعالهم . . وما كان لهم أن يكونوا حريصين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ولكن على النقيض . . بقدر ما يهتم المؤمنون بهذا الخلق الكريم . . فإن هذا الصنف الخسيس من الناس يتفنن بل ويتقن تلك الأساليب الشيطانية الخطيرة لصرف الناس عن الخير وحضهم على المنكر .

أجل . . لقد كان ذلك نهجهم في حياته ﷺ وسيظل هذا نهجهم إلى أن يلقوا الله ووجوههم مسودة من سوء ما فعلوا وبما كانوا ينهون عن المعروف ويأمرون بالمنكر . . اللهم إلا من حباه الله بالتوبة . . . ألم يتقاعدوا عن الجهاد ويثبطوا الناس عن الخروج ؟ أو ليسوا هم الذين سعوا بالفتنة بين صفوف المؤمنين وأمروا الناس بالعصيان والخروج على طاعة الرسول ﷺ ؟ . . وهل

أضاع هؤلاء المنافقون فرصة أتيحت لهم للكيد للإسلام والمسلمين والتنكر لرسول الله ﷺ والائتمار به ودعوة الناس إلى ذلك .. هل أضاعوا أية فرصة دون اغتنامها والانتفاع من ورائها ؟

لقد فعلوا كل هذا وأكثر منه .. لقد دعوا إلى إشاعة الفشل بين صفوف المؤمنين وحاولوا ذلك بكل ما أوتوا من وسائل شيطانية .. ولقد تحدثوا في أعراض المؤمنين والمؤمنات ما وسعهم ذلك .. ولقد زينوا لكثير من المسلمين ذلك فوقع في هذا الإثم من اصابتهم الغفلة واستولى عليهم البله وجنت عليهم السذاجة .

إنكم لا تستطيعون تصور أي منكر إلا ودعوْا إليه وأمروا به وودوا لو وقع فيه المسلمون فيكونون في الإثم سواء « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » .. ولا تتخيلون أي معروف إلا ونهوا عنه وحاولوا الحيلولة بين فعله وبين المؤمنين .. ولم يدعوا طريقة للوصول إلى غايتهم إلا وعالجوها ولا سبيلاً إلا سلكوه ولا باباً إلا ولجوه .. فلعمري إن ذلك لفعل الشيطان وعمل الأبالسة الملاعين .. وهل تهدف الشياطين والأبالسة إلا للحيلولة بين الناس وبين ما هم مطالبون به من فعل الخير وإلا لإيقاع الناس فيما قد نهوا عنه من الإثم ؟ .. حدثوني بربكم لو لم يكن هنالك أبالسة وشياطين أما كان يكفي دعوة الشر أن يناضل عنها هؤلاء المنافقون ؟ ! .. إنهم لم يكتفوا بالوقوع في الإثم والانغماس في الشر فقاموا يعاونون الأبالسة فينهون عن المعروف ويأمرون بالمنكر .

الشعبة الحادية والثلاثون

البُخـــل

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون *﴾ (التوبة ٦٧) . ونحن نرى في هذه الآية قول الله تعالى في المنافقين **﴿ويقبضون أيديهم﴾** .. وقبض اليد إنما هو كناية عن الشح والبخل .. فلقد كان هؤلاء

القوم يضنون بالمال فلا ينفقونه في سبيل الله .

ولقد ورد في هذا المعنى من الأحاديث ما يقر هذا المعنى ويثبته في الأذهان ويوضح هذه الآية ويفسرها ويعطينا صورة ظاهرة لشح هؤلاء القوم وبخلهم منها ما رواه ابن عدي في الكامل وسكت عنه السيوطي في الجامع الصغير :

أ ـ عن ابن عدي في الكامل عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عليّ يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين » .

وإذا علمنا أن اليعسوب هو ملك النحل كما ذكر في مختار الصحاح لتبينا مدى حرص هؤلاء المنافقين على المال وما له من قيمة جوهرية في حياتهم حتى أنه عليه السلام شبه أهميته بالنسبة لهم كأهمية ملك النحل بالنسبة للخلية .. ولا شك أن ملك النحل يتمتع بحظوة طيبة عند أفراد مملكته .. ومما لا جدال فيه أنه لا قيام للخلية بدون ملك .. فكذلك فلا قيام للمنافقين في نظر أنفسهم بدون مال ولذلك فهم يحرصون عليه حرصاً شديداً ويبخلون به حتى في الأوقات التي يكون فيها المجتمع الإسلامي في أمس الحاجة إليه .

ب ـ وفي الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال لبني سلمة « من سيدكم يا بني سلمة ؟ » قالوا : الجد بن قيس علي أنا بنخله .. فقال رسول الله ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخل ! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » ولو علمنا أن الجد هذا هو أحد زعماء المنافقين وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: **﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾** (التوبة ٤٩) .. لو علمنا هذا لأدركنا أن الحديث ـ لا أقول جاء ليشد عضد المعنى الذي أدركناه من الآية أو مؤيداً له فالآية واضحة بمفردها قوية بنفسها صريحة في وصفها ـ وإنما أقول إن الحديث ألقى ضوءاً على المعنى الذي نقصده فجعله أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً .

وقد يستهين مسلم بهذه الصفة المرذولة وما لها من عقوبة عند الله .. أو

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٢ طبقة مصطفى محمد .

قد يستهين بها كجريمة يجني المتصف بها على المجتمع جناية خطيرة .. فنحن ندرك ذلك الحرمان الشديد الذي ينال أفراد المجتمع نتيجة للشح البغيض .. ونحن نقدر ما ينتاب المجتمع الإسلامي من نكبات نتيجة حتمية للبخل الشديد وذلك حينما يدوي نفير الجهاد وتكثر النفقات وتصبح الدولة مهددة بالهزيمة إن لم يتداركها بنوها بالمال ويشدوا أزرها بما اختزنوه من ذهب وفضة ليسدوا ما تحتاجه من لوازم عديدة .. فقيمة المال لا تقدر حينما تهدد البلاد المجاعات أو يقض مضجع أبنائها القحط .. ولست أريد أن أستطرد في التعداد والحصر فالأمثلة كثيرة .. ولكنني أقول إن الشريعة الإسلامية قد اعتبرت هذه الصفة صفة بشعة خطيرة وجسَّمت عقوبتها .. ولقد وردت في ذلك الأحاديث الكثيرة .. أذكر منها على سبيل المثال :

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ولا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد أبداً » .. رواه النسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم واللفظ له كما أخرجه الجامع الصغير[١] .

ونحن نرى في هذا الحديث كيف أن رسول الله ﷺ قد نفى إمكان الجمع بين صفتين اعتبرهما متباينتين تمام التباين ومتضادتين تمام التضاد وهما : البخل والإيمان .. فلا يمكن وجودهما في قلب فرد واحد .. فإما مؤمن ليس في قلبة مثقال ذرة من بخل .. وإما بخيل قد نفى عنه ﷺ كمال الأيمان بسبب هذا البخل .

٢ ـ وروى نافع قال : سمع ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يقول « الشحيح أعذر من الظالم .. فقال ابن عمر : **كذبت ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول : الشحيح لا يدخل الجنة » . رواه الطبراني في الأوسط .**

وفي هذا الحديث نرى قول رسول الله ﷺ بصراحة ووضوح أن الشحيح لا يدخل الجنة .. وهذا مبالغة في زجر البخلاء حتى ينتهوا عن بخلهم ويتخلوا

---

(١) صحيح الجامع الصغير حـ ٢ ص ٢١٥ الحديث ٧٤٩٢ .

عما اتصفوا به من الشح والأحاديث في هذا كثيرة ، ومؤداها أنه لا يدخل الجنة وهو شحيح بل تطهره النّار أولا من الشح ثم يدخل الجنة لأنه مؤمن يصدق فيه قول الله تعالى **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** .

الشعبة الثانية والثلاثون

تتبُّع عورَاتِ المسُلمين

(١) وذلك لقوله تعالى :

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع[1] الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (النور ١٩) .

(٢) ولقوله تعالى :

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ (الأحزاب ٥٨) .

والمعروف أن هاتين الآيتين إنما نزلتا في حق المنافقين .

(٣) وللأحاديث الآتية :

أ ـ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال (صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله » . . ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وما أعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال فيه : يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تطلبوا عثراتهم . . . الحديث »

ب ـ وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا

---

(١) يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا : أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح .

معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته » رواه أبو داود عن سعيد بن عبد الله بن جريج عنه . . ورواه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث البراء .

ففي هذين الحديثين النداء موجه إلى قوم أظهروا الإسلام ولما يدخل الإيمان قلوبهم . . وهذه صفة أهل النفاق والشقاق . . فالنهي موجه للمنافقين عن تتبع عورات المسلمين مما يدل على أن هذا خلق من أخلاقهم وصفة ملازمة لهم .

جـ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (**قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « تدرون أربى الربا عند الله ؟ »** . . قالوا : الله ورسوله أعلم . . قال: « فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم » . . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا** ﴾) رواه أبو يعلى ورواته رواة الصحيح .

الشعبة الثالثة والثلاثون
تعيير المسلمين

في الحديث السابق الذي سقته في الشعبة السابقة والذي رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عنه ﷺ **بلفظها : يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تطلبوا عثراتهم . . . الحديث »** .

الواضح أن رسول الله ﷺ إنما كان ينهي المنافقين عن تعيير المسلمين بما ينسبونه إليهم من خلق سيء أو أفعال مذمومة . . . . وما إلى ذلك . . وهذا في الحق خلق دنيء لا يلجأ إليه إلا كل من ضعف الإيمان في قلبه . . خلق لا يتفق والرجولة ويتنافى مع الكرامة . . ولكن المنافقين هم الذين لا يدركون للرجولة معنى ولا يتذوقون للكرامة طعماً لا يمكن أن تسمو أخلاقهم عن الصغائر أو تترفع عن الترهات نفوسهم .

الشعبة الرابعة والثلاثون

الغيـــبة

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته » رواه أبو داود عن سعيد بن عبد الله بن جريج عنه . . **ورواه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث البراء .**

والحق أن هذه الشعبة والشعبتين اللتين سبقتاها إنما هي أفرع من شعبة إيذاء المسلمين . . ولكن . . لأهميتها بالنسبة للقيم الأخلاقية وورود كل منها في مكان خاص بها سواء في آيات أو أحاديث . . وما رأيناه من أن التخصيص إنما هو زيادة في النفع ومبالغة في الزجر وأجدى للنهي . . كل هذه الأسباب مجتمعة هي التي دفعتني إلى التخصيص دون التعميم وإفراد شعبة لكل خلة من هذه الخلل الذميمة .

ولقد وردت إلينا الأحاديث الكثيرة التي تنهي المؤمنين عن الغيبة أذكر منها قول رسول الله ﷺ :

١ ـ قال أبو داود حدثنا القعنبي حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن العلاء عن أبي هريرة أنه قال : يا رسول الله ما الغيبة ؟ . . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » . . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ . . قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . . وهكذا رواه الترمذي عن قتيبة عن الدراوردي به ثم قال حسن صحيح .

٢ ـ ولقد قال الله تعالى في النهي عن الغيبة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ (الحجرات ١٢)

الشعبة الخامسة والثلاثون

تقطيع الأرحام

لقوله تعالى :

﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ (محمد ٢٢)

والمعلوم أن الخطاب في هذه الآية موجه للمنافقين .. والمفسرون لهم آراء في قوله تعالى ﴿ إن توليتم ﴾ أذكر منها ما يراه البعض من أن ﴿ التولي ﴾ بمعنى النكوث والتخلف عن الجهاد .. والبعض يرى أن التولي هنا بمعنى تولى أمور الناس وتزعمهم ... وعلى كلٍّ فالآية تنهي هؤلاء القوم عن الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام .. وإن كانت الآية إخباراً عما في المستقبل إذا ما تولوا أمور الناس إلا أنه تعالى لسابق علمه ومكنون غيبه يعلم أن هذا من خلقهم وإن كانت الآية إخباراً عن أمر لم يكن قد حدث .

وعلى كل حال فإن هذه الآية تدلنا على أن من أخلاق المنافقين تقطيع[1] الأرحام وفصم عرى المودة والصلة .. وهذا خلق منهي عنه مرذول .

ولقد وردت أحاديث كثيرة تنهي عن هذا الفعل الذميم أذكر منها :

١ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر » رواه ابن حبان وغيره .

٢ ـ وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قاطع » .. قال سفيان يعني قاطع رحم .. رواه البخاري ومسلم والترمذي .

---

(١) ويوضح هذا ما رواه المفسرون من أن الأخنس بن شريق الثقفي وهو أحد زعماء المنافقين بيت أهله ثقيف وحرق زرعهم وأهلك مواشيهم .. وهذا تقطيع للرحم .. ويؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن السدى في سبب نزول « ومن الناس من يعجبك .... » وإن كانت الرواية لم ترد فيها صراحة أن الناس الذين أحرق زرعهم وأهلك سرهم هم عشرية ... (سبق ذكره بهامش الشعبة الأولى) .

٣ - روى الطبراني مختصراً أن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم » .

الشعبة السادسة والثلاثون

التكاسل عن أداء الصلاة

وذلك لقوله تعالى :

(١) ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ (النساء ١٤٢) .

ويبدو أن المنافقين كانوا يتكاسلون عن أداء الصلوات . . ولقد روى أنهم كانوا يحضرون صلاة النهار لا تعبداً وإنما رياء وتمويهاً . . وكانوا يتغيبون عن صلاة العشاء والفجر حيث لا يراهم الناس .

(٢) ﴿ فويل[1] للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * ﴾ (الماعون ٤ ، ٥) .

قال ابن عباس وغيره يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر . . ولهذا قال ﴿ للمصلين ﴾ الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون . . إما عن فعلها بالكلية كما قاله ابن عباس . . وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية كما قاله مسروق وأبو الضحى . . وقال عطاء بن دينار : الحمد لله الذي قال ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون . . وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً . . وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به . . وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها . . فاللفظ يشمل ذلك كله . . ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية . . ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملي . . **كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :**

---

(١) أخرج ابن المنذر عن طريف بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ فويل للمصلين . . . ﴾ الآية قال نزلت في المنافقين كانوا يراءون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية .

« تلك صلاة المنافق . . تلك صلاة المنافق . . تلك صلاة المنافق . . يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » . . فهذا أخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً . . ولهذا قال : لا يذكر الله فيها إلا قليلاً . . ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه الله فهو كما إذا لم يصل بالكلية . (تفسير ابن كثير) .

وللأحاديث الآتية :

أ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حِزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » . . رواه البخاري ومسلم . . وفي رواية لمسلم أن رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات فقال : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ولو علم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً لشهدها » يعني صلاة العشاء . . وفي بعض روايات الإمام أحمد لهذا الحديث « لولا ما في البيوت من النساء والذرية أقمت صلاة العشاء وأمرت فتياني يحرقون ما في البيوت بالنار » .

ب ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظن » . . رواه البزار والطبراني وابن خزيمة في صحيحه .

جـ ـ وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح فقال : « أشاهد فلان ؟ » قالوا : لا . . قال : « أشاهد فلان ؟ » . . قالوا : لا . . قال : « إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الركب » . . . الحديث رواه أحمد وأبو داود وابن حبان في صحيحيهما والحاكم .

د ـ ومن حديث طويل لابن مسعود رضي الله عنه قال : « ولقد رأيتنا وما

يتخلف[1] عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي بين الرجلين حتى يقام في الصف » . . وفي رواية : « لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق معلوم النفاق أو مريض إن كان الرجل ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة » . . **وقال** : « **إن رسول الله** ﷺ علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه » رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه (قوله : يهادي بين الرجلين يعني يرفد من جانبيه ويؤخذ بعضده يمشي به إلى المسجد .

الشعبة السابعة والثلاثون
منع الماعون عن الناس

وقبل أن أتحدث عن هذه الشعبة قد يقول قائل : ما هو الماعون ؟ وأنا أجيب على ذلك فأقول : إن الماعون هو كل معاونة بمال أو منفعة أو غيره . . ولقد قال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال وأداة المنخل والدلو والإبرة . . رواه ابن أبي حاتم . . ولقد قال محمد بن كعب « ويمنعون الماعون » قال : المعروف . . **ولهذا جاء في الحديث « كل معروف صدقة »** .

وهذه إحدى شعب النفاق العملية وذلك لقوله تعالى :

﴿ **فويل للمصلين** الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون * ﴾ (الماعون ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) .

فمنع المعروف عن الناس عمل ذميم لا يقدم عليه إلا كل من كان لئيم الطبع شحيح النفس وضيع الخلق . . ومن ثم كان هذا العمل إحدى شعب النفاق العملية . . لأن المؤمن بطبعه محب للخير . . إنساني بطبعه وسجيته . . يقدم المعروف للناس . . شغوف بمساعدتهم . . نبيل الخلق كريم النفس عالي الروح والقلب . . يأبى أن يتنزل إلى هذا المستوى الوضيع فينسلخ من وداعة خلقه ويخرج على العالم بطباع وحشية قد جمعت بين الشح والأنانية في آن واحد . . .

---

(١) عنها : يعني صلاة الجماعة .

ولقد روى البزار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ظهرت لهم الصلاة فقبلوها وخفيت لهم الزكاة فأكلوها أولئك هم المنافقون » .

الشعبة الثامنة والثلاثون
لا يذكرون الله إلا قليلا

وذلك لقوله تعالى :

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * ﴾ (النساء ١٤٢) .

ولقد قال ابن قيم الجوزية في كتابه (الوابل الصيب) : (إن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل . . قال الله عز وجل في المنافقين **﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾**وقال كعب « من أكثر ذكر الله عز وجل برىء من النفاق » .

ولهذا ـ والله أعلم ـ ختم تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله * ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾** . . فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل فوقعوا في النفاق .

وسئل بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الخوارج : منافقون هم ؟ قالوا : لا . . المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً . . . فهذا من علامة النفاق : قلة ذكر الله عز وجل . . وكثرة ذكره أمان من النفاق . . والله عز وجل أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق . . وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل) .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق . . تلك صلاة المنافق . . تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا **قليلاً** » .

الشعبة التاسعة والثلاثون

الافتتان بالمعاصي واللذات

وذلك لقوله تعالى :

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل إرجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * ﴾ (الحديد ١٣ ، ١٤) .

ففي هاتين الآيتين مساجلة لحوار بين المنافقين والمؤمنين يوم القيامة .. فالمنافقون يسألون المؤمنين متعجبين لما وضعوا فيه من عذاب بينما يرون المؤمنين في رغد ونعيم .. يسألونهم في دهشة : ألم نكن معكم ؟! .. فيجيبونهم قائلين « بلى .. ولكنكم فتنتم أنفسكم » .. قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات .. وقال بعض المفسرين : « أي فتنتم أنفسكم بنفاقكم » ... والآية تحتمل الوجهين .. ثم ذكروا لهم بعد ذلك ما كانوا يرتكبونه من آثام .

الشعبة الأربعون

الريبة والشك في الدين

ففي الآيتين السابقتين (١٣ ، ١٤ سورة الحديد) المساجلة التي تكون بين المنافقين والمؤمنين يوم الحشر والتي ذكرها الله تعالى لأن علمه سابق .. ومن بين الذنوب التي عدها لهم المؤمنون والتي حالت بينهم وبين رحمة الله : الريبة والشك في الدين .. وذلك لقوله تعالى « وارتبتم » .

ولقد قال ابن القيم في كتابه « الطب النبوي » :

« المرض نوعان : مرض القلوب ومرض الأبدان وهما مذكوران في

القرآن . . . ومرض القلوب نوعان : مرض شبهة وشك ومرض شهوة وغي . . وكلاهما في القرآن . . قال تعالى في مرض الشبهة (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ . . وقال تعالى في حق من دعى إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾ . . فهذا مرض الشبهات والشكوك . . وأما مرض الشهوات فقال تعالى : ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ . . فهذا مرض شهوة الزنا والله أعلم » .

الشعبة الحادية والأربعون

الغـرور بالأمـاني

وذلك لقوله تعالى في الآيتين السابقتين (١٣ ، ١٤ من سورة الحديد) : « وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » .

والغرور بالأماني كأن يزعم المرء أنه سيغفر له فيصرفه ذلك عن الإنابة إلى ربه . . أو يتوهم أن عمره سوف يطول فيرجىء التوبة . . أو تلهيه دنياه عن طاعة ربه ويصرفه ماله وجاهه عن جادة الصواب . . ويحسب أن كل ذلك سوف يكون له بمنجاة من العذاب وأن الله لن يسويه بالفقراء والمعدمين والضعفاء والمحرومين ! . . لعمري إن هذا لهو الشطط ! وهل يشفع المال والجاه عند رب العالمين ؟!

أجل . . تلك عقليات المترفين . . وذلك تفكير المخدوعين . . وفي الحديث قوله ﷺ : « ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل » .

الشعبة الثانية والأربعون

النميمة

وذلك لقوله تعالى :

﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكمْ سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾ (التوبة ٤٧) .

فقوله تعالى **﴿ولأوضعوا خلالكم﴾** معناه « ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالمشي بالنميمة » بغية إحداث الفتن وانقسام الصفوف . . وذلك كما حدث في غزوة بني المصطلق مثلاً من ابن أبيّ حين سعى بين الأنصار والمهاجرين بالنميمة ليوقع بينهم العداوة ويستغل الموقف وتكون الثورة ويكون الخروج على الإسلام والمسلمين . . ولكن الله سلم ورد بن ابن أبيّ بكيده خائباً محزوناً ولعمري إنَّ النميمة فعلة خسيسة وخصلة لا يتخلق بها إلا كل لئيم الطبع ، ولا يلجأ إليها إلا كل فاقد لمعاني الانسانية والكرامة . . ولقد ذم الله تعالى النميمة بقوله جلت قدرته : « هماز مشاءٍ بنميم » . . **وقد روى البخاري في صحيحه في باب حسن الخلق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت انسانين يعذبان** في قبورها **فقال** : يعذبان وما يعذبان في كبير وإنه الكبير . . كان أحدهما لا يستتر من البول وكان الآخر يمشي بالنميمة . . ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين أو نصفين فجعل كِسرة في قبر هذا وكسرة في قبر هذا فقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا) .

الشعبة الثالثة والأربعون

اللمز والهمز

١ ـ وذلك لقوله تعالى :

---

(١) اللمز : هو العيب وأصله الاشارة بالعين أو غيرها .

(٢) الهمز : وهو كاللمز معنى .

﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ (التوبة ٥٨) .

٢ ـ وقوله تعالى :

﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ (التوبة ٧٩)

والآيتان إنما نزلتا في المنافقين . . ولقد شرحت الأولى عند الحديث عن الأنانية . . وتحدثت عن الثانية عند حديثي عن شعبة إيذاء المؤمنين .

٣ ـ ولقوله تعالى :

﴿ويل لكل همزة لمزة[1]﴾ (الهمزة ١) .

ولقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : نزلت[2] في الأخنس بن شريق .

الشعبة الرابعة والأربعون
البـــذاء

وذلك لقوله ﷺ :

« البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » . . رواه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة . . وروى عن قرة بن إياس رضي الله عنه قال : « كنا عند النبي ﷺ فذكر عنده الحياء فقالوا : يا رسول الله الحياء من الدين ؟ . . . فقال رسول الله ﷺ : بل هو الدين كله . . ثم قال رسول الله ﷺ : إن الحياء والعفاف والعي عن اللسان لا عن القلب والعفة من الإيمان وإنهن يزدن في الآخرة وينقصن من الدنيا وما يزدن في الآخرة أكثر مما ينقصن من الدنيا وإن الشح والفجر والبذاء من النفاق وإنهن يزدن في الدنيا وينقصن من

(١) الهمزة واللمزة : بمعنى عياب .
(٢) نزلت : يعني سورة الهمزة .

الآخرة وما ينقصن من الآخرة أكثر مما يزدن في الدنيا » . . رواه الطبراني باختصار وأبو الشيخ في الثواب واللفظ له .

والبذاء هو « الفحش » . . ولقد وردت أحاديث كثيرة تنهى المؤمنين عن هذه الفعلة الذميمة أذكر منها :

١ ـ قال ﷺ : « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » . . رواه النسائي في السنن الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله ابن عمر ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

٢ ـ وقوله ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » رواه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفاً قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح .

٣ ـ قال ﷺ : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو . . حتى أنه ﷺ نهى عن سب قتلى بدر من المشركين فقال ﷺ :

٤ ـ « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء . . ألا إن البذاء لؤم » رواه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلاً ورجاله ثقات . . وللنسائي من حديث محمد بن عباس بإسناد صحيح أن رجلاً وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه . . الحديث . . وفيه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .

الشعبة الخامسة والأربعون

البيان

وذلك لقوله ﷺ :

« البذاء والبيان شعبتان من النفاق »[1] .

(١) رواه أحمد حـ ٥ ص ٢٦٩ ورواه الترمذي باب البر ص ٧٨ .

قال الغزالي في كتابه : « إحياء علوم الدين » :

« فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه . . ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف . . ويحتمل أيضاً البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فإن إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب . . ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه فإن الأولى في مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان » .

الشعبة السادسة والأربعون

الإكراه على البغاء

وذلك لقوله تعالى :

﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرهُنّ فإن الله بعد إكراهن غفور رحيم *﴾ (النور ٣٣) .

والحق أنني أرى أنه لزاماً عليّ زيادة في إيضاح هذه الآية أن أسوق لكم بعض ما ورد في أسباب النزول :

(١) أخرج مسلم من طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله بن أبيّ يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً . . فأنزل الله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء . . الآية » .

(٢) وأخرج أيضاً من هذا الطريق أن جارية لعبد الله بن أبيّ يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء . . » الآية .

٣ ـ وأخرج البزاز والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : كانت لعبد الله بن أبيّ جارية تزنى في الجاهلية فلما حرم الزنا قالت : لا والله لا أزني أبداً . . فنزلت ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء . . ﴾ الآية .

٤ ـ وأخرج سعيد بن منصور عن شعبان عن عمرو بن دينار عن عكرمة أن عبد الله بن أبيّ كانت له أمتان مسيكة ومعاذة فكان يكرههما على الزنا فقالت إحداهما : إن كان خيراً فقد استكثرت منه وإن كان غير ذلك فإنه ينبغي أن أدعه .. فأنزل الله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء . . » الآية .

٥ ـ وروى أبو داود الطيالسي عن سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبيّ كانت تزنى في الجاهلية فولدت أولاداً من الزنا فقال لها مالك لا تزنين . . قالت والله لا أزنى فضربها . . فأنزل الله عز وجل **﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء . .﴾** الآية .

٦ ـ **وقال السدي : أنزلت هذه الآية الكريمة في** عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية **إلى أبي بكر رضي الله عنه فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فأمره** بقبضها فصاح عبد الله بن أبيّ : من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا . . فأنزل الله فيهم هذا .

هذا بعض ما ورد في أسباب النزول ذكرتها لأبين أن هذه الآية إنما نزلت في أحد زعماء المنافقين . . وهذا عمل تأبى الإقدام عليه النفوس الكريمة وتمجه الأرواح الطاهرة وتعافه القلوب المؤمنة .

وقد يتساءل إنسان ما : وهل معنى هذا أن كل عمل ذميم تقدم عليه نفوس المنافقين يعد شعبة من شعب النفاق ؟ . . وأنا أقول : إذا كنا نعتبر أن كل عمل مرغوب فيه شعبة من شعب الإيمان فإن كل عمل تعافه النفوس المؤمنة وتنفر منه الأرواح السامية وتتميز به في ميدان الخسة هذه الطغمة الخبيثة من البشر فهو شعبة من شعب النفاق . . ولست أقول أن هذه الأعمال إنما هي وقف عليهم . . فقد تهوى الى حضيضها بعض النفوس التي أصاب قلوبها ضعف ومرض . . . ولا أقول أن هذا إنما يكون كافياً لاضافة أسمائهم الى قائمة المنافقين . . أعني بسجل العار والرذيلة وبكتاب الخزي والفضيحة . . إنما بقدر ما تلوثت نفوسهم برجس هذه الشعب حوت قلوبهم بهذا القدر من آثار النفاق وأدرانه .

والحق الذي لا مراء فيه أن الإكراه على البغاء عمل بشع لا تقدم عليه إلا النفوس الوحشية . . وهل حوت الأرض وحشية بقدر ما حوته قلوب المنافقين وصدورهم .

الشعبة السابعة والأربعون

المــــذاء

وذلك لما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : الغيرة[1] من الإيمان وإن المذاء من النفاق » . . وذكر القزويني في كتابه مختصر شعب الإيمان للبيهقي في الشعبة الثانية والسبعين قال : « قال الحليمى : هو أن يجمع بين الرجال والنساء ثم يخليهم يحاذي بعضهم بعضاً وأخذ من المذى . . وقيل : هو إرسال الرجال مع النساء .من قوله (مذيت الفرس إذا أرسلتها ترعى) » .

ولقد ذكر الشيخ منير الدمشقي في تعليقه على كتاب « مختصر شعب الإيمان » ص ٢٣٦ قال : « يقال أمذى الرجل وماذى إذا قاد على أهله » ويروى المذال من النفاق « باللام وهو أن يقلق الرجل وينزعج عن فراشه الذي يضاجع عليه حليلته ويتحول عنه ليفترشه غيره » . . وذكر في تعليقه على نفس الكتاب ص ٣٢٨ قال :

« وقوله إن المذاء من النفاق حيث أنه أراد ألا يحفظ زوجته بالسماح لغيره بأن يختلي بها الذي أقل درجاته المذاء مقدمة غيره من المفاسد فهو عدا نفاقه لا شرف عنده إذ أعرب بعمله هذا عن انحطاطه وسوء خلقه وقلة حيائه وفقد الغيرة فهو كأنه لا يريد له نسلاً حلالاً وصار أحط من البهائم التي تغار على أنثاها فالكلب خير منه لأن عنده من الغيرة ما يخاصم غيره إذا أراد إشراكه . . نعم . . إن له شبهاً في الخنزير الذي لا غيرة عنده ولا يتأثر بذلك . . ولو أمعنت النظر وفحصت المسألة لوجدت ان غالب الذين يأكلون لحم هذا الحيوان النجس لا غيرة عندهم فهم أصل جرثومة الفساد وعلة نشرها وتعميمها » انتهى .

---

(١) (الهامش غير واضح في الأصل ويرجع اليه في صفحة تلحقه بصفحة ١٧٨)

والحقيقة أن الاتصاف بمثل هذه الخلة عمل دنيء خسيس لا يرضاه إنسان طرق الإيمان قلبه بل لا يرضاه رجل أحس بكرامته وتمسك برجولته وأحس بأن الشرف هو أثمن ما يملكه الانسان في حياته مهما كانت عقيدته مشركاً كان أو كافراً . . نصرانياً أو يهودياً . . ماجوسياً أو زنديقاً . . كل ذلك لا تأثير له ما دام الرجل متمسكاً برجولته مصراً على المحافظة على شرفه .

غير أن هنالك طائفة واحدة أو إن شئت قل فئة من الناس هي التي دائماً لا ترضى لنفسها إلا دنيء الفعل وخسيس الخصال . . ولا تتخذ لنفسها إلا كل ما يهدر الكرامة ويصم نفوسهم بالخزي والعار . . تلكم الفئة هي فئة المنافقين . . فلا غرابة إذن إذا علمنا أن المذاء صفة من صفات المنافقين وخلة لا تلازم إلا منافقاً خالصاً أو إنساناً خالط قلبه قدر من النفاق . . أما المؤمنون فيأبى عليهم إيمانهم ذلك ولا تسمح لهم كرامتهم بمثل هذا وتمج ضمائرهم اليقظة مثل هذا ولا توحي اليهم إلا المحافظة على الشرف والتمسك بأهداب الغيرة .

الشعبة الثامنة والأربعون

مَنعُ الزّكاة

لقد روى البزار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ظهرت لهم الصلاة فقبلوها وخفيت لهم الزكاة فأكلوها . . أولئك هم المنافقون » .

ولقد ذكرت في الشعبة السادسة والعشرين قصة ثعلبة بن حاطب وكيف أنه غدر بوعده ومنع الزكاة عن عامل رسول الله ﷺ وكيف أن الله أنزل في ذلك قوله تعالى : **﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾** . . . . إلى قوله تعالى : **﴿ علام الغيوب ﴾** (التوبة الآيات من ٧٥ إلى ٧٨) .

ولقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين :

﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن

اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * ﴾ .

قد روى البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . وإقام الصلاة . . وإيتاء الزكاة . . والحج . . وصوم رمضان » . . أورده مسلم أيضاً .

ويوم أن فاضت روح رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان أول شيء حاول هدمه المنافقون هو ركن الزكاة . . ولكن قيض الله للاسلام أبا بكر الصديق رضي الله عنه حيث عقد أحد عشر لواء لإعادة الخارجين على الإسلام إلى حظيرته . . سواء في ذلك المرتدين مانعي الزكاة رغم معارضة الصحابة بادىء الأمر في حربهم ومجاهدتهم . . فلقد وصف ابن قتيبة في كتابه « الإمامة والسياسة » هذه الحالة فقال :

« ولما تمت البيعة لأبي بكر واستقام له الأمر اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب . . فنصب لهم أبو بكر الحرب وأراد قتالهم فقالوا : نصلي ولا نؤدي الزكاة . . فقال الناس : إقبل منهم يا خليفة رسول الله فإن العهد حديث والعرب كثير ونحن شرذمة قليلون لا طاقة لنا بالعرب مع أنا **قد سمعنا رسول الله ﷺ يقول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)** . . فقال أبو بكر : (هذا من حقها لا بد من القتال) . . فقال الناس لعمر : اخل فكلمه لعله يرجع عن رأيه هذا فيقبل منهم الصلاة ويعفيهم من الزكاة . . فخلى به عمر نهاره أجمع فقال : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين **وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة »** . . فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصر دونهن . . فضرب منهم من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس في الاسلام طوعاً وكرهاً وحمدوا رأيه وعرفوا فضله .

قال ابو رجاء العطاردي : رأيت الناس مجتمعين وعمر يقبل رأس أبي بكر ويقول : أنا فداؤك لولا أنت لهلكنا . . فحمد له رأيه في قتال أهل الردة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر . . وكفر من كفر من العرب . . فقال عمر : : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى . . فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة من المال . . والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . . . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (رواه الجماعة إلا ابن ماجه لكن في لفظ مسلم والترمذي وأبي داود : لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه بدل العناق .

وهكذا نرى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد ألهمه الله السداد فتمكن من القضاء على الفتنة في مهدها وأخذ على أيدي المنافقين سواء منهم الذين أرادوا منع الزكاة أو أولئك الذين ارتدوا على أدبارهم . . وكتب الله للإسلام أن يحيا من جديد على يديه .

وقد قال الإمام أبو بكر الغريابي في مؤلفه صفة النفاق وذم المنافقين : حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا وكيع عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال : « المنافق الذي إذا صلى راءى بصلاته وإن فاتته لم يأس عليها ويمنع زكاة ماله » .

السمة التاسعة والأربعون

يَقولون مَا لا يفعَلُون

قال الإمام أبو بكر الفريابي في مؤلفه صفة النفاق وذم المنافقين :

(١) حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا حسين المعلم عن ابن بريدة عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان » . . وروى هذا الحديث عن عمران بن الحصين

أيضاً الطبراني في الكبير والبزار ورواته محتج بهم في الصحيح .

وكذلك قال :

(٢) حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر بن سليمان عن المعلي بن زياد عن أبي عثمان الهندي قال : سمعت عمر بن الخطاب وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول : « إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة : المنافق العليم » . . قيل : وكيف يكون المنافق العليم ؟ قال : « عالم اللسان جاهل القلب والعمل » .

كما جاء في نفس المؤلف الحديثان التاليان :

(٣) **حدثنا أحمد بن خالد الخلال** حدثنا أبو سلمة الخزاعي أنبأنا الوليد بن المغيرة أبو العباس المصري ـ ولم أر بمصر كان أثبت منه ـ حدثنا حشرج بن هاعان عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ **أنه كان يقول : « أكثر منافقي أمتي قراؤها »** .

(٤) **حدثنا محمد بن الحسن البلخي أنبأنا** عبد الله بن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن شريح المعافري حدثنا شراحبيل بن يزيد عن محمد بن هديه عن عبد الله بن عمرو بن العاص **قال : قال رسول الله ﷺ « أكثر منافقي أمتي قراؤها »** .

في الحديث الأول يبدي رسول الله ﷺ تخوفه على أمته من كل منافق عليم اللسان . . ولقد أبان عمر رضي الله عنه لنا من هو المنافق عليم اللسان . . فأخبر عنه بأنه : عالم اللسان جاهل القلب والعمل . . . وهذا الذي يقوله عمر رضي الله عنه لا نستطيع فهمه إلا على أنه هو ذلك المنافق الذي يقول قولاً ويعمل عملاً مخالفاً . . وما أكثر هؤلاء وما أخطرهم . . . والله تعالى يقول في حق المنافقين **﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾** . . . ويقول الشاعر :

فلا تغررك ألسنة رطاب ... بطائنهن أكباد صوادي

أما الحديثان الثالث والرابع فهما عن هؤلاء القراء : القراء للقرآن والقراء

للعلم .. أولئك الذين يقرأون على الناس ولا يعملون بقراءتهم .. ولعل الحديث الذي ذكره أبو بكر الفريابي في مؤلفه السابق ذكره يوضح لنا هذا المعنى .. قال الإمام أبو بكر :

حدثنا تميم بن المنذجر أنبأنا اسحاق بن يوسف عن زكريا بإسناده مثله سواء حدثني زكريا بن يحيى البلخي حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن أبي حصين عن زياد بن جدير قال : قال عمر بن الخطاب : « يهدم الاسلام ثلاث : زلة عالم .. وجدال منافق بالقرآن .. وأئمة مضلون » .

وليس أخطر على الأمة الاسلامية من نفاق قرائها وعلمائها الذين لا يعملون بما يقرأون .. وما أضل الأمة الإسلامية وعبث بعقولها ولعب بلبها وسبب لها النكبات إلا أمثال هؤلاء .. ولقد سبق أن تعرضت لنفاق قارىء للقرآن ذلك الرحال بن عنفوة الذي أعان مسيلمة الكذاب على أمره .. قال الله تعالى ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين** ﴾ .

قال الإمام أبو بكر الفريابي في مؤلفه السابق :

أخبرنا أبو خالد يزيد بن خالد بن موهب الرملي بالرحلة سنة اثنتين وثلاثين .. حدثنا الليث بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب الزهري أن أبا إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني أخبره أن يزيد بن عميرة ـ وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس « الله حكم قسط .. تبارك اسمه .. هلك المرتابون » .. وقال معاذ بن جبل يوماً « إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والحر والعبد فيوشك قائل أن يقول : « ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ؟ ما هم بمتبعيّ حتى أبتدع لهم غيره » فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة .. وأنذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق » .

وقال أيضاً :

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع عن الأعمش وسفيان عن أبي المقدام ثابت بن هرمز عن أبي يحيى قال : سئل حذيفة : من المنافق ؟ قال : « الذي يصف الاسلام ولا يعمل به » .

الشعبة الخمسون

اتّباع الهوى

قال تعالى :

﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ محمد (١٦)

ولقد تعرضنا[١] لهذه الآية شرحاً في الشعبة الخامسة وذكرنا أنها نزلت في المنافقين . . إذ كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه . . ويسمعه المنافقون فلا يعونه . . فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : « ماذا قال آنفاً ؟ » أي ماذا قال الساعة . . استهزاء وإعلاماً بأنهم ما كانوا ملتفتين إليه مستمعين له .

فوصفهم الله تعالى بأنهم أولئك الذين ختم على قلوبهم فلا يدخلها الهدى . . ثم قال تعالى : « واتبعوا أهواءهم » . . وهذا وصف للمنافقين هو اتباعهم الهوى وعدم الرضوخ لمنطق الحق والإيمان والعزوف عن أوامر الله تعالى وأحكام دينه والانقياد الأعمى للشيطان لا يفكرون في شيء . . والله تعالى يقول : **﴿ إن الذين آمنوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾** . . أما أولئك المنافقون الذين يتبعون الهوى وينقادون له فهم أسوأ خلق الله جميعاً لأنهم بالانقياد للهوى أوردوا أنفسهم موارد الهلاك وأتوا أعمالاً

---

(١) يرجع للشعبة الخامسة في سبب نزول هذه الآية .

ما كان ينبغي أن تصدر عن أقوام زعموا أنهم ينتسبون للاسلام . . والإسلام براء من أعمالهم الخبيثة وأفعالهم الذميمة .

وقد قال الإمام أبو بكر الغريابي في مؤلفه السابق :

١ ـ حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا مبارك بن فضالة حدثنا الحسن في هذه الآية (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) ـ قال : « هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه » .

٢ ـ وقال : حدثنا هدية بن خالد حدثنا همام بن يحيى عن قتادة (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال « إذا هوى شيئاً ركبه » .

٣ ـ وقال أيضاً : حدثنا أحمد بن خالد حدثنا شعيب بن حرب حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال « المنافق يعبد هواه لا يهوى شيئاً إلا ركبه » .

تذييل وتعقيب

هذا ما هداني الله إلى استنباطه من كتابه العزيز وبما منَّ علينا من حديث رسول الله ﷺ . . وهذا ما استطعت أن أخرجه من شعب النفاق .

وإنني بذلك لن أستطيع القول بأنني قد عثرت على كل شيء أو قد أخرجت كل ما يمكن إخراجه من شعب النفاق . . ولكنني أستطيع أن أقول أن هذا هو الذي وفقني الله إليه وهداني إلى تخريجه .

ولقد سبق أن بينت في أول حديثي عن هذه الشعب أنه ليس من الضروري أن يحوي قلب كل منافق جميع هذه الشعب . . وليس من الضروري أن يتصف بجميع هذه الصفات حتى نحكم عليه أو نثبت عليه صفة النفاق .

ولقد استنبطت من الأحاديث والآيات صفات إذا اجتمعت في شخص واحد كان منافقاً خالصاً . . ولقد مرت علينا شعب يكفي للمتردي فيها ـ قائمة بذاتها ـ أن تثبت عليه صفة النفاق كالردة مثلاً وكبعض أبواب الخيانة العظمى أو كلها . . ومن هذه الشعب التي أوردتها ما إذا اتصف بها مسلم أو تمكنت من قلبه ـ أعني بواحدة منها ـ كان به شعبة من شعب النفاق . . وأحب أن أذكر في

هذا المجال موضحاً ما ذكره ابن كثير في تفسيره[1] .. قال : « فنخلص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان : مقربون وأبرار .. وأن الكافرين صنفان : دعاة ومقلدون .. وأن المنافقين أيضاً صنفان : منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق ... كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ : « **ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً** ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » . استدلوا به على أن[2] الانسان قد تكون فيه شعبة من ايمان وشعبة من نفاق .. إما عملي لهذا الحديث أو اعتقادي كما دلت عليه[3] الآية كما ذهبت إليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتي ان شاء الله .

قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعني شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد قال : **قال رسول الله ﷺ** :

« **القلوب أربعة** : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر . وقلب أغلف مربوط على غلافه .. وقلب منكوس .. وقلب مصفح .. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره .. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر .. وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم انكر .. وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » **وهذا إسناد جيد حسن** انتهى .

ومن هذا الذي تقدم ندرك أنه كما للإيمان شعب فإن للنفاق شعباً .. وأنه قد يكون الفرد منافقاً خالصاً أو قد يحوي قلبه إيماناً ونفاقاً .. وقد يغلب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٦ .

(٢) ويمكن الاستدلال على ذلك أيضاً بالحديث السابق ذكره والذي رواه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وهو قوله ﷺ : « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » فهذا يوضح ان للنفاق شعباً كما أن للايمان شعباً .

(٣) الآية ٢٠ من سورة البقرة .

الإيمان على النفاق وقد يغلب النفاق على الإيمان كما هو واضح من الحديث الذي ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد . . . ويتفاوت ذلك القدر الكامن في قلب الإنسان من نفاق قلة وكثرة بمقدار خطورة الشعبة أو الشعب التي استقرت في ذلك القلب وتأصلت . . ولعل أكبر شاهد على ما أقوله من أن النفاق له كمية تقل وتكثر وتزداد وتنقص حديث : « **ثلاث من كن فيه . .** » **وحديث** « **أربع من كن فيه . . .** » **وهو مروى عن عبد الله بن عمرو وهو متفق عليه . . .** وذلك الأثر الذي ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه :

روى أنه لما حضر عبد الله بن عمر الوفاة قال : « إنه كان خطب إليّ ابنتي رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أني قد زوجته ابنتي » . . وهذا الحديث المعنى به النفاق العملي .

وإننا لنستطيع أن نستدل أيضاً على أن المنافقين قسمان : خُلَّص وهم الذين ضرب لهم المثل الناري الذي جاء في الآيتين ١٧ ، ١٨ من سورة البقرة . . ومنافقون مترددون بين الكفر والإيمان وهم في حيرة من أمرهم تارة يظهر لهم بريق الإيمان وضوؤه فيتبعونه وأخرى يخبو فيتخبطون في دياجير الظلام ويتيهون في بيداء النفاق . . وهؤلاء هم الذين ضرب لهم المثل المائي في الآيتين ١٩ ، ٢٠ من سورة البقرة . . وهذا التقسيم الأخير إنما قصدت به النفاق العقيدي . . فنحن حينما تحدثنا عن النفاق في قاموس الشريعة إنما قسمناه إلى عقيدي وعملي .

والنفاق العملي أيضاً نستطيع أن نقسم منافقيه إلى قسمين متباينين : أولهما منافقون خلّص وأقرب صورة لذلك ما ورد بحديثي « **ثلاث من كن فيه** » و « أربع من كن فيه » . . وأما الفرقة الثانية من حملة النفاق العملي فأولئك الذين اتصفوا بخلة أو أكثر مما صورته الأحاديث الواردة في ذلك كالحديثين السابقين وكحديث « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » الذي رواه الحاكم وصححه وكالحديث الذي ذكره الإمام أبو بكر الفريابي في مؤلفه السابق قال : حدثنا اسحاق بن راهويه حدثنا النضر بن شميل **حدثنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال** : « ثلاث من كن فيه فهو منافق : **إذا**

حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » . . قال رجل : يا رسول الله ذهبت اثنتان وبقيت واحدة ؟ . . قال : **« فإن عليه شعبة من نفاق ما بقي فيه منهن شيء »** .

بقي أن نرد على شيء واحد . . أولئك الذين زعموا أنه لا نفاق بعد عهد رسول الله ﷺ كالمرجئة وغيرهم . . وهو زعم لا شك باطل . . فالنفاق باق ما بقي في الأرض إيمان كما أن الشر باق ما بقي في الأرض خير . . وإذا كان هنالك على عهد صاحب الدعوة وزعيمها وقائدها ومعلمها . . أقول إذا كان على عهده نفاق وهو المؤيد بالوحي الذي يطلعه ربه على ما شاء سبحانه وتعالى من الأمر . . المؤيد بقوة السماء . . فكيف لا يكون اليوم نفاق سواء منه العقيدي والعملي . . ولقد أورد الإمام أبو بكر الفريابي في مؤلفه صفة النفاق وذم المنافقين آثاراً بمزاعم من قال : إنه لا يوجد نفاق اليوم والرد على ذلك . . أسوق منها الآتي :

قال الإمام أبو بكر الفريابي :

١ ـ حدثنا محمد بن السري العسقلاني حدثنا زيد بن أبي الزرقاء عن سفيان الثوري قال : « خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث : نقول الإيمان قول وعمل وهم يقولون الإيمان قول ولا عمل . . ونقول الإيمان يزيد وينقص وهم يقولون لا يزيد ولا ينقص . . ونحن نقول : النفاق وهم يقولون لا نفاق » وروى في الرد على الذين يقولون لا نفاق . . قال :

٢ ـ حدثنا أبو قدامة عبيد الله بن سعيد السرخس بالفرياب سنة سبعة وعشرين سمعت عبد الرحمن بن مهدي عن سلام بن أبي مطيع (ح) وحدثنا يعقوب بن إبراهيم الدروقي ببغداد سنة أربع وثلاثين ومائتين حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سلام ابن أبي مطيع : سمعت أيوب وعنده رجل من المرجئة فجعل الرجل يقول : إنما هو الكفر والإيمان . . وأيوب ساكت . . قال . . فأقبل عليه أيوب فقال : « أرأيت قوله (وآخرون مرجئون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أمؤمنون هم أم كفار ؟ » . . قال : فسكت الرجل . . فقال

أيوب « إذهب فاقرأ القرآن فكل آية في القرآن فيها ذكر النفاق فإني أخافها على نفسي » .

٣ ـ وقال : حدثني أبو عمر بن النحاس الرملي حدثنا ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب قال: قيل للحسن يا أبا سعيد اليوم نفاق ؟ . . قال « لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها » حدثنا صفوان بن صالح حدثنا ضمرة حدثنا ابن شوذب عن الحسن قال : « لا تقوم الساعة حتى يسود كل قوم منافقوها » .

وهذا الذي ذكرته آنفاً إنما يقطع السبيل على مزاعم كل من ادعى عدم وجود نفاق بعد عهد رسول الله ﷺ . . وينير الطريق أمام كل باحث عن الحقيقة .

خطورة المنافقين

إنني لم أكد أنتهي من حديثي معكم عن شعب النفاق حتى ملئت نفسي يقيناً أنكم قد أدركتم خطر هذه الفئة الملعونة . . وإني لأجدني مضطراً أن أحدثكم اليسير عن خطورتهم . . ولكنني أشعر أنني لست في حاجة إلى الاسهاب والتطويل . . فالحق أن كل ما سبق ليس إلا صورة واضحة بل ناطقة لهذه الخطورة الجسيمة . . ولقد سبق أن أوضحت أن هؤلاء ليسوا خطرين في ذاتهم لأنهم أتفه من أن يقال ذلك في حقهم . . ولكن سر خطورتهم أنهم يعملون من وراء الكواليس ومن خلف الصفوف . . . وما أشبه هؤلاء الأبطال الذين لا يدبرون إلا في الخفاء ولا يعملون إلا في ظلام الليل بل الظلام الدامس . . ما أشبههم بتلكم الخفافيش التي تهوى الظلام وتحبه ولا تعشق الحياة إلا فيه حتى إذا بدى نور الصباح تضاءلت عن مجابهته وعجزت عن مقاومته وما كان للعاجز إلا أن يبحث عن شيء يختبىء فيه فراراً وضعفاً . . نعم . . ما أشبه هؤلاء السادة الأبطال بتلكم الخفافيش ! . . وهل هنالك سيادة أعز ولا بطولة أمجد من تلكما اللتين يكونان الأسوة فيهما ذلك الخفاش الحقير ؟! ألا ساءت الأسوة وساء المبتغى لها والباحث عنها .

يقولون إن الخفافيش تعيش على دماء غيرها من الحيوانات . . غير أن

هذه الخفافيش الآدمية تأبى إلا أن تعيش على دماء الآدميين ولحومهم . . وإذا كان ذلك الحيوان الضئيل ترفع عن اتخاذ دماء بني جنسه غذاء له . . فإن ذلك الصنف الحقير من الناس لم يأب على نفسه أن يتنزل الى ذلك المستوى الدنيء بل ولم يترفع عن ذلك .

أجل . . إن خطورة هؤلاء القوم أفظع من أن توصف بل وأكبر من أن تتسع لها صفحات السجلات وبطون الكتب والأسفار . . ولقد صور القرآن الكريم خطورة هؤلاء القوم في مواضع كثيرة . . وجاء قوله تعالى مبيناً لفظاعة جرمهم وبشاعة نواياهم السيئة . . ولقد مررنا على آيات كثيرة تصف أحداثاً جساماً أذكر منها قوله تعالى :

﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾ وقال تعالى : **﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾** . . وقال جل شأنه **﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾** . . والآيات في ذلك كثيرة .

ولقد وردت أحاديث في هذا الشأن أذكر من جملتها هذين الحديثين :

● **عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ** « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم باللسان » رواه الطبراني في الكبير والبزار ورواته محتج بهم في الصحيح .

● **وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :** « إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً . . أما المؤمن فيحجزه إيمانه وأما المشرك فيقمعه كفره . . ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون » رواه الطبراني في الصغير والأوسط من رواية الحارث وهو الأعور عن علي والحارث هذا رواه وقد رضيه غير واحد .

وروى الإمام أبو بكر الفريابي في مؤلفه السابق قال :

حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي أنه سمع الحسن يقول « إنما الناس ثلاثة نفر : مؤمن ومنافق وكافر . . فأما المؤمن فعامل بطاعة الله وأما الكافر فقد أذله الله تعالى كما رأيتم وأما المنافق فها هنا وها هنا في الحجر والبيوت والطرق . . نعوذ بالله والله ما عرفوا ربهم بل عرفوا إنكارهم لربهم بأعمالهم الخبيثة . . ظهر الجفا وقل العلم وتركت السنة فإنا لله وإنا إليه راجعون . . حيارى سكارى ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا مجوساً فيعذروا » . .
وقال : « إن المؤمن لم يأخذ دينه عن الناس ولكن أتاه من قبل الله عز وجل فأخذه . . وإن المنافق أعطى الناس لسانه ومنع الله قلبه وعمله . . محدثان أحدثا في الإسلام : رجل ذو رأي سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه فسل سيفه وسفك دماء المسلمين واستحل حرمتهم . . . ومترف يعبد الدنيا . . لها يغضب وعليها يقاتل ولها يطلب . . . وقال : يا سبحان الله ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها . . وما رق مرق من الدين فخرج عليها صنفان خبيثان قد غما كل مسلم . . يا ابن آدم دينك دينك فإنما هو لحمك ودمك فإن تسلم فيا لها من راحة ويا لها من نعمة . . وإن تكن الأخرى فنعوذ بالله فإنما هي نار لا تطفأ وحجر[1] لا يبرد ونفس لا تموت » .

نعم . . إن المنافق هو الذي يجب أن يخشاه رسول الله ﷺ على أمته . . ولئن عصم الله تعالى عهد رسوله من الاضطرابات الخطيرة التي كانوا ينوون إحداثها . . ولئن وقف لهم الوحي في عهده عليه السلام بالمرصاد يطلع المسلمين على نواياهم الخبيثة أولاً بأول . . ما أرادوا شراً إلا وكشف حقيقته قبل أن يهدفوا إليه . . وما ابتغوا فتنة إلا وكشف عنها قبل أن يحققوا مأربهم . . نعم . . وقف لهم الوحي يطلع رسول الله على كل شيء . . . يهتك أستارهم ويكشف عن مكنون أسرارهم ويضيق عليهم ويحول بينهم وبين ما يشتهون . . . وإذا كان في عهد الرسول عليه السلام وحي ينبىء ويخبر ويكشف ويجلي . . فلقد انتهى الوحي بعد أن ذهب الرسول إلى ربه وفاضت روحه إلى بارئها . .

---

(١) ذكر ناشر هذا المؤلف المرحوم الأستاذ محمد حامد الفقي أنه وجدها هكذا في الأصل وقال لعلها (وجحيم) .

وعصفت بالإسلام زوابع كم استغلها هؤلاء المنافقون .. بل كم كانوا هم مصدرها ومنبعها .

والحقيقة ... لو أننا أمعنا النظر في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما قام فيه من قلاقل بعد ذهابه ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. لو أمعنا النظر في ذلك وفي الدوافع الحقيقية لما أسموه فيما بعد بحروب الردة .. لعلمنا أن النفاق كان أكبر دافع لهذا الانتقاض على سلطان الخليفة .. بل أكبر دافع للخروج على روح الإسلام وتعاليمه والثورة على نصوصه وأحكامه .. فالحقيقة التي لا جدال فيها أنه لم يخرج على الإسلام مؤمن عمر قلبه بالإيمان .. ولم يرتد عن الإسلام رجل انبثق نور اليقين في صدره فانقشعت أمامه سحب الضلال وبدد ذلك النور ظلام الكفر .. والحقيقة أيضاً أنه لم يرتد عن الإسلام إلا رجل ضعفت عقيدته أو كان في قلبه مرض .. أولئك الذين أقبلوا على الإسلام رغبة أو رهبة .. رغبة في مغنم أو رهبة من مغرم يلحق بهم .. حتى إذا فاضت روح رسول الإسلام إلى بارئها وأسرعت إلى لقاء ربها راضية مرضية .. ظنوا وسرعان ما كذب ظنهم .. ظنوا أن الفرصة أصبحت مواتية للتخلص من ذلك الدين الجديد أو أن القدر قد ساق الظرف الذي لا يعوض .. فانقادوا خلف شياطينهم .. وسرعان ما برزت رءوس الفتنة وانتشر لهيب الثورة .. ثورة الخروج على الدين والمروق منه .

نعم .. لقد مرق من الدين أولئك الذين توافدوا عليه وخلت قلوبهم من نور الإيمان وضيائه وبعدت أرواحهم عن جمال الحقيقة وتردت في مهاوى الفتنة والضلال .. فتضاءلت نفوسهم عن فهم تلك الحقائق العليا وعجزت عن الوصول إلى كريم معانيها وبعيد مراميها .. لقد أعلنوها حرباً على الإسلام زعموا أنها سوف تأتي على الأخضر واليابس .. ولكن سرعان ما ارتطمت رءوسهم بالواقع الذي هبط بعقولهم من سماء الخيال والوهم إلى أرض الحقيقة والواقع .. نعم .. لقد أعلنوها حرباً وأرادوها فتنة .. ولكن سرعان ما خرجت إليهم ليوث الإسلام وأسوده وسلطت على رقابهم سيوفه وسددت إلى نحورهم أسهمه ورماحه .. فهل استطاعت تلك الذئاب الضارية أن تصمد ؟

وهل أتيح لهذه الفئران المستأسدة أن تقاوم ؟! كلا ثم ألف كلا . . ما كان لها إلا أن تأوى الى جحورها تجر أذيال الخيبة والهزيمة . . نعم . . لقد عادت الأفاعي إلى جحورها واختبأت الفئران في شقوقها وأذن الله لجنده أن تنتصر وأخمدت نيران فتنة كادت أن تلتهب . . وهكذا شاء الله للإسلام أن يسترد هيبته وأن يستعيد مكانته .

إن الباحث المدقق لن يكلفه الأمر كثير عناء ليقف على حقيقة ما قام به هؤلاء المنافقون من أدوار خطيرة قاموا بتمثيلها على مسرح الحياة ومآسي بشعة ريعت لها قلوب المؤمنين إنها الحقائق الدامية . . لم يحدثوها في صدر الإسلام فحسب ولكن في العصور التي سبقته وتلكم التي تتابعت من بعده .

إن دموع التاريخ التي ما زالت تنهمر تصحبها الأنات والزفرات لتذكرنا بحوادثهم القريبة والبعيدة . . إن مجرد التفكير في أمر هؤلاء ليبعث الأسى في نفوس الأحرار المؤمنين وإن تتبع مآسيهم في القديم والحديث لا يكلفنا أكثر من تذكر واقعة واحدة حتى نتابع تلك المآسي كما نتابع وقائع عرض سينمائي أمام أعين الناظرين .

إن الحديث عن يهوذا الذي خان المسيح لقاء قبضة من المال فكان بذلك أسوأ أسوة لأسوأ أناس على ظهر هذه البسيطة . . أسوة لأهل الخديعة والغدر والخيانة والنفاق . . إن الحديث عنه لا يكاد ينتهى حتى يذكرنا بشقاق المنافقين في عهد رسول الله ﷺ وما حاولوه من خلق فتن وانتقاض على الإسلام ورسول الإسلام . . وما تكاد تلك الذكريات الآسيفة تنتهي حتى تتوارد على خواطرنا تلك النكبات التي لحقت بالإسلام والمسلمين في العصور المتعاقبة . . فهذان اليهوديان : كعب الأحبار وعبد الله بن سبأ يظهران الإسلام ويبطنان الكيد للإسلام والمسلمين وينحاز إليهما من كان على شاكلتهما ليدبر الجميع فتنة تكاد تعصف بالإسلام والمسلمين لولا لطف الله وعنايته . . ويذهب ضحيتها عمر ثم عثمان ثم تكون من بعدها حروب واضطرابات ويكون خاتمة المطاف مقتل عليّ .

ولقد حدثنا التاريخ الكثير عن كيد هؤلاء المنافقين . . ولعل تلك المأساة التي كان بطلها وشخص روايتها الأول ذلك الضابط الخائن المدعو « خنفس » والذي خان وطنه لقاء قبضة زهيدة من المال . . وشاركه في ذلك الجرم الخطير فئة من أعراب صحراء الشرقية غلاظ الأكباد قساة القلوب . . لا علم لهم بدين ولا دنيا . . لعل تلك المأساة هي من أقرب المآسي إلى أذهاننا لأننا كنا إلى عهد قريب نشرب من جرائها كؤوس الذل ونسام الخسف والهوان نتيجة حتمية لوقوعها . . أعنى تلك المأساة التي انتهت بهزيمة أحمد عرابي ودخول المستعمر الغاصب أرض مصر لا على أسنة الرماح ولكن بفضل الخيانة والنفاق .

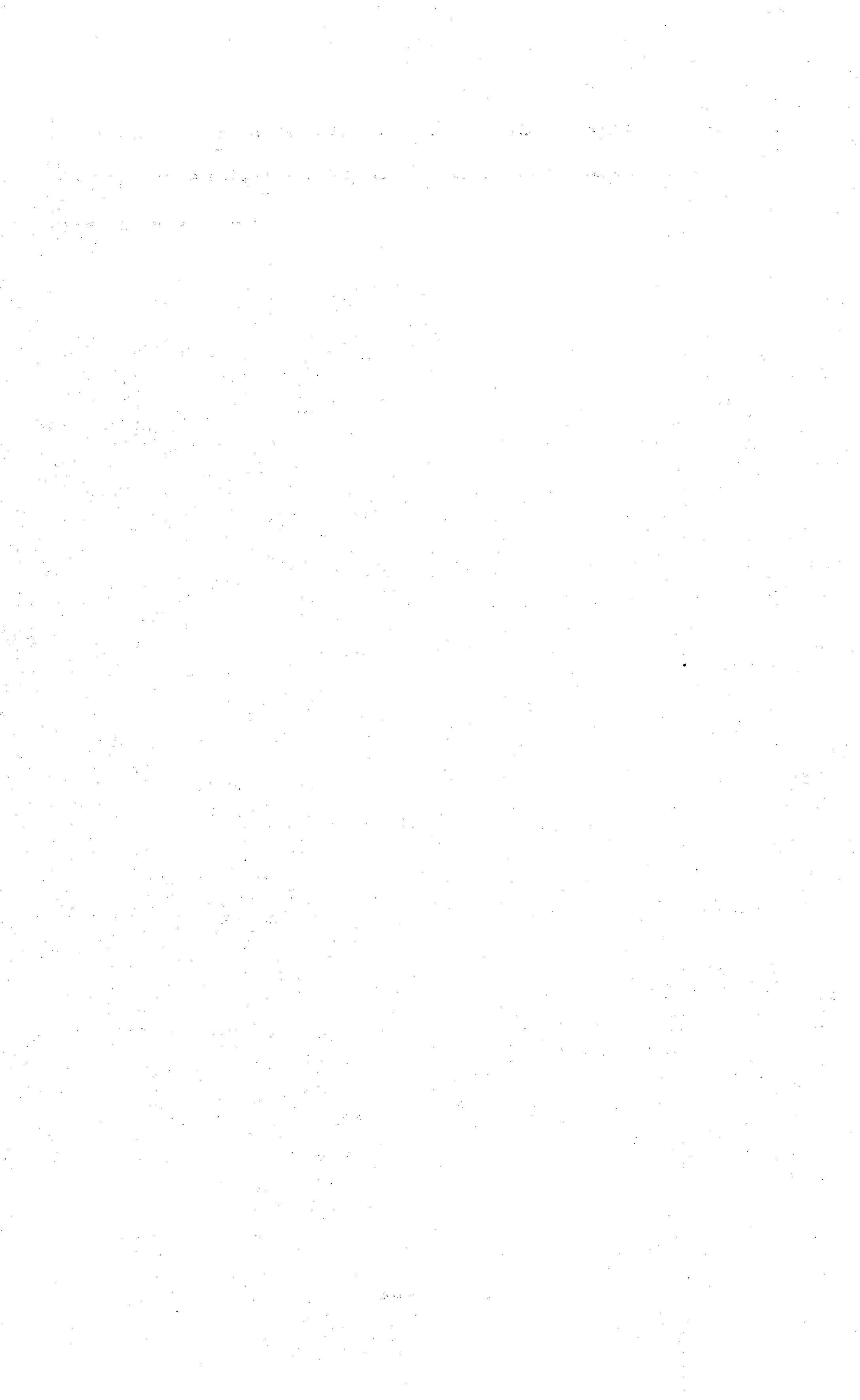
دعونا نطوي صفحة ذلك الماضي المؤلم الذي تبعث ذكرياته على الألم والحسرة وإذا كنت أعطيتكم صورة مبسطة لأمثلة من النفاق العقيدي فإن أمثلة النفاق العملي كثيرة وعديدة . . والمجتمعات على اختلاف أنواعها وبيئاتها زاخرة بهذه الأمثلة . . ويبدو ذلك واضحاً في كل مجتمع اتضحت الفروق بين طبقاته وتواجدت به طبقات إحداها غاية في الثراء يرفل أهلها وذووها في الدمقس والحرير . . أولئك السادة الذين يعيشون في أبراج عاجية ووضعوا أنفسهم في مصاف الآلهة أو انصاف الآلهة . . أولئك الذين نصبوا أنفسهم بفضل ثرائهم سادة للسواد الأعظم من الناس وهم المغلوبون على أمرهم وأخذوا يتحكمون في أعمار الناس وأرزاقهم لا يسندهم في ذلك حق ولا يؤيدهم منطق . . حدثوني بربكم هل يستطيع الواحد منهم أن يزعم أو يدعى أن له سلطاناً أو حقاً على هؤلاء البؤساء يبيح له هذا الفعل ؟ أو هل يستطيع أحدهم أن يفتري أن له فضلاً على سائر الناس حتى يدعى لنفسه ما يشاء من الحقوق ؟! كلا والله . . اللهم إلا المكابرة والافتراء . . واللهم إلا ما يزعمونه من أن الواحد منهم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب !! أو يولد وعلى رأسه أكاليل الغار ويلازمه الحظ وتصحبه العظمة وتجري في ركابه السيادة !! ويخرج إلى الدنيا ولا تتطلع عيناه إلا إلى السماء وما بها من شمس وقمر ونجوم فما كان لأبناء السادة المترفين الذين خرجوا من أصلاب المجد ونبتوا من ظهر الفخار . . ما كان لهؤلاء السادة حين ولادتهم أن يتطلعوا إلا الى كل ما يرمز إلى العظمة والمجد !! إن هذا لكذب ومحض افتراء !

وأما الطبقة التعسة المسكينة فهي تلك التي لم يخلق أهلها إلا للشقاء والبؤس في زعم أولئك السادة المتغطرسين !! وإذا كانوا يزعمون أن سليل المجد والفخار إنما يولد وفي فمه ملعقة من ذهب فإن حفيد البؤس والفقر إنما يولد وفي فمه ملعقة من حديد .. لا .. بل ملعقة من خشب .. ولعل حضراتهم يحقدون عليه أن يولد وفي فمه أية ملعقة ولو كانت من خشب « الجميز » ويقولون إن الواحد منهم يولد وفي فمه قبضة من تراب علامة للذلة والصغار !!

وإذا كان أبناء حضرات السادة يولدون ورءوسهم قد ارتفعت لتشخص أبصارهم إلى السماء فلا يجوز لأبناء العبيد ان يولدوا إلا رءوسهم مطرقة الى الأرض وأعينهم ناظرة اليها شعوراً بالمهانة والضعف !! وهل يكون لأبناء هؤلاء المستذلين الا أن يحيوا عبيداً مستضعفين .

في كل مجتمع اتضحت الفروق بين طبقاته يتواجد النفاق وتبدو آثاره .. وفي تلك البيئة المضطربة يتخذ النفاق لنفسه تربة فيها .. فأولئك البؤساء إنما يحاولون دائماً أن ينافقوا سادتهم الأثرياء من أجل لقمة العيش ... لقمة العيش التي من أجلها يكذب المرء وفي سبيلها يكون الملق في أحط ما يكون ... الغيبة والنميمة .. كل ذلك ليرضى ذلك المعدم سيده الذي ينعم عليه بما يقتات به .. وفي سبيل إرضاء هذا السيد يصبح الرجل كذاباً نماماً مغتاباً صاحب وجهين .. يلقى هذا السيد بوجه ويلقى خصمه بآخر ... كل ذلك أراد الإسلام أن يقضي عليه بين الناس ففرض الزكاة التي يصبح مانعها ملوثاً بآثار النفاق .. وجعل للحاكم سلطات واسعة في محاربة الفقر بأن يقتطع من أموال الأغنياء ما يرد الفاقة عن الناس .. كل ذلك في حدود العدالة الإسلامية ومراعاة القواعد السمحة للشريعة الغراء التي تأبى أن تظلم طبقة من أجل خرى أو تضار فئة في سبيل مصلحة فئة أخرى .. وإنما سعى الإسلام بذلك إلى التقريب بين الطبقات حتى لا يصبح أقوام يرفلون في الدمقس والحرير والآخرون يتمرغون في الوحل والتراب ... كل ذلك أقره الإسلام وأراد تحقيقه حتى يُقوِّم خلق الفرد المسلم وتصبح له شخصيته المستقلة القوية غير المتأثرة بفكرة التبعية المطلقة للسيد أياً كان ذلك السيد .. وإذا استقام أمر الفرد استقام

أمر المجتمع وأصبح مجتمعاً مثالياً أو قريباً من ذلك قد طهرته قوة العقيدة الإسلامية وعدالة التشريع السماوي من كل أسباب النفاق ومقوماته ومن دواعي الظلم وسلطان الرذيلة .



البَابُ الثالث

مُعَامَلتهُم



أولاً ـ عدم المجادلة أو الدفاع عنهم

أ ـ ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ﴾ (النساء ١٠٥ ـ ١٠٩) .

١ ـ وهذه الآيات سبق أن ذكرت لكم سبب نزولها ولا داعي لإعادة ذلك مرة أخرى . . والذي يهمني توضيحه في هذا المقام قوله تعالى في الآية رقم ١٠٥ ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ . . وإذا علمنا أن المعنى بقوله تعالى خصيماً أي مجادلاً . . وإذا تبينا أيضاً أن المقصود بكلمة الخائنين بمعناها الخاص هم « طعمة سارق الدرعين وقومه بنو أبيرق » وهم قوم من المنافقين وأن المعنى بها على وجه العموم هم المنافقون لأدركنا أن الآية إنما اشتملت على النهي الصريح عن المجادلة أو الدفاع عنهم .

٢ ـ وفي الآية رقم ١٠٧ نجد أن الأمر بعدم المجادلة عن الذين ﴿ يختانون أنفسهم ﴾ في قوله تعالى ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ . . ولو علمنا أن قوله تعالى ﴿ يختانون أنفسهم ﴾ إنما هي صفة للمنافقين وكل من كان على شاكلتهم من الذين يستبيحون لأنفسهم ارتكاب المعاصي واقتراف

الآثام . . فهم يختانونها بكل ما فيه خروج على الدين ومعصية الله ورسوله .

ب ـ وجاء في حديث طويل رواه الإمام أحمد عن طريق الزهري عن السيدة عائشة رضي الله عنها وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن طريق الزهري مروياً عن السيدة عائشة تروي فيه قصة الإفك : « فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول . . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي » . . فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه قال : « أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك » . . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . . فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين . . فتثاور الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ » .

والذي أحب أن أشير إليه في هذا الحديث ما قاله أسيد بن حضير لسعد بن عبادة حينما قام ليجادل عن عبد الله بن أبي بن سلول « إنك منافق تجادل عن المنافقين » . . لقد كانت هذه المشادة أمام رسول الله ﷺ . . ولقد سكت رسول الله ﷺ ولم يحاول التعليق على هذه العبارة لا بالاستنكار ولا بالاستحسان . . ولكنه حينما رأى أن الفتنة أوشكت أن تقوم لم يزد على أن طلب منهم السكوت وسكت هو الآخر ﷺ . . وإنني لا أستطيع أن أقول في هذا المقام أن معنى سكوت الرسول عليه السلام هو إقرار لما قاله أسيد . . فهو سكت عن فعل سعد بن عبادة رضي الله عنه . . فليس معنى ذلك أنه كان مقراً لما فعل . . فسعد صحابي جليل ورجل مؤمن له جهاده ولا نستطيع أن ننسب له شيئاً أكثر من أن هذا الموقف ما كان له أن يقفه حتى أن عائشة رضي الله عنها علقت على ذلك بقولها « وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية » . . . إن المجادلة عن المنافقين والدفاع عنهم ولو كانوا أولي قربى أمر منهي عنه . . ولذلك فإن السيدة عائشة رضي الله عنها ـ وهي كانت ترى لسعد مكانته

في الإسلام وصلاحه ـ تقول إن الحمية هي التي دفعت سعداً إلى الدفاع عن ابن سلول . . ويبدو هذا بوضوح ـ أعني أن أم المؤمنين رضي الله عنها لم تكن ترتضي لسعد هذا الموقف : موقف الدفاع عن المنافقين . . أقول يبدو هذا واضحاً مما جاء في الحديث الذي رواه ابن اسحاق عن طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير وعن طريق عبد الله بن أبي بكر . . كلٌ عن عائشة رضي الله عنها جاء فيه : « قالت : فقام سعد بن عبادة وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً فقال : كذبت لعمر الله . . لا نضرب أعناقهم . . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . . . . . . إلى نهاية الحديث » .

ثانياً ـ النهي عن موالاتهم

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * ﴾ (آل عمران ١١٨ ، ١١٩) .

هاتان الآيتان والآية التي تليهما إنما نزلت في النهي عن موالاة المنافقين والركون إليهم . . وهذا الرأي إنما ذكره مجاهد وغيره . . وسياق الآية رقم ١١٩ إنما تؤيد رأي القائلين بذلك لقوله تعالى **﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾** وهذه صفة المنافقين . . ولقد ذهب البعض إلى التعميم لقوله تعالى **﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾** . . وقوله تعالى **﴿ من دونكم ﴾** إنما تعني كل ما عدا المسلمين على وجه العموم من كفرة ومشركين ومنافقين وأهل كتاب . . فالأمر صادرٌ من الله تعالى **﴿ بألا نتخذ بطانة أو وليجة من دون المسلمين ﴾** .

وأيما كان الرأي الراجح فإن كليهما لا يتعارض مع ما ذكرته من أن الآيتين السابقتين قد اشتملتا على حكم صريح هو النهي عن موالاة المنافقين .

ب - ﴿ يا[1] أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين * ﴾ (المائدة ٥٧) .

« وكان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد اظهرا الإسلام ونافقاً . . فكان رجال من المسلمين يوادونهما . . فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ إلى قوله ﴿ وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ﴾ .

الأمر بالنهي صريح في الآية رقم ٥٧ . . أعني النهي عن موالاة منافقي أهل الكتاب الذين أظهروا الإسلام ولكنهم أخفوا الكفر في قلوبهم . . وإذا كان النهي موجهاً إلى النفر من المسلمين الذين وادوا منافقي أهل الكتاب . . فليس منافقو أهل الكتاب إلا فريقاً من عامة المنافقين وأهل النفاق وإن اختلفت أجناسهم أو تباينت فرقهم . . فإن أهواءهم قد اتحدت وأجتمعت قلوبهم حول هدف واحد هو الكيد للاسلام والمسلمين . . وتلاقت نفوسهم عند غاية واحدة ألا وهي حرب العقيدة وأصحابها . . فإن كان الأمر بالنهي قد صدر عن موالاة منافقي أهل الكتاب . . فليس هنالك ثمة شك في أن الجميع يجب ألا يوالوا أو يوادوا من المسلمين لأنهم أهل ملة واحدة وبنو جنس واحد وأصحاب أغراض متحدة .

ثالثاً : الأمر بإخراج المنافقين المتخلفين عن ديوان الغزاة والمجاهدين

أ - ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » (التوبة ٨٣) .

المعروف أن هذه الآية إنما نزلت في المنافقين[2] الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة

---

(١) روى أبو الشيخ وابن حيان عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسيود بن الحرث قد أظهرا ونافقا وكان رجل من المسلمين يوادهما فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم . . . . إلى قوله بما كانوا يكتمون ﴾ .

(٢) جاء في حديث رواه الإمام أحمد مروياً عن كعب بن مالك ورواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن المتخلفين كانوا بضعة وثمانين : « فأصبح رسول الله (ص) وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً » .

تبوك . . ومنطوق الآية يدل على أن أمراً صدر من الله تعالى إلى رسوله بألا يقبل إنساناً من هؤلاء الذين تخلفوا « أول مرة » والمقصود بها غزوة تبوك ـ بألا يقبله في صف الجهاد معه مرة ثانية . . ولقد حمل بعض المفسرين هذا الأمر على سبيل المبالغة في النهي . . وحمله الآخرون على سبيل العقوبة والتشديد عليهم . . ولقد ذكر ابن كثير هذا الرأي في تفسيره . . وإليكم ما قاله :

. ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ أي تعزيراً لهم وعقوبة . . ثم علل ذلك بقوله ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ وهذا كقوله تعالى ﴿ ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ الآية فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله في عمرة الحديبية ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ﴾ . . . الآية » انتهى .

رابعاً ـ الأمر باحتقارهم

١ ـ ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ﴾ (التوبة ٨٥) .

لقد جاءت هذه الآية عقب آيتين . . أما الأولى فقد اشتملت على الأمر بعدم السماح للذين سبق لهم التخلف في غزوة تبوك أن يخرجوا مرة أخرى مع رسول الله ﷺ . . وأما الثانية فهي نهي صريح له ﷺ أن يصلي على أحد مات من هؤلاء المنافقين أو يقوم على قبره . . وفي هذا منتهى الاحتقار والازدراء لهم . . . ولما كان بعضهم من أولي الحول والطول والمال والولد فإن ذلك عادة يكون مدعاة للإكبار والاحترام . . فنرى أن الآية بها نهي صريح عن ذلك . . وهي تحوي بين طياتها احتقاراً وازدراء لهم لأن أموالهم وأولادهم ليست إلا سبباً من أسباب عذابهم في الدنيا والآخرة .

٢ ـ وللحديث المروي عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ لا تقولوا للمنافق سيداً فإنه إن يك سيداً فقد اسخطكم ربكم عز وجل ﴾ رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح ورواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ولفظه قال :

« إذا قال الرجل للمنافق يا سيد فقد أغضب ربه » وإسناده صحيح . . وليس

هنالك احتقار أكثر من نهيه ﷺ عن مخاطبتهم والنداء عليهم بلقب « سيد » وذلك حتى يشعر هؤلاء القوم أنهم رغم ما آتاهم الله من مال وولد فهم بما يرتكبون من أعمال وجرائم في حق الاسلام والمسلمين لا يستحقون الاحترام والتبجيل .

خامساً ـ الأمر بجهادهم والغلظة عليهم

أ ـ جهادهم

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير * ﴾ (التوبة ٧٣) (التحريم ٩) .

والأمر بجهاد المنافقين صريح واضح في هذه الآية لا يحتاج إلى تأويل أو توضيح . . ولكنني سأذكر عدة أقوال وردت في ذلك وذكرها ابن كثير في تفسيره :

(وقد[1] تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : « بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين **﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾** . . وسيف لكفار أهل الكتاب **﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)** . . وسيف للمنافقين **﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾** . . وسيف للبغاة **﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾** . . وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير . . وقال ابن مسعود في قوله تعالى **﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾** قال بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه . . . وقال ابن عباس : أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم . . وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . . وعن مقاتل والربيع مثله . . وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم . . . وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم) .

والذي ذكره ابن كثير مروياً عن الإمام علي واختاره ابن جرير هو الذي انشرح له صدري واطمأن له قلبي . . فالأمر صادر له ﷺ دون تفرقة بين كافر ومنافق **﴿ يا أيها النبي**

---

(١) ابن كثير حـ٢ ص ٣٧١ .

جاهد الكفار والمنافقين ﴾ . . والذين فرقوا بين مجاهدة الكفار والمنافقين هو منهم من باب التحكم الذي لا يؤ يدهم فيه دليل من الشرع أو اللغة . . والآية لم تذكر أن جهاد الكفار يكون بالسيف وجهاد المنافقين يكون بغير ذلك من الوسائل . . فصح عندنا وثبت أن جهادهم جميعاً بالسيف لا فرق في ذلك بين كافر ومنافق .

ولقد ذكر ابن حزم في كتابه المحلى (قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ﴾ .

قال أبو محمد : هذا يخرج على وجهين لا ثالث لهما . . أما من يعلم أنه منافق وكفر فإنه عليه السلام يجاهده بعينه بلسانه والإغلاظ عليه حتى يتوب . . ومن يعلمه بعينه جاهده جملة بالصفة وذم النفاق والدعاء إلى التوبة . . ومن الباطل البحت أن يكون رسول الله ﷺ يعلم أن فلاناً بعينه منافق متصل النفاق ثم لا يجاهده فيعصى ربه تعالى ويخالف أمره . . ومن اعتقد هذا فهو كافر لأنه نسب الاستهانة بأمر الله تعالى إلى رسوله ﷺ) انتهى .

والذي أراه أن تحديد الإمام أبي محمد الجهاد هنا باللسان أمر لا تسانده حجة ظاهرة وذلك للأسباب التي ذكرتها آنفاً . . وفي يقيني أنه كان من الأنسب أن يقال : إن هذا يخرج على وجهين لا ثالث لهما : من عُلِم نفاقه فإنه عليه السلام يجاهده بالسيف ويغلظ عليه قولاً ومعاملة . . ومن لم يعلمه بعينه جاهده عليه السلام جملة بالصفة وذم النفاق والدعاء إلى التوبة والدخول في حظيرة الإيمان .

ب ـ الغلظة عليهم

الآية التي ذكرتها آنفاً إنما تحوي الأمر بالغلظة عليهم في قوله تعالى ﴿ واغلظ عليهم ﴾ . . ولقد روى لنا المؤرخون والمحدثون وقائع وأحاديث كلها تثبت هذا المعنى وتؤكده . . فلقد أفسح الرسول ﷺ صدره لهذه الفئة المارقة أيما إفساح حتى أنه كان أحياناً يجنح إلى التستر عليهم علهم يرتجعوا وتثوب قلوبهم إلى الحق . . ومن ذلك ما رواه الحافظ بن عساكر :

روى الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي من طريق هشام بن

عمار حدثنا صدقة ابن خالد حدثنا ابن جابر حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال :

الإيمان ها هنا .. وأشار بيده إلى لسانه .. والنفاق ها هنا .. وأشار بيده إلى قلبه .. ولم يذكر الله إلا قليلاً .. فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره إلى خير » .. فقال : يا رسول الله .. إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنتُ رأساً فيهم أفلا آتيك بهم ؟ قال : « من أتانا استغفرنا له ومن أصر فالله أولى به ولا تخرقن على أحد ستراً » .. قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عَمار به .

ولقد دعاهم الخالق جلت قدرته في محكم كتابه إلى التوبة أكثر من مرة ورغبهم فيها علهم يثوبون أو تخشع قلوبهم .. وجاء ذلك في أكثر من موضع أذكر منه :

قال تعالى :

أ ـ ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً * ﴾ (النساء ٦٤) .

ب ـ ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً * وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً * ﴾ (النساء ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨)

جـ ـ ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم * خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصَلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم * ﴾ (التوبة ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤)

لقد ناداهم الله تعالى إلى التوبة فلم يتوبوا . . ولقد أحسن إليهم رسول الله ﷺ فقابلوا الإحسان بالسوء واتخذوا من الصفح الكريم مبرراً لدسائسهم وجرائمهم . . وظنوا رحابة صدر رسول الله ﷺ عجزاً فقاموا يكيدون للإسلام والمسلمين . . والقرآن تارة يعظ وأخرى يرغب في التوبة وثالثة يهدد ويتوعد . . والرسول مع كل هذا يدعو القوم إلى التوبة . . ويخطئون . . ويكاشفهم الرسول عليه السلام فيزعمون ما أرادوا إلا إحساناً وتوفيقاً ويطلبون منه أن يستغفر لهم فيفعل . . ولكنه مع هذا كان يرى في كثير من الأوقات أن الأمور تحتاج إلى الصفح فيصفح رغبة في استنابة القوم أو حرصاً على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم . . إذ أن الكثير منهم كانوا من زعماء الأنصار وزعماء القبائل القاطنة على مقربة من المدينة وكانت الظروف أحياناً لا تسمح بأخذهم بالشدة الأمر الذي جعل الكثير من علماء المسلمين يعتقدون أن الآيات التي نزلت في شأن جهادهم وقتالهم ما نزلت إلا ترهيباً واستنابة . . ولكن ما كان ليخفى على رسول الله ﷺ وهو الكامل المؤيد بالوحي أن الأمر يحتاج في بعض الأحيان بل في كثيرها الى العنف والشدة مع هؤلاء القوم حتى يثوبوا إلى رشدهم ولا يعودوا إلى غيهم أو على الأقل حتى يعلموا أن المسلمين ليسوا بالعاجزين عن إيقاف تياراتهم الخبيثة والقضاء على قلاقلهم الوضيعة . . ولقد حدث هذا بلفعل . . فبعض مواقف الضرب على أيدي هؤلاء العابثين المستهترين كانت بأمره ﷺ والأخرى كانت على مرأى منه ومسمع لم بنكرها على المسلمين ولم ينههم عنها . . وإليكم بعض ما ورد في ذلك :

١ - قال ابن اسحاق[١] :

﴿ « وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم . . فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً . . فقام أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب إلى عمرو بن قيس أحد بني غَنْم بن مالك ابن النجار ـ كان

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٧٦ .

صاحب آلهتهم في الجاهلية ـ فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول : أتخرجني يا أبا أيوب من مِرْبد بني ثعلبة !.. ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة أحد بني النجار فلبيه بردائه ثم نتره[1] نتراً شديداً ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له : أفٍ لك منافقاً خبيثاً ! أدراجك[2] يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ .

وقام عمارة بن حزمٍ إلى زيد بن عمرو وكان رجلاً طويل اللحية فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد .. ثم جمع عمارة يديه فلَدَمه بهما في صدره لَدْمة[3] خَرَّ منها قال : يقول : خدشتني يا عمارة .. قال : أبعدك الله يا منافق فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ .

وقام أبو محمد ـ رجل من بني النجار كان بدرياً ـ وأبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصْرم بن زيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل .. وكان قيس غلاماً شاباً وكان لا يُعلم في المنافقين شاب غيره فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد وقام رجل من بَلْخُدْرة بن الخزرج رهط أبي سعيد الخدري يقال له : عبد الله بن الحارث ـ حين أمر رسول الله ﷺ بإخراج المنافقين من المسجد ـ إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو وكان ذا جُمّه فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً عنيفاً على ما مرّ به من الأرض حتى أخرجه من المسجد .. قال : يقول المنافق : لقد أغلظت يا ابن الحارث .. فقال له : إنك أهل لذلك أي عدو الله لما أنزل الله فيك فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ فإنك نَجس .

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيّ بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً وأفف[4] منه وقال : غلب عليك الشيطان وأمره .

---

(١) نتره : جذبه .
(٢) أدراجك : أي ارجع من الطريق التي جئت منها .
(٣) اللدْم : الضرب ببطن الكف .
(٤) أفف منه : أي قال له أف .

« فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين وأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم »

٢ ـ قال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال : « اخرج يا فلان إنك منافق واخرج يا فلان فإنك منافق » فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم . . فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا . . واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم . . فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا . . فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم (ابن كثير جـ٢ ص ٣٨٤) .

٣ ـ قال ابن سعد[١] :

أخبرنا الهاشم بن القاسم . . قال حدثني سليمان عن ثابت يعني البستاني قال : اجتمع المنافقون فتكلموا بينهم فقال رسول الله ﷺ : « إن رجالاً منكم اجتمعوا فقالوا كذا وقالوا كذا فقوموا واستغفروا الله واستغفر لكم » ثلاث مرات . . فقال : « ما لكم قوموا فاستغفروا الله وأستغفر لكم » ثلاث مرات . . فقال : « لتقومن أو لأسمينكم بأسمائكم » فقال : « قم يا فلان . . . . » . . قال : فقاموا خزايا متقنعين[٢] (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

٤ ـ وقال محمد بن اسحاق بن يسار عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم ابن عمرو بن قتادة وغيرهم قالوا : « أقبل رسول الله ﷺ ـ يعني من تبوك ـ حتى نزل بذي أوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : « يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه » . . فقال : « إني على جناح سفر وحال شغل » أو كما قال رسول الله ﷺ « ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه » . . فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد . . فدعا رسول الله

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ ص ١٦٩ .

(٢) متقنعين: أي يغطون وجوههم من الخزي .

ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي (وفي سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق : أو أخاه عاصم بن عدي) أخا بني العَجْلان فقال : « **انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه** » . . فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي . . فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً** ﴾ إلى آخر القصة » .

٥ ـ قال ابن هشام :

وحدثني الثقة عمن حدثه عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن عن اسحاق بن ابراهيم بن عبد الله ابن حارثة عن أبيه عن جده . . قال :

بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت شوَيْلم اليهودي ـ وكان بيته عند جاسوم[١] ـ يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غَزوة تبوك . . فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يُحرِّق عليهم بيت سُويلم . . ففعل طلحة . . فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا . . فقال الضحاك في ذلك :

كادت وبيت الله نار محمد :. يشيط[٢] بها الضحاك وابن أبيرق

وظَلْتُ وقد طبقت[٣] كِبس[٤] سويلم :. أنوء على رجلي كسيراً ومرفقي

سلام عليكم لا أعود لمثلها :. أخاف ومن تشمل به النار يحرق

(سيرة ابن هشام)

---

(١) جاسوم : اسم موضع .

(٢) يشيط : يحرق .

(٣) طبقت : علوت .

(٤) كبس (بكسر الكاف) : البيت الصغير .

لقد سقت عدة وقائع لأؤكد أن رسول الله ﷺ كانت الظروف تضطره أحياناً لأن يلجأ إلى الشدة والقسوة في معاملتهم حين يتأكد له أن سلامة الاسلام والمسلمين إنما تحتاج إلى هذا النوع من المعاملة ليضرب على أيدي بغاة الفتنة وطلاب الثورة . . ويرهب الساعين لإشاعة الفشل بين المسلمين والمجتهدين لإحداث القلاقل بين صفوفهم . . . إن رسول الله ﷺ هو القائل « **آخر الدواء الكي** » وما كان ليغيب عن ذهنه وهو المشمول برعاية ربه أن هنالك صنفاً من الناس خبثت سرائرهم وفسدت قلوبهم . . يحسبون التسامح ضعفاً ويظنون اللين جبناً ويعتقدون المنحة غنيمة . . . هذا الصنف من الناس لن تتاح لهم اليقظة إلا بعد أن يروا وميض السيوف وبريق الحراب . . ومن ثم لم تكن هنالك مندوحة من أن يلجأ ﷺ إلى هذا السبيل ويطرق هذا الباب .

سادساً ـ عدم الاعتراف لهم بالسيادة والحيلولة دون تزعمهم

١ ـ عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تقولوا للمنافق سيداً فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل » **رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح ورواه الحاكم في مستدركه على** الصحيحين . . ولفظه قال :

« إذا قال الرجل للمنافق يا سيد فقد أغضب ربه » واسناده صحيح

والحديث بلفظيه معناه ظاهر . . فالأول ينهي عن أن يقول الرجل للمنافق « يا سيد » ولو كان حقاً يتمتع بهذه الصفة لأن في هذا إغضاباً لله تعالى . . والثاني فيه إشعار بهذا المعنى . . وإذا كان الله تعالى يغضب من قول المسلم للمنافق يا سيد . . فهل يرضيه أن يعترف له المسلم بباقي حقوق السيادة من طاعة وتبجيل وما إلى ذلك من الحقوق ؟

إن المنافق مهما علت مرتبته عند الناس ومهما أوتي من أسباب القوة والجبروت فهو حقير عند ربه ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾ ولذا فهو يجب أن يكون محتقراً من المسلمين مهاناً بينهم . . لا سيادة له ولا حول ولا

تبجيل له ولا احترام . . وكيف يكون ذلك وقد قال الله فيهم ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ ؟

٢ ـ قال[١] محمد بن إسحاق :

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وكان عبد الله بن أبي بن سلول ـ كما حدثني ابن شهاب الزهري ـ له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر ـ شرفاً له في نفسه وفي قومه وكان فيهم شريفاً ـ إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس . . هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعززوه واسمعوا له وأطيعوا . . ثم يجلس . . حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع بالناس . . قام يفعل ذلك كما كان يفعله . . فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت . . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلتُ بَجْراً[٢] أن قمت أشدد أمره . . . فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : مالك ؟ ويلك ! قال : قمت أشدّد أمره فوثب عليّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره . . . قال : ويلك ! إرجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . . قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي .

هذا عبد الله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج والرجل الذي أجمع عليه الأنصار قبل قدومه ﷺ ليكون لهم ملكاً ونظموا له الخرز وأعدوه ليوم تتويجه . . لقد كان يقف منهم قبل أن يظهر نفاقه موقف الرجل الناصح والزعيم الذي يسمعون له ويطيعون فلا ينكر عليه ذلك أحد ويتقبلون منه ذلك كأحسن ما يتقبل قوم من زعيمهم . . ونحن نعلم المكانة التي كان يتمتع بها زعيم القبيلة أو رئيس الحي من العرب بين أتباعه وعشيرته . . أما وقد نجم نفاقه وكشف الله للمؤمنين سوء سريرته وأبان كامن ضغنه للإسلام والمسلمين . . إذن فلا سمع ولا طاعة ولا اعتراف له بحقوق الزعامة أو الرياسة . . لقد كان بالأمس

---

(١) سيرة ابن هشام وذكره ابن كثير في تفسيره لابن اسحاق مروياً عن ابن شهاب مع اختلاف في بعض اللفظ .

(٢) بجراً : أمراً عظيماً . . . ويروي « همراً » وهو الكلام القبيح .

القريب يقف بينهم لينصحهم فيسمعوا له ويطيعوا بل ويحنوا الرأس إجلالاً وتبجيلاً .. ولكنهم بعد أن علموه منافقاً ورأوه محارباً لله ولرسوله ومؤثراً للفتنة ومتزعماً لحركة الشقاق والمعصية والنفاق .. الآن .. والآن فقط يجب أن يعلم جيداً أنه لا حق له في التزعم ولا نصيب له في الرياسة .. ولا يجوز له أن يقف منهم هذا الموقف الذي لم يعد له بأهل وينكرون عليه ذلك بل ويتواثبون عليه يجذبونه من ثيابه ليجلسوه ويسكتوه .. ويرى الرجل أن نفسه قد أهينت فيخرج من المسجد متخطياً الرقاب مهاناً ذليلاً .. والرسول يرى كل ذلك وهو لا ينكر على المسلمين ذلك ولا يأمرهم به .. ولكن سكوت الرسول عليه السلام في هذا الموضوع معناه الإقرار لما فعله المسلمون .

سابعاً ـ عدم قبول عذر من يثبت كذبه من المتخلفين

وذلك لقوله تعالى :

﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن[1] لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * ﴾ (التوبة ٩٤) .

يخبر تبارك وتعالى أن المنافقين سوف ينتحلون الأعذار للمؤمنين بمجرد رجوعهم إليهم .. ولكنه جلت قدرته يخاطب رسوله ﷺ ليخبرهم أنه لا داعي لتقديم ما لديهم من الأعذار لأن المسلمين لن يصدقوهم .. فلقد أخبرهم الله تبارك وتعالى بكذب هذه المعاذير .. ومع هذا فلقد كان ﷺ يقبل منهم ظاهر أعذارهم ويكل سرائرهم إلى الله علهم يتوبون كما جاء في **حديث كعب بن مالك الذي رواه الإمام أحمد وهو متفق على صحته : « فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس .. فلما فعل ذلك جاء المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى »** .. ولقد كان الكثير منهم يأتي عقب كل معصية يطلب من الرسول أن يستغفر له فيفعل ..

---

(١) لن نؤمن لكم : لن نصدقكم .

ولكنه سرعان ما يعود ثم يأتي يقسم الأيمان المغلظة على أنه لن يعود ثانية فيقبل منه ﷺ توبته ويستغفر له . . ولكنه ما كان ﷺ ليأمنهم قط ولا يصدقهم لأنهم أكذب خلق الله جميعاً . . ثم ما كان للوحي الذي كان واقفاً لهم بالمرصاد أن يمهلهم ولكنه كان في كل مرة يكذبهم ويعرف المسلمين أخبارهم ويفضحهم ويهتك أستارهم . . وعلى العموم فإن الآية تطلب من رسول الله ﷺ ومن المسلمين ألا يقبلوا لهم عذراً وألا يصدقوهم . . لأن الوحي كان قد أنبأهم بذلك . . أما نحن الذين لا يؤيدنا الوحي ولا يتصل بنا جبريل عليه السلام ليعرفنا أخبارهم . . فليس لنا إلا أن نتبين أعذارهم ونفحصها فحصاً دقيقاً فإن تبين لنا كذبهم لم نقبل ذلك منهم . . . وقد يقول إنسان ما : وما الفرق إذن بينهم وبين المؤمنين ؟ وقد يقول : إن أي إنسان إذا اعتذر عن فعل شيء فإنه إما أن يكون كاذباً فلم نقبل منه ذلك . . أو صادقاً فالتمسنا له المعاذير . . . ولكنني أجيب أن هنالك أحاديث قد وردت في هذا الشأن تطلب منا أن نقبل عذر أي متنصل ولو كان كاذباً . . أذكر منها : ـ **ما ذكره صاحب البيان والتبيين في كتابه** « من لم يقبل عذراً لمتنصل ولو كان كاذباً لم يرد على الحوض » ب ـ **وكذلك روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال** : « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه أخوه متنصلاً(١) فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد على الحوض » **رواه الحاكم من رواية سويد عن قتادة عن أبي رافع عنه وقال : صحيح الإسناد (قال الحافظ) بل سويد هذا هو ابن عبد العزيز واه . . . وروى الطبراني وغيره صدره دون قوله « ومن أتاه أخوه إلى آخره »** من حديث ابن عمر بإسناد حسن جـ ـ **وروى عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ** قال : « عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عذره لم يرد على الحوض » رواه الطبراني في الأوسط .

وقد يقول إنسان ما إن هذه الأحاديث عممت ولم تخصص . . غير أنني أقول إن الآية التي ذكرتها آنفاً تفيد استثناء حالة خاصة وهي حالة المنافقين فوضحت لنا طريقة معاملتهم .

---

(١) متنصلاً : أي معتذراً والتنصل هو الاعتذار .

والذي أعتقده إن الحديث إذا كان قد عمم فليس معنى هذا أن هذه المعاملة يجب أن يعامل بها المسلم والكافر والبر والفاجر .

ثامناً ـ الإعراض عن المتخلفين عن الجهاد بدون عذر شرعي واجتنابهم

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس[1] ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * ﴾ (التوبة ٩٥) .

يخبر سبحانه وتعالى أن المنافقين سوف يحلفون بالله للمؤمنين ساعة عودتهم إليهم ليعرضوا ويصفحوا عنهم فلا يوبخوهم ولا يعاتبوهم . . ويطلب سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يعرضوا عنهم لا إعراض صفح ورضا ولكن إعراض احتقار وازدراء . . وأن يجتنبوهم لأنهم رجس ونجس ولأنهم لا يستحقون غير هذه المعاملة القاسية عقاباً لهم على تخلفهم عن الصف ومعصيتهم أمر رسول الله ﷺ ومفارقتهم للجماعة . . وجزاء وفاقاً لما حوت قلوبهم من نفاق وكره للدعوة وجنودها .

تاسعاً ـ النهي عن الرضا عنهم

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين * ﴾ (التوبة ٩٦) .

وفي هذه الآية يخبر تعالى أن المنافقين إنما يحلفون للمسلمين ليرضوا عنهم . . ثم يقول جلت قدرته للمؤمنين أنهم لو رضوا عنهم فسوف لا يجديهم ذلك نفعاً لأن الله عز وجل لن يرضى عن هؤلاء القوم لأنهم فاسقون مارقون خارجون على تعاليم الله ورسوله . . ولن يجدي رضا المؤمنين عنهم شيئاً ما دام الله قد غضب عليهم .

والذي أحب أن أوضحه هنا أنه وإن لم يكن النهي قد صدر صراحة في هذه

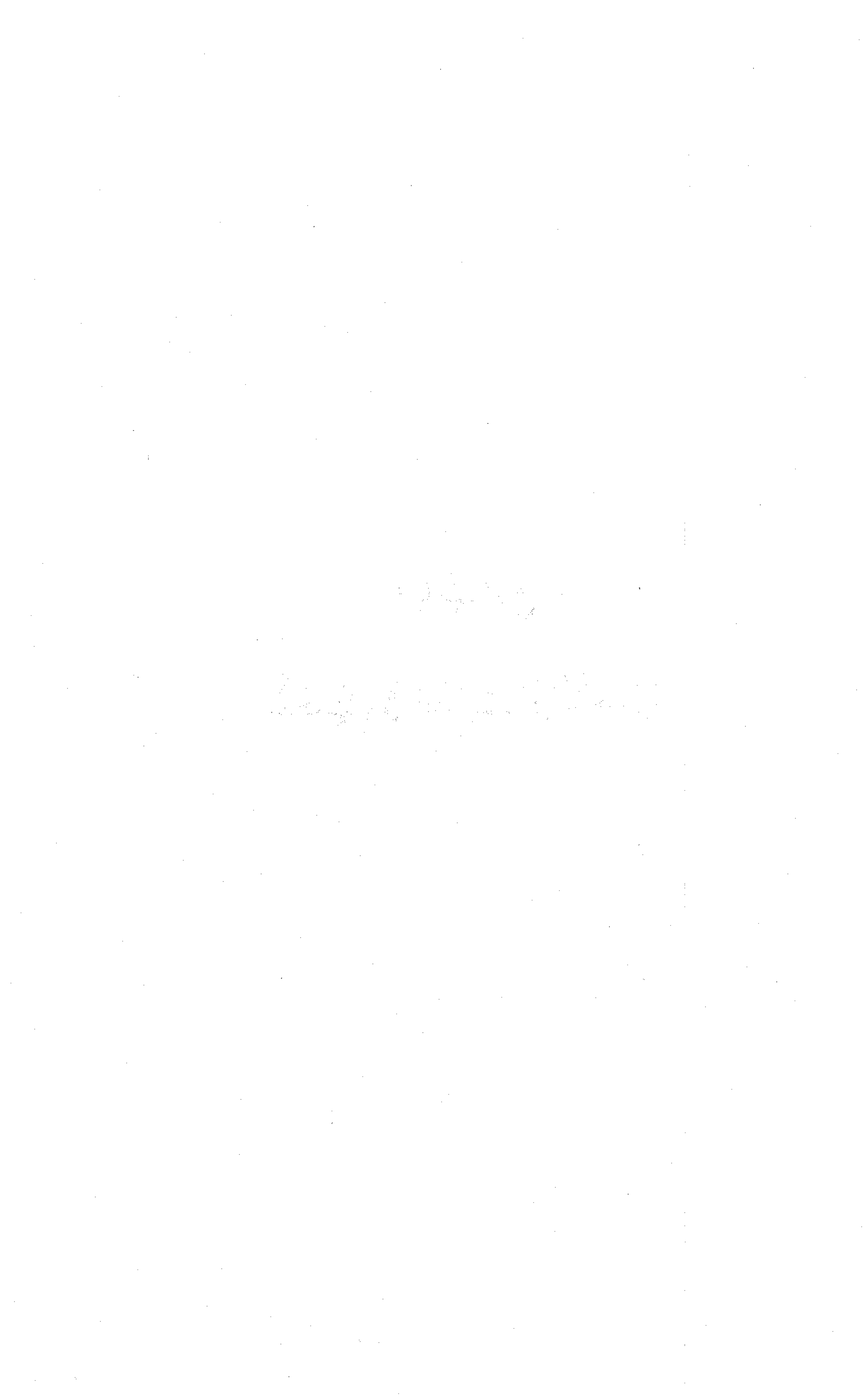
---

(١) رجس : نجس أو خبث .

الآية بعدم الرضا عنهم . . فليس من اللائق أن يرضى عبد مؤمن عن قوم أخبر سبحانه وتعالى أنه غير راضٍ عنهم . . وهذا عمل لا يصدر إلا ممن قل إيمانه وضعف قلبه . . لأن المؤمن يحب الله ويكره من أجله ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه .

البَابُ الرابع

حُكمهُم في الدّنيـا وَالآخِـرَة



أولاً ـ في الدنيا

إنني حينما أتناول الحديث عن حكم المنافقين في الدنيا يجب أن أوضح أولاً أن من شعب النفاق التي تحدثنا عنها ما لو وقع في إثمها إنسان ما إنما يقام عليه حد أو حكم واضح مبين في الشريعة الاسلامية لا خلاف فيه ولا جدال حوله . . فلقد ذكرت لكم مثلاً أن الردة إنما اعتبرها الشارع نفاقاً . . والردة لها حكم في الإسلام ينفذ على فاعلها أو المتردي فيها . . ولقد وضحت لكم أيضاً أن الإفساد في الأرض شعبة من شعب النفاق . . وهذا الإفساد إنما له حد مبين في الكتاب والسنة وسوف أتعرض لهذا بعد قليل .

ولقد سبق أن قلت إن الوقوع في شعبة من شعب النفاق لا يكون في كثير من الأحيان كفيلاً بأن يجعل المرء منافقاً خالصاً وذلك مثل الاتصاف بالكذب أو الرياء مثلاً . . ولقد أثبت أنه لكي يحكم على شخص ما بأنه منافق لا بد أن تجتمع فيه عدة صفات بعينها . . . أوضحت هذا جيداً وتحدثت فيه طويلاً . . وقلت اللهم إلا الوقوع في شعبة خطيرة يعظم معها الذنب ويشتد بها الإثم كأن تثبت على شخص بعينه جريمة الخيانة العظمى أو إحداث الفتنة في صفوف المسلمين أو إحدى الجرائم الخطيرة التي حدثتكم عنها آنفاً وأشرت إليها في حديثي .

فلقد سبق أن قلت أنه قد يتهم المرء في بعض الأحيان بالنفاق متى ثبت عليه أنه اتصف بشعبة معينة من شعب النفاق . . والموضوع تقديري بحت . . فمتى كانت الجريمة خطيرة عظمت معها العقوبة وكبر الذنب وتزايد مع ذلك القدر من

النفاق الذي يتهم به المذنب . . والأمر على النقيض . . وإنني حينما أحدثكم عن حكمهم في الدنيا أستطيع أن أقسمه إلى قسمين :

(١) حكم عام :

وأعني بالحكم العام تلك الجرائم التي يرتكبها المنافقون . . ولم يخصص المشرع جلت قدرته لكل منها على حدة حكماً قائماً بذاته . . فهنالك مثلاً حد خصصه الشارع « للإفساد في الأرض » وأفرد الفقهاء في كتب الفقه مكاناً لهذا الحد . . والأمر لا يختلف بالنسبة للسرقة والردة والقذف . . وكلها شعب للنفاق . . . أما أولئك الذي ينجم نفاقهم ويستفحل أمرهم فيكيدون للدعوة ودعاتها أو يخونون دينهم ووطنهم . . فما حكمهم . . أهي جرائم يعاقب عليها الشرع ؟ أم تركها للإمام يفرض لها من العقوبات ما يلائم كل فعل على حدة ؟ فأنا أريد إذن بتسميتي هذه حكم النفاق والمنافقين عامة مستثنياً من ذلك ما خصص له من الجرائم حكم خاص أو حد .

لقد قلت حين الحديث عن معاملتهم أن الله تبارك وتعالى قد أمر رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . . واستشهدت بقوله تعالى ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ . . **ولقد أوردت بعض آراء كبار الصحابة والتابعين وأئمة الاسلام في ذلك . . ولقد حمل بعض الفقهاء والمؤرخين الآيات الواردة في جهادهم أو التي تأمر بقتلهم على سبيل التهديد من الله تبارك وتعالى لا غير . . ولم يقبلوها على أنها أحكام يجب أن تنفذ وعقوبات يجب أن توقع إذا لم ينتهِ الغاوون عن غيهم والمنافقون عن نفاقهم**[1] . .

---

(١) ولقد ذكر ابن كثير عدة أقوال يجدر بنا ذكرها . . قال ابن كثير « وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه « أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه » ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغيير لكثير من الأعراب عن الدخول في الاسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه . . قال القرطبي وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم . . قال ابن عطية وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والأبهري وعن ابن الماجشون . . ومنها ما قال مالك إنما كف رسول الله (ص) عن المنافقين ليبين للكافة أن الحاكم لا يحكم بعلمه . . قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام قال ومنها ما قال الشافعي إنما منع رسول الله (ص) من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجبّ ما قبله . . ويؤيد هذا قوله=

ولقد احتجوا لذلك بأن الرسول ﷺ لم يشهر ضد المنافقين سيفاً ولم يعلن عليهم حرباً . . والأمر في غاية البساطة لأنهم كانوا أضعف من أن يشهر عليه السلام في وجوههم سيفاً وأتفه من أن يعلن عليهم حرباً . . ولو أنهم تمكنوا من جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم وإعداد العدة لإعلانها ثورة على الإسلام والمسلمين ما تركهم رسول الله ﷺ يقوضون دعائم الاسلام ويهدمون ما بناه دعاة الفكرة دون أن يجهز عليهم . . . وهل يستطيع إنسان عاقل القول بأن رسول الله ﷺ كان سيدعهم يقتلون الرجال والنساء والأطفال دون أن يردهم إلى جحورهم خائبين ملعونين ؟!

نعم . . لقد دبر المنافقون فتناً لو أتيح لها النجاح لكان للإسلام شأن آخر ولكتب له مصير غير هذا المصير . . ولقد تفننوا في الكيد للاسلام والمسلمين ولكن كان الوحي يحبط كل خططهم ويكشف عن مخبوء مكرهم . . حدثوني بربكم . . أي ضير على الاسلام والمسلمين من كيدهم ما داموا يدبرون فيُفْضَحون ويتآمرون فيفشلون ؟ ألم تكن حكمة بالغة منه ﷺ ألا يعلن عليهم الحرب وقد تأكد أنهم لن ينالوا من الإسلام والمسلمين شيئاً وهو يعلم أن معظمهم أو جلهم من زعماء الأنصار وقد تؤدي حربهم إلى فتنة أعظم وأخطر من الفتن التي كانوا يعدونها ؟!

لقد كان رسول الله ﷺ نبياً ورسولاً وحاكماً لدولة يدبر شئونها حسبما يتراءى له الخير ما لم يكن في ذلك تعطيل لحد من حدود الله أو تجنياً على إنسان أو

= عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الاسلام ظاهراً فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله ﴾ الآية . . فهم يخالطونهم في بعض المحشر فإذا حقت المحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث ومنها ما قاله بعضهم أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده (ص) بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات . . فأما بعده فيقتلون إذا اظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق في عهد رسول الله (ص) هو الزنديق اليوم (قلت) وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه ؟ على أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وغروها كتاب الأحكام » (ابن كثير حـ[1] ص ٤٩ .) .

مخالفة لأمر سماوي . . لقد أمره الله تعالى بقتال المشركين وأذن له بذلك فله أن يشهر السيف متى شاء ويغمده متى رأى أن في ذلك الخير . . ولقد أمره الله تعالى أو أذن له بحرب المنافقين وجهادهم والغلظة عليهم . . فللرسول عليه السلام إذن أن يحارب أو يسالم . . يقسو أو يرحم متى رأى أن في ذلك الخير . . ما لم يتلقّ أمراً صريحاً بالحرب أو السلم . . إن الدستور الذي يسير عليه قد وضعه ربه وإن القانون الذي يحاكم به المدانين قد نزله الحكيم الخبير فهو يتصرف في حدود هذا القانون مستلهماً وسائل تطبيقه من روح ذلك الدستور السماوي . . وهو مع كل هذا لا يعارض نصاً ولا يعطل حداً ولا يخالف أمراً لله تبارك وتعالى . . ألم تترك له الخيرة في كثير من الشئون السياسية والحربية ويتصرف بما يتفق مع صالح المسلمين ؟ لقد كان ﷺ كثيراً ما يأمر بقتل معاند للدعوة مقاوم لها أو يأمر بالصفح عنه متى وجد الخير في ذلك . . ولقد أمر ﷺ بقتل النضر بن الحارث لشدة إيذائه للمسلمين وحربه للإسلام . . وما أن بلغه ﷺ شعر لأخت النضر بن الحارث قالته في مقتل أخيها حتى قال عليه السلام : « لو بلغني هذا قبل مقتله لمننت عليه » .

فلقد ذكر ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق قال : قال ابن اسحاق : وقالت قتيلة[1] بنت الحارث أخت النضر بن الحارث تبكيه :

يا راكباً إن الأُثَيْل مظنةٌ :. من صبح خامسة وأنت موفق[2]
أبلغ بها ميتاً بأن تحيةً :. ما إن تزال بها النجائب تخفق[3]
مني إليك وعبرة مسفوحة :. جادت بواكفها وأخرى تخنق[4]
هل يسمعني النضر إن ناديته :. أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضيء[5] كريمة :. في قومها والفحل فحل معرق[6]

(١) قال السهيلي « الصحيح أنها بنت النضر لا أخته . . كذلك قال الزبير وغيره وكذلك وقع في كتاب الدلائل .

(٢) الأثيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء . . ومظنة أن موضع إيقاع الظن .

(٣) النجائب : الإبل الكرام . . وتخفق : تسرع . (٤) الواكف : السائل

(٥) الضيء : الأصل . . ورواية هذا الشطر في الروض : أمحمد ها أنت ضيء بخيبة (والضيء معناه الأصل والولد) .

(٦) المعرق : الكريم .

ما كان ضرك لو مننت :. وربما منّ الفتى وهو المغيظ المحنق[1]
أو كنت قابل فدية فلينفقن :. بأعز ما يغلو به ما ينفق[2]
فالنضر أقرب من أسرت قرابة :. وأصفهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه منوشه :. لله أرحام هناك تشقق[3]
صبراً[4] يقاد إلى المنية متعباً :. رَسْفَ المقيَّد وهو عانٍ موثق[5]

قال ابن هشام :

فيقال والله أعلم أن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغني هذا قبل مقتله لمننت عليه .

أما ما جاء في قتلهم فذلك بيانه :

قال الله تعالى :

﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً *﴾ (الأحزاب ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) .

وقوله تعالى :

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (التوبة ٧٣) (التحريم ٩) .

١ ـ وذكر ابن كثير في تفسيره :

« وقال قتادة (ومنهم من يلمزك في الصدقات) يقول ومنهم من يطعن عليك في الصدقات وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى

---

(١) المحنق : الشديد الغيظ .

(٢) رواية هذا البيت في الأغاني (جـ١ ص ١٩ طبع دار الكتب المصرية) : أوكنت قابل فدية فلنأتين : بأعز ما يغلو لديك وينفق .

(٣) تنوشه : تناوله .. وتشقق : تقطع .

(٤) في شرح السيرة : قسراً والقسر هو القهر والغلبة .

(٥) الرسف : المشي الثقيل كمشي المقيد ونحوه .. والعاني : الأسير .

النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت . . . **فقال نبي الله ﷺ** « ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟ » **ثم قال نبي الله** « احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » والمعروف أن الآية السابقة إنما نزلت في المنافقين .

٢ ـ ولقد روى الشيخان حديثاً مشابهاً للسابق من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له : اعدل فإنك لم تعدل . . **فقال : « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً إنه يخرج من ضئضئى** هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فإن لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء . . . » إلى نهاية الحديث .

٣ ـ وروى ابن إسحاق هذا الحديث عن طريق غير الطريق السابقة ومع اختلاف في اللفظ . . قال : وحدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثي حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص وهو يطوف بالبيت معلقاً نعله بيده فقلنا له : هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلمه التميمي يوم حنين ؟ قال : نعم . . جاء رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال : يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم . . . فقال رسول الله ﷺ : « أجل . . فكيف رأيت » ؟ فقال: لم أرك عدلت . . قال . . فغضب النبي ﷺ ثم قال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ ! . . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ألا أقتله ؟ فقال : لا دعه فإنه سيكون له يتعمقون في الدين[١] حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية[٢] ينظر في

---

(١) يتعمقون في الدين : يتبعون أقصاه .

(٢) الرمية : الشيء الذي يرمى .

النَّصل[١] فلا يوجد شيء ثم في القِدْح[٢] فلا يوجد شيء ثم في الفوق[٣] فلا يوجد شيء سبق الفرْث[٤] والدم .

١ - ففي آيات سورة الأحزاب يهدد الله تبارك وتعالى المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين إن لم ينتهوا عن غيهم وضلالهم ليأمرن الله ورسوله بقتالهم وطردهم من المدينة ثم تكون نهايتهم أن يؤخذوا فيقتلوا لأنهم أذلة ملعونون أينما وجدوا . . وهذا ليس بتشريع جديد إنما هذه سنة سنها الله في الأمم السابقة أن يقتِّل الأنبياء المنافقين ويذلوهم . . ولكن في آية سورتي التوبة والتحريم أمر صريح له ﷺ بجهاد المنافقين والكافرين سواء بسواء .

٢ - وفي الحديث الأول أوصى رسول الله ﷺ بقتلهم ثلاث مرات حيث قال : ثم إذا خرجوا فاقتلوهم . . ثم إذا خرجوا فاقتلوهم . . ثم إذا خرجوا فاقتلوهم .

٣ - وفي الحديث الثاني يوحي رسول الله ﷺ بقتلهم ويعلق على ذلك بقوله « إنهم شر قتلى تحت أديم السماء » .

٤ - وفي الحديث الثالث وهو رواية ابن إسحاق لم يرد فيه أن رسول الله ﷺ أمر بقتلهم أو أوحى بذلك ولكن طلب عمر رضي الله عنه منه أن يأذن له بقتل ذي الخويصرة فلم يفعل .

وقد يقول قائل : وما يدرينا أن هذه الأحاديث إنما جاءت في حق المنافقين ؟ . فأقول : أما الحديث الأول فقد ذكره قتادة في سياق شرح آية إنما نزلت في حق[٥] المنافقين . . والأحاديث الثلاثة إنما كلها تشابهت وحوت أوصافاً

---

(١) النصل : حديد السهم .

(٢) القدح : السهم .

(٣) الفوق : طرف السهم الذي يباشر الوتر .

(٤) الفرث : ما يوجد في الكرش .

(٥) روى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن قوله تعالى ﴿ومنهم من يلزمك . .﴾ الآية نزلت في ذي الخويصرة . . وهذه الآية إنما جاءت في سياق الحديث عن المنافقين .

متشابهة لا يمكن أن تتواجد إلا في صفوف المنافقين وهي فوق هذا وذاك إنما جاءت عقب حدوث حالة معينة ووضوح شيء بذاته هي « سفاهة الرأي وفساد العقيدة » . . وهذه ـ كما سبق أن قلنا ـ إحدى شعب النفاق . . ثم إن ما فعله « ذو الخويصرة » هذا من تجوير رسول الله ﷺ أو اتهامه بالعزوف عن العدل أمر لا يصدر إلا عن منافق نجم نفاقه .

بقي شيء واحد . . قد يقول إنسان ما إن الآيات التي أوردتها آنفاً لم يثبت أن رسول الله ﷺ قد نفذ ما فيها . . أعني أنه قاتل المنافقين أو طردهم من المدينة أو أخذهم أذلة وأعمل فيهم السيف . . وقد يقول أيضاً أن الأحاديث التي ذكرتها آنفاً لم تأتِ بها آية إشارة أنه ﷺ قد قتل إنساناً ما مع أنه أوصى بقتل أمثالهم إذا خرجوا . . وهو في الوقت نفسه قد عفا عن أصحاب هذه الحوادث . . ولعله يقول معلقاً : أليس معنى هذا أن هذه الآيات وتلكم الأحاديث إنما جاءت للإرهاب والتهديد ولم تذكر لتكون تشريعاً أو حكماً وإلا لِمَ لمْ ينفذ الرسول عليه السلام مثل هذه الأحكام على المنافقين ؟

ولقد قال بذلك أقوام زاعمين أنه لا قتل على مرتد مستشهدين بعدم قتله ﷺ للمنافقين وهم مرتدون صابئون خارجون على دين الله . . ولقد عقد ابن حزم في كتابه المحلى فصلاً للرد على هؤلاء ولكننا نؤيده في شطر مما ذهب إليه وننكر عليه الشطر الآخر . . فلقد قال بإن القتل هو حكم من نجم نفاقه لا شك في ذلك ولو أن رسول الله ﷺ علمهم لنفذ فيهم حكم الله أما من قيل بأنه عرفهم فقد ركنوا الى التوبة وذلك مثل عبد الله بن أبي ابن سلول . . وهذا نص ما قاله ابن حزم :

« مسألة : من المنافقين والمرتدين قال قوم : إن رسول الله ﷺ قد عرف المنافقين وعرف أنهم مرتدون كفروا بعد إسلامهم وواجهه رجل بالتجوير وأنه يقسم قسمة لا يراد بها وجه الله وهذه ردة صحيحة فلم يقتله . . قالوا : فصح أنه لا قتل على مرتد ولو كان عليه قتل لأنفذ ذلك رسول الله ﷺ على المنافقين المرتدين الذين قال الله تعالى فيهم : (إذا جاءك المنافقون) إلى قوله تعالى ﴿**فهم لا يفقهون**﴾ .

قال أبو محمد : هذا كل ما احتجوا به ونحن إن شاء الله تعالى ذاكرون كل آية تعلق بها متعلق في أن رسول الله ﷺ عرف المنافقين بأعيانهم ومبينون بعون الله تعالى وتأييده أنهم قسمان : قسم لم يعرفهم قط عليه السلام وقسم آخر افتضحوا فعرفهم فلاذوا بالتوبة ولم يعرفهم عليه السلام أنهم كاذبون أو صادقون في توبتهم قط . . فإذا بينا هذا بعون الله تعالى بطل قول من احتج بأمر المنافقين في أنه لا قتل على مرتد » .

وأنا أقول إن هذا الذي قال به أبو محمد إنما قد تحدث به أناس من قبل . . وأقول أيضاً إن رسول الله ﷺ إذا كان سكت أحياناً عن قتل المنافقين فإنما سكت لأن الظروف كانت تقتضي ذلك . . وسأتحدث عن ظروف نفذ فيها رسول الله ﷺ القتل على هؤلاء القوم وأبين أخرى تغاضى الرسول عليه السلام عن المنافقين فيها . . وسوف أوضح لكم سبب ذلك ودواعيه . . وإنني حينما أتحدث عن الحكم العام للمنافقين أتناول عقوبة القتل أولاً فأقسم الأمر بالنسبة لها إلى قسمين :

١ ـ جريمة عوقب عليها فاعلها بالقتل . . أو . . حكم أُخِذ به :

وأعني بالحكم الذي أخذ به حكم القتل الذي نفذه رسول الله ﷺ على منافق إن استحق ذلك لحربه لله ورسوله وعمله على خلق الفتن وإحداث الاضطرابات . . ولقد ذكر ابن اسحاق واقعتين عاقب فيهما رسول الله ﷺ اللذين أجرما ونفذ عليهما حكم القتل . . وإليكم نص رواية ابن اسحاق :

أ ـ قتل أبي عفك أحد المنافقين :

قال ابن إسحاق : « وغزوة سالم بن عمير لقتل أبي عَفَك أحد بني عمرو بن عوف ثم من بني عبيدة . . وكان قد نجم[1] نفاقه حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد ابن صامت فقال :

لقد عشت دهراً وما إن أرى ... من الناس داراً ولا مَجْمعاً

---

(١) نجم : ظهر .

أبـرَّ عـهـوداً وأوفى لِمـنْ يعـاقـد فيهم إذا مـا دعـا
من أولاد قيلة[1] في جمعهم يهـد الجبال ولم يخضعـا[2]
فصـدعهم[3] راكب جـاءهم حـلال حـرام لشتّى معـا
فـلو أن بـالعـز صـدقـتُمُ أو المُلْكِ تـابعتم تُـبّعـا[4]

فقال رسول الله ﷺ « من لي بهذا الخبيث » فخرج سالم بن عمير أخو بني عمرو بن عوف وهو أحد البكائين فقتله . . فقالت أمامه المُزيرية في ذلك :

تُكَذِّبُ دينَ الله والمرء أَحْمَدا لعمرُ الذي أمناك أنْ بئس ما يُمنى[5]
حَباك حَنيف[6] آخر الليل طعنة أبا عفك خذها على كبر السن

(سيرة ابن هشام)

ب ـ مقتل عصماء بنت مروان المنافقة :

قال ابن إسحاق :

« وغزوة عمير بن عدى لقتل الخَطْميّ عصماء بنت مروان وهي من بني أمية بن زيد . . فلما قتل أبو عفك نافقت فذكر عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه . . قال : وكانت تحت رجل من بني خَطْمة ويقال له يزيد بن زيد . . فقالت تعيب الإسلام وأهله :

بـاسْت بني مـالـك والنبيت وعَـوْفٍ وباسْت بني الخـزرج
أطعتم أتـاوِيَّ من غـيـركم فلا من مُراد ولا مذحج[7]
تُـرَجّونـه بعـد قتـل الـرؤس كـما يُرْتَجى مَـرَق المُنْضَـج[8]
ألا أنِـف يَبْـتـغـى عِـزة فيقـطع من أمـل المُـرْتجى[9]

---

(١) قيلة : اسم امرأة تنتسب اليها الأوس والخزرج انصار النبي .

(٢) لم يخضعا : أراد يخضعهن بالنون الخفيفة فلما وقف عليها البدل منها ألفاً .

(٣) صدعهم : فرقهم . (٤) تبع : أحد ملوك اليمن .

(٥) أمناك : أنساك .

(٦) حنيف : مسلم . (٧) الأتاوي : الغريب . مراد ومذحج : قبيلتان من اليمن

(٨) الرءوس : أشراف القوم . (٩) الأنف : الذي يترفع عن الشيء والغرة : الغفلة .

قال : فأجابها حسان بن ثابت فقال :

بنو وائلٍ وبنو واقفٍ وخَطْمةُ دونَ بني الخزرج
متى ما دعت سفهاً ويحها بعَوْلتِها والمنايا تَجى[1]
فَهزَّت فتى ماجداً عرفُه كريم المداخل والمَخْرج
فضَرَّجها من نجيع الدِّما ء بعد الهدّ فلم يَحْرج[2]

فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك « ألا آخر من ابنة مروان » ؟ فسمع ذلك من قول رسول الله ﷺ عمير بن عديّ الخَطْميّ وهو عنده .. فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها ثم أصبح مع رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله اني قد قتلتها . فقال : « نصرت الله ورسوله يا عمير » .. فقال : هل عليّ شيء من شأنها يا رسول الله ؟ فقال : « لا[3] ينتطح فيه عنزان » .

فرجع عمير إلى قومه .. وبنو خطمة يومئذ كثيرٌ موْجهم (اختلاط كلامهم) في شأن بنت مروان ولها يومئذ بنون خمسة رجال .. فلما جاءهم عمير بن عدي من عند رسول الله ﷺ قال : يا بني خطمة .. أنا قتلت ابنة مروان فكيدوني جميعاً ثم لا يُنْظرون ... فذلك اليوم أول ما عزّ الإسلامُ في دار بني خطمة وكان يستخفي بإسلامه فيهم من أسلم .. وكان أول من أسلم من بني خطمة عمير بن عدي وهو الذي يدعى القارىء .. وعبد الله بن أوس وخزيمة بن ثابت .. وأسلم .. يوم قتلت ابنة مروان رجال من بني خطمة لما رأوا من عز الإسلام » (سيرة ابن هشام) .

وهذا الذي رواه ابن اسحاق عن مقتل أبي عفك ومقتل عصماء إنما يدل سياق الحديث على أن مقتلهما إنما كان والإسلام لم تقو شوكته بعد .. فوجود أناس لم يكونوا قد أسلموا بعد بالمدينة والتعليق الأخير الذي جاء في نهاية القصة « وأسلم يوم قتلت ابنة مروان رجال من بني خطمة لما رأوا من عز الاسلام » .

---

(١) العولة : ارتفاع الصوت بالبكاء وتجى : مسهل من تجيء .

(٢) ضرّجها : لطخها بالدم والنجيع : الشديدة الحمرة والهدء : أي بعد ساعة من الليل ولم يحرج : لم يأثم .

(٣) لا ينتطح فيه عنزان : أي أن شأنها هين لا يكون فيه طلب ثأر ولا اختلاف .

فهذا كله يدل على أن رسول الله ﷺ كان حديث عهد بالمدينة . . أعني ولم يكن الإسلام قد أحرز انتصاراته الباهرة . . ولعل الذي يؤيد ذلك أيضاً أن الرسول ﷺ هو الذي أمر بقتلهما . . ومع هذا فقد نفذ هذا سراً كما هو ظاهر من سياق القصتين أي اغتيالاً . . ولعل قتلهما بهذه الصورة هو الذي يؤيد الفكرة القائلة بأن ذلك إنما كان في أوائل عهده ﷺ بالمدينة . . ونستطيع القول أن عدم قتلهما جهراً ربما كان لسبب يتصل ونشر الدعوة وسمعتها وكرامة نبيِّها . . ولعل قائل يقول : ولِمَ كان ذلك القتل مع أنهما لم يقولا أكثر من شعر ؟ . . . إن ابن إسحاق لم يذكر تاريخ حدوث ذلك القتل ولم يحاول ابن هشام أن يفعل ذلك . . وكل الذي أملكه الآن هو الاستنتاج أو التخمين والحدس . . وأنا في هذا وذاك قد أكون مخطئاً وقد أكون مصيباً . . ولكن سياق الحديث في هاتين القصتين يبدو أنه يؤيدني فيما أقول . . إنني لا أستطيع أن أثبت أو أنفي أن أبا عفك وعصماء فعلا أكثر من ذلك الهجاء الفظيع وقالا أكثر من ذلك الشعر الذي أراد به تهييج مشاعر الأنصار واحداث فتنة وايجاد ثورة . . لا أستطيع أن أنفي أو أثبت لأن الحوادث لا تصدقني ولا تكذبني . . وقد أسوق للسائل اعتراضاً آخر فأقول : وهل كان الجرم الذي ارتكباه أشنع مما ارتكبه ابن سلول وأترابه ومع هذا فلم يُقتل أحد منهم ؟ . . وأنا أقول : أنتم تدركون جيداً خطورة الشعر عند العرب . . فكم حدثنا التاريخ أن بيتاً واحداً من الشعر أو بيتين كثيراً ما كان ذلك سبباً في نكبة أو نكبات . . ولعلكم تدركون تلك القصة المشهورة من أن الحزب العربي الذي كان يتزعمه الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد فيما بعد . . إنما كاد للحزب الفارسي الذي كان يتزعمه البرامكة بأن أوحى الأول الى جارية من جواري الرشيد ان تدس عليه هذين البيتين في انشادها وغنائها :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت انفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

ولعلنا نعلم أيضاً أن الحطيئة الذي كان قد ألقى به أمير المؤمنين عمر في

غياهب السجن إنما أفرج عنه لسماع بيتين أو أبيات من الشعر رق لسماعها قلبه وأدمعت عيناه . . قال :

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخ زُغْبُ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مُظْلِمَةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

والتاريخ يحدثنا عن ذلك الكثير ونحن نقدر جيداً مدى تأثير الشعر في نفوس العرب . . فلعل رسول الله ﷺ قد أمر بقتلها اتقاءً للفتنة ومنعاً للفرقة والانقسام وتجنباً لاضطرابات قد تحدث . . ولعل الاسلام لم يكن قد ثبت قدميه بعد بالمدينة . . ولعل الفرصة كانت سانحة للتخلص من هذا المنافق وإسكات هذه المنافقة . . الأمر الذي لم يتح بعد للتخلص من امثال عبد الله بن أبي وأترابه اتقاء للفتن وذلك لأن معظمهم كان من أهل الجاه والثراء ومن ذوي المكانة . . ولعل الرسول ﷺ كان يبغي بالابقاء عليهم تأليف قلوب قومهم .

(٢) حكم لم يصدر لظروف خاصة :

أ ـ التغاضي عن عبد الله بن أبي بن سلول :

وعبد الله بن أبي هذا زعيم المنافقين ورأس المارقين والمتمردين سبق أن تحدثت عنه الكثير وذكرت لكم أن الفتنة التي أراد أن يحدثها أثناء غزوة بني المصطلق وقوله « وقد فعلوها[١] . . والله لئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل » يعني بذلك رسول الله ﷺ . . وقد ذكرت أن عمر بن الخطاب طلب الإذن من رسول الله ﷺ بقتله فلم يسمح له بذلك . . **وذلك في رواية ذكرها البيهقي عن جابر بن عبد الله . . كما روى البخاري هذا الحديث ورواه مسلم** بنحوه جاء فيه : « **فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق » فقال النبي ﷺ « دعه . . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »** . . وفي رواية لابن اسحاق بعد أن ذكر القصة ووضح كيف أن زيد بن أرقم قص عليه ﷺ ما حدث من عبد الله

(١) من رواية للحافظ أبي بكر البيهقي قال : أخبرنا ابو عبد الله الحافظ اخبرنا ابو بكر بن اسحاق أخبرنا بشر ابن موسى حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : . . . . . (الحديث) .

بن أبي قال : « وعنده عمر بن الخطاب فقال : مُرْ به عَبّاد بن بشر فليقتله . . **فقال له رسول الله ﷺ « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ولكن أذِّن بالرحيل »** .

ففي هاتين الروايتين لم نر أن رسول الله ﷺقد عاب على عمر طلب قتل عبد الله ابن أبي أو أنكره عليه بما يفيد أن ذلك يتنافى مع الشرع . . وإنما كل الذي علل به الرسول ﷺ عدم السماح بقتله هو خوفه أن يتحدث الناس أنه صلوات الله وسلامه عليه يقتل أصحابه والدعوة ما زالت في طريقها الى الانتشار ولم ترتكز على ساقيها في الجزيرة العربية بعد . . وما زالت الحروب قائمة بين رسول الله ﷺ والمشركين . . ولا شك أن مثل هذه الشائعة لو سرت بين الناس فسوف تصرف العرب عن الإقدام على الدعوة بل ربما تكون سبباً في تجمعهم ضد رسول الله ﷺ والتحزب لحربه . . بل لقد طلب ابن عبد الله بن أبي نفسه السماح له بقتل أبيه فلم يقبل صلوات الله وسلامه عليه كما يتضح ذلك مما رواه ابن اسحاق قال : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة :

« أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل [رجلا][1] مؤمناً بكافر فأدخل النار . . **فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا »** .

ولعل هناك سبباً آخر لا يخفي على الذهن هو أن رسول الله ﷺ لم يكن يخفى عليه أن عبد الله بن أبي بن سلول إنما هو زعيم الخزرج وربما لو قتله أحدث هذا فتنة لا قبل للإسلام بها . . ولقد ذكرت لكم سابقاً كيف أن قبيلتا الأوس والخزرج كادتا أن تتقاتلا بالمسجد ورسول الله ﷺ بين أظهرهم بسبب موقف ابن أبي من حديث الإفك ولولا وجوده ﷺ بينهم وتخفيضه إياهم لكانت

---

(١) زيادة عن الأصل .

الحرب الشعواء التي تحصد رجال الإسلام ودعاته والتي فيها يفني بعضهم بعضاً بسبب منافق تزعم حركة للتمرد والعصيان . . ولعل الذي يؤيد ما قلته هو ما رواه ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أيضاً . . قال :

« وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . . فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : **كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرْعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . . قال** . . قال عمر : قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري » .

وكأن رسول الله ﷺ لا ينكر أمر قتله ولا يراه منافياً للإسلام بل هو يقره لأنه لم ينف عنه حكم القتل ولكنه كان يرى صلوات الله وسلامه عليه الإغضاء عن ذلك وعدم قتله لا لأن ذلك لا يجوز شرعاً ولكن لأن ذلك لصالح الاسلام والمسلمين كما أوضحت آنفاً .

ب ـ الصفح عن حاطب بن أبي بلتعة :

تلك قصة صحابي جليل خانه تقديره في ساعة من ساعات الضعف . . وهن إيمانه وقتاً أو بعض الوقت . . فراح يكتب إلى قريش ينبئها بمسير رسول الله ﷺ إليها يوم الفتح وهو في كل هذا أو ذاك لا يبغي خيانة متعمدة لله ورسوله ولا يهدف إلى غدر موجه للعقيدة ومبادئها . . ولكن على حد تعبيره يقول « إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضىً بالكفر بعد الاسلام » . . . ولكين لم يكن هذا ليشفع له عند عمر ولا عند رسول الله ﷺ إنما يشفع له شيء آخر غير كل هذا . . ففي رواية للإمام أحمد عن علي رضي الله عنه من حديث أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه من غير وجه عن سفيان بن عيينة به . . . « فقال عمر « دعني أضرب عنق هذا المنافق » **فقال رسول الله ﷺ : « إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع**

على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . . . وفي رواية لابن اسحاق : « فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . . فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . . وفي رواية أخرى في الصحيحين : « فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه . . فقال : « أليس من أهل بدر ! . . فقال : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ﴿ أو قد غفرت لكم ﴾ » فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم » .

ففي هذه الروايات جميعها لم ينكر رسول الله ﷺ على عمر مطالبته بقتل حاطب ولا اتهامه إياه بأنه خان وبأن عمله هذا نفاق . . ولو أن رسول الله ﷺ رأى في كلام عمر هذا شططاً أو خروجاً على أحكام الشرع وتعاليمه لأنكر عليه ذلك بل ولعنفه وسكوت الرسول ﷺ عن ذلك هو إقرار له ورضاء عنه . . إن الإقزار بالشيء والتسليم بصحته شأن وتنفيذه أو عدم ذلك شأن آخر . . إن كل الذي شفع لحاطب بن أبي بلتعة عند رسول الله ﷺ أنه كان من أهل بدر « وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . . هذا هو السبب الوحيد الذي بنى عليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حيثيات أمره بالعفو عن حاطب ولولا هذا فمن يدري ماذا كان يقوله رسول الله ﷺ وأي مصير كان سيلقاه حاطب وأي حكم كان سيصدر عليه ؟ ولعل الوحي أخبره بصدقه .

جـ - أبو لبابة الأنصاري :

وذلك أبو لبابة الأنصاري رضي الله عنه يرسله الرسول عليه السلام إلى يهود بني قريظة بناء على طلبهم ليستشيروه في أمرهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضيق عليهم المسلمون الخناق وأبي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلا أن ينزلوا على حكمه . . لقد قابل اليهود أبا لبابة بمظاهرة من النحيب والبكاء والصراخ والعويل وهم يسألونه : أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم . . وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح . . قال أبو لبابة : فوالله

ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ .. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت .. وعاهد الله : أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ـ وكان قد استبطأه ـ قال : « **أما إنه لو جاءني لاستغفرت له فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلعه من مكانه حتى يتوب الله عليه** » .

هذا أبو لبابه يزل لسانه عن غير قصد منه .. ولكنه تأثر لمنظر الصبية الذين كانوا يبكون والنساء اللائي كن يولولن والرجال الذين كانوا يستغيثون ... فزل زلة قال عنها : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ .. ثم بعد ذلك يذهب ليربط نفسه بعمود من أعمدة المسجد منتظراً قضاء الله وقدره فيه .. ويعلم رسول الله ﷺ خبره .. ويشعر أنه قد قرع نفسه ولامها وشعر بخطئه فيقول : « أما إنه لو جاءني لاستغفرت له » .. ولكن أبا لبابة لجأ إلى ربه صادقاً فتاب عليه .. فالرسول عليه السلام أبدى رأيه وأعرب عنه بذلك القول الذي ذكرته آنفاً .. ولكن أبا لبابة لم يلجأ إلى رسول الله ﷺ .. فالقضية بهذا خرجت من دائرة اختصاصه ليقول الوحي فيها كلمته ويصدر حكمه .. ولقد نزل الوحي على رسول الله (ص) يحمل صفح الرب عن خطأ أبي لبابة .. ولقد ذكر ابن هشام أن الآية التي نزلت في ذلك « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » .

طَبيعَةُ جَرِيمَةِ النِّفَاقِ وَعقوبَتُهَا

من كل هذا لزم ـ استكمالاً للبحث ـ أن نحاول التعرف على طبيعة هذه الجريمة وهل هي جريمة سياسية أم جريمة عادية .. وهل هي من جرائم الحدود أم من جرائم التعزير ؟ .

أولاً - هل هي جريمة سياسية أم جريمة عادية ؟

إذا أردنا البحث حول طبيعة جريمة النفاق وهل هي جريمة سياسية أم جريمة عادية وجب علينا أولاً أن نشير بإيجاز إلى تعريف الفقهاء للجريمة السياسية والمجرم السياسي[1] .. فهم يسمون المجرمين السياسيين بالبغاة أو الفئة الباغية .. ويعرفونهم بأنهم « هم القوم الذين يخرجون على الإمام[2] بتأويل سائغ ولهم منعة وشوكة » ويشترطون لذلك شروطاً :

أ - **الغرض من الجريمة** : أن يكون الغرض منها هو عزل رئيس الدولة أو الهيئة التنفيذية xxxxxx[3] الامتناع عن الطاعة .. ولكن إذا كان هدف الجريمة تغيير الأنظمة الاجتماعية لا تعتبر الجريمة سياسية كالدعوة إلى الشيوعية مثلاً .

ب - **التأول** : أن يكون هنالك تأول للخروج ولو كان الدليل على ذلك تافهاً كتأويل بعض مانعي الزكاة في عهد الصديق رضي الله عنه أن الزكاة لا تدفع إلا لمن كانت صلاته سكناً لهم أي لرسول الله ﷺ طبقاً لقوله تعالى ﴿ **خذ من أموالهم صدقة .... إلى قوله ..... وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ .

جـ - **الشوكة** : وثمة شرط ثالث أن يكون معه غيره حيث يصبح هو ومن ناصره قوة يمكنها الثورة في وجه الإمام .

د - أن تقع الجريمة في حالة ثورة أو حرب أهلية قامت لتنفيذ ما دعى اليه البغاة .

فإذا كانت الجريمة جريمة سياسية فإن الشريعة تبيح دم هؤلاء البغاة وأموالهم بالقدر الذي يستلزمه ردعهم .. فإن كان للدولة الغلبة والقى البغاة سلاحهم كان لولي الأمر أن يعفو عنهم وكان له أن يعزرهم على خروجهم لا على

---

(١) راجع التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي للأستاذ عبد القادر عودة جـ١ ص ١٨٢ .

(٢) الإمام هو رئيس الدولة أو حاكمها الأعلى .

(٣) في الأصل كلمة غير واضحة ص ٢ من ملحق ص ٢٢٥ .

ما ارتكبوه أثناء الخروج . . وعقوبة التعزير هنا عقوبة سياسية . . أما ما يقع من البغاة وليس من مستلزمات الثورة كشرب الخمر والزنا فهي جرائم عادية يعاقبون عليها بالعقوبات العادية .

وإذا استعرضنا جرائم النفاق يمكن القول بأن بعضها ممكن أن يكون جريمة سياسية . . وذلك كإحداث فتنة بين صفوف المسلمين وخروج على إمامهم المبايع بتأويل تافه لا يعتبر حجة كأولئك الذين خرجوا على الامام علي رضي الله عنه بمقولة أنه يعرف قتلة عثمان ويقدر عليهم ولا يقتص منهم . . وكأولئك الذين خرجوا عليه بزعم يزعم أنه أخطأ في قبوله التحكيم . . . . وثمة أمر آخر قد تعرضنا له حين حديثنا عن شعب النفاق ذلك حينما تحدثنا عن منع الزكاة وأبنّا أنها شعبة من شعب النفاق . . فإذا خرج مانعوا الزكاة ولهم منعة وشوكة بتأول ولو كان ضعيفاً يحاربون الإمام كما حدث على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإن هذه الجريمة إذن تكون جريمة سياسية .

ولكن إذا كانت الجريمة جريمة خيانة الوطن وإفشاء أسرار الدولة كما سبق أن بيّنا في شعبة الخيانة العظمى فإن الجريمة لا تعتبر جريمة سياسية وإنما هي جريمة عادية . . فالاتجاه الحديث في القانون الوضعي وكذلك اتجاه الشريعة من قبل ذلك بأن الجرائم التي تمس كيان الوطن ولا تمس نظام الحكم والحكام وكذا الجرائم الموجهة ضد النظام الاجتماعي كجرائم الشيوعية والفوضوية كل ذلك جرائم عادية ومن ثم نستطيع القول أن بعض جرائم النفاق قد تعتبر أحياناً من الجرائم السياسية إذا توفرت فيها شروط الجريمة السياسية ولكن لا يمكن القول أنّ كل جرائم النفاق هي جرائم سياسية لأنها في الغالب الأعم ليست كذلك .

ثانياً ـ هل جريمة النفاق من جرائم الحدود ؟

إذا استعرضنا جرائم الحدود وجريمة النفاق وجدنا جريمة النفاق تتفق مع جرائم الحدود في وجه وتختلف معها في وجهين :

١ ـ أما وجه الاتفاق فهو أن الشريعة الغراء وضعت لكل حد عقوبة معينة . . فللسرقة عقوبة معينة . . وللزنا . . كذا الأمر في سائر الحدود . . ولقد

عينت الشريعة الغراء عقوبة النفاق وهي القتل . . حيث وضح ذلك في قوله تعالى : « ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » وقوله تعالى : ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾ . وهذا في النفاق الاعتقادي بعد الاثبات.

٢ ـ وأما وجها الاختلاف فموقعهما :

أ ـ أن عقوبة الحد لا يجوز لولي الأمر فيها العفو . . ولكن عقوبة النفاق كما سبق أن بيّنا يجوز لولي الأمر فيها العفو كلما رأى المصلحة العامة في ذلك .

ب ـ أن عقوبات جرائم الحدود وكذا جرائم القصاص والدية لا اعتبار فيها لشخص المجرم وإنما العبرة بالجريمة ذاتها . . ولكن في جريمة النفاق ينظر فيها الى شخص المجرم والجريمة معاً . . وأكبر دليل على ذلك قوله ﷺ في أمر حاطب بن أبي بلتعة في رواية ابن اسحاق « أليس من أهل بدر . . فقال : لعل الله اطلع الى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو قد غفرت لكم » .

فإذا صح ذلك فجريمة النفاق ليست من جرائم الحدود وعقوبتها ليست كذلك من عقوبات الحدود .

ثالثاً ـ هل هي من جرائم التعازير ؟

ولو أمعنا النظر في جرائم التعازير وجريمة النفاق لا يمكننا اعتبارها بحال من الأحوال أنها من جرائم التعازير وذلك لأنها اتفقت معها في أمرين واختلفت معها في أمر :

أ ـ أما ما اتفقتا فيه فهما :

١ ـ أن العقوبات المقررة لجرائم التعازير وكذا عقوبة جريمة النفاق لولى الأمر حق العفو عنها بخلاف عقوبات جرائم الحدود والدية والقصاص .

٢ ـ أن عقوبات جرائم التعازير وكذا جريمة النفاق ينظر فيهما الى الجريمة وشخص المجرم معاً بعكس جرائم الحدود والدية والقصاص التي لا اعتبار فيها للجريمة فقط .

ب ـ أما ما اختلفتا فيه فهو :

أن عقوبات التعازير هي عقوبات على جرائم لم تضع الشريعة لها عقوبة مقدرة أما عقوبة جريمة النفاق فهي محددة في الشريعة كما سبق أن أوضحت ذلك وهي عقوبة القتل .

جريمة النفاق ذات طبيعة خاصة

ومن ثم إذا كانت جريمة النفاق قد اختلفت مع جرائم الحدود في وجهين واختلفت مع جرائم التعازير في وجه . . وثبت أنها ليست من هذا ولا ذاك . . فإننا نستطيع أن نعتبرها جريمة خاصة لها طبيعتها المميزة لها . . وبالتبعية تصبح عقوبتها عقوبة لها طبيعتها المستقلة عن عقوبات جرائم الحدود وكذا عن عقوبات جرائم التعازير . . فإذا كانت عقوبات جرائم الحدود لا يملك الامام حق العفو عنها ولا الإسقاط . . فإن الأمر على نقيض ذلك بالنسبة لجريمة النفاق . . فللإمام مطلق الحرية في تقدير ظروف كل جريمة على حدة بالنظر الى شخص المجرم . . فإذا رأى من مصالح الأمة الإسلامية العفو عفا وكذا إذا تبين له أن الشخص الذي وقع منه الجرم من أولئك الذين حسنت أعمالهم السابقة ويرجى صلاحهم صدر العفو عنه عملاً بسنة رسول الله ﷺ . . **فقد ذكر ابن حزم في كتابه المحلى قال :**

١ ـ حدثنا عبد اللهبن ربيع نا محمد بن معاوية نا احمد بن شعيب أن محمد بن حاتم أنا سويد ـ هو ابن نصر ـ أنا عبد الله ـ هو ابن المبارك ـ عن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر عن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمرة عن رسول الله ﷺ قال : « **تجاوزوا عن زلة ذي الهيئة** » وكذلك إذا كانت جرائم التعازير قد اتفقت مع جريمة النفاق في وجهين الا انها اختلفت معها في وجه مهم هو أن عقوبة جريمة النفاق محددة في الشريعة ومقدرة . . أما عقوبات جرائم التعاريز فعلى النقيض من ذلك .

توبـة الجانـي

لقد اتفق الفقهاء على أن التوبة مسقطة لعقوبة جريمة الحرابة وذلك إذا تمت

---

(١) ذكر ابن حزم هذا الحديث من بين أحاديث أخرى ضعفها وقال عن هذا « أما حديث عبد الرحمن بن مهدي فهو جيد والحجة به قائمة » جـ ١ ص ٤٠٥ .

التوبة قبل قدرة الإمام أو نائبه على المحارب . . ولكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك . . وسوف أعرض لآرائهم بايجاز . . وهم في ذلك[1] ثلاث نظريات :

١ ـ أما النظرية الأولى فالقائل بها بعض فقهاء الشافعية والحنابلة يرون أن التوبة مسقطة للعقوبة بشرط أن تكون الجريمة من الجرائم المتعلقة بحق الله كالزنا والشرب . . ولا يرون ذلك فيما تعلق بحق الأفراد كالقتل أو الضرب . . ويشترط البعض ان تكون التوبة مصحوبة باصلاح العمل ولا يرى الآخرون ذلك . . واحتجوا في ذلك بحجج منها أن عقوبة الحرابة ـ وهي من أشد العقوبات في الاسلام ـ نص القرآن على سقوطها إذا تمت التوبة قبل القدرة على المحارب وتعلقوا بنصوص من القرآن والسنة منها قوله ﷺ « **التائب من الذنب كمن لا ذنب له** » .

٢ ـ أما النظرية الثانية فقد تزعمها الإمامان مالك وأبو حنيفة وكذا فريق من فقهاء الشافعية والحنابلة . . وهم يرون أن العقوبة لا تسقط بالتوبة لأنها كفارة عن المعصية . . **وأن رسول الله ﷺ أمر برجم ماعز والغامدية وقطع يد الذي أقر بالسرقة وقد جاءوه مقرين بالذنب تائبين الى الله وأنه لا وجه للشبه بين المحارب وغيره** . . فالمحارب مجرم لا يُقدرُ عليه ورأت الشريعة تشجيعه بإسقاط العقوبة عنه بالتوبة قبل القدرة . . أما غيره من المجرمين فمقدور عليهم . . فضلاً على أن القول بالرأي السابق فيه إهدار لحقوق المجتمع بتعطيل العقوبات لأن كل مجرم في استطاعته ان يزعم أنه تائب الى الله منيب اليه .

٣ ـ والنظرية الثالثة هي وسط بين النظريتين السابقتين . . والقائلان بها هما الإمامان : ابن تيمية وابن القيم أحد تلامذته . . وهما من أئمة المذهب الحنبلي . . ويريان أن العقوبة تطهر من المعصية وأنها إذا كانت عقوبة جريمة من الجرائم التي تمس حقاً لله فإن التوبة تسقطها إلا إذا طلب الجاني نفسه أن توقع عليه العقوبة لأنها تطهير له .

وبالنسبة للعدول للتوبة عن إتمام الجريمة فإنه طبقاً للنظرية الأولى إذا كانت

---

(١) راجع التشريع الجنائي الإسلامي فقرة ٢٥٣ وفقرة ٥٣٠ .

الجريمة مما يمس حقوق الجماعة سقطت العقوبة . . والأمر على عكس ذلك إذا كانت الجريمة تمس حقاً للأفراد . . ولكن طبقاً للنظرية الثانية لا أثر للعدول للتوبة على العقوبة . . وطبقاً للنظرية الثالثة أن من عدل عن إتمام جريمته تائباً تسقط عنه العقوبة إذا كانت الجرائم مما يمس حقاً لله وذلك إلا إذا طلب الجاني نفسه أن يعاقب للتطهر . . ولكن لا أثر للعدول للتوبة إذا كانت الجريمة مما يمس حقوق الأفراد .

ذلك هو موجز آراء الفقهاء في التوبة وهل هي مسقطة للعقوبة أم غير ذلك . . ولقد سبق القول أن هذه الجريمة لها طبيعتها الخاصة التي تختلف عن طبيعة الحدود والذي يجعل بالتبعية للعقوبة المقررة لجريمة النفاق طبيعة مميزة . . وهذه الآراء جميعها لا عبرة لها في نظرنا بالنسبة لعقوبة جريمة النفاق إلا في حالة واحدة هي حالة ما اذا تاب الجاني ولم ير الإمام أن يستعمل حقه في العفو . . فهل يكون في هذه الحالة متأثماً أي منزلاً العقاب بمن لا عقاب عليه ؟

وسر الاهتمام بهذه الحالة وحدها أنه في الحالات التي يرى الإمام استعمال حق العفو فيها لا رقيب عليه في استعمال حقه إلا الله ثم ضميره . . لأنه وحده هو الذي يدرس كل حالة على حدة ويقدر الظروف التي تستدعي العفو في نظره . . فإما أن تكون حسن التوبة أو اتقاء فتنة قد تضر بصالح المسلمين أو أن الجاني أصلاً من ذوي الهيئات الذين يجب ان تقال عثراتهم . . وكل هذا قد راعاه رسول الله ﷺ في ظروف أولئك الذين عفا عنهم من المنافقين .

وفي يقيني أن التوبة هنا لا أثر لها على إسقاط العقوبة بمعنى أن الامام يُلزم بإسقاط العقوبة عن الجاني اذا علم بتوبته . . ولكن كما سبق القول أن من حقه أن يدخل ذلك في حسابه إذا أراد استعمال حقه في العفو . . ولا سبيل للتعلق بما قاله البعض من أن رسول الله ﷺ كان يأتيه المنافقون فيقبل توبتهم . . ولكنني أرد على أولئك فأقول ان رسول الله ﷺ كان يعفو عن المنافقين لظروف سبق أن أوضحتها وقلت إن أهمها كان اتقاء الفتن الداخلية ومحاولة تألف قومهم عن طريق العفو عنهم وخاصة ان بعضهم كان من الزعماء أمثال عبد الله بن أبي بن سلول . . وليس أدل على ذلك من أن معظمهم كان يأتي مستغفراً مقسماً بالله على صدق إيمانه

تائباً فينزل القرآن فيفضحه ويبين كذبه . . ثم بعد ذلك لا ينزل الرسول عليه السلام بهم العقوبة . . أليس فيهم نزل قول الله تعالى **﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾** . . بل إن بعضهم كان يصر على جرمه ويتشبث بإثمه . . وفي ذلك نزل قول الله تعالى **﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** . . . وقد صحت الأخبار أن هذا القرآن نزل في ابن أبي حينما دعى ليستغفر له رسول الله ﷺ فأبى واستكبر . . وقد ذكرت الآية الثانية أن الله لن يغفر لهم . . . فأقول لأولئك الذين زعموا أن المنافقين كانوا يأتون رسول الله ﷺ فيتوبون ويستغفرون . . هل تاب ابن أبيّ وصدقت توبته فقبل منه رسول الله ﷺ أم أن رسول الله ﷺ أنفذ في ابن أبيّ عقوبة النفاق وهي القتل ؟ وأنا أقول لا هذا ولا ذاك وإنما عفا رسول الله ﷺ عن ذلك المنافق الذي كان قد نجم نفاقه تألفاً لقومه واتقاء للفتنة . . وهو في هذا غير معطل لحكم أمره الله به . . حاشى لله فلا يقول بهذا الا كافر مارق أو منافق قد نجم نفاقه واستحق اللعنة والقتل على الحاده . . ولكن أقول أن رسول الله ﷺ كان في هذا مستعملاً لحقه المطلق في العفو عن عقوبة هذه الجريمة .

بقي أن نعرض لمسألتين حتى لا يتعلق بهما متعلق في أن التوبة مسقطة لعقوبة جريمة النفاق : أولاهما : ما سبق أن ذكرناه من أمر أبي لبابة الأنصاري وما صدر منه في حق الأمة الإسلامية وإفشائه سراً لرسول الله ﷺ متأثراً بحالة اليهود . . وقد سمى هو نفسه ما فعله خيانة لله ولرسوله فذلك أمر يبطل التعلق به . . ولو كانت التوبة تسقط العقوبة لصفح عنه رسول الله ﷺ لما أحسه من صدق توبته . . أما ما روى عنه ﷺ معلقاً على ما فعل أبو لبابة بنفسه من الارتباط بعمود من أعمدة المسجد « أما إنه لو جاءني لاستغفرت له فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . . فيحمل منه ﷺ ذلك على أنه لو جاءه لاستعمل حقه عليه السلام في العفو : ولا حجة فيها لمتعلق لأنها قضية خاصة صدر فيها حكم من الله بالتوبة فنزل قوله تعالى : **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور**

رحيم﴾ .. فلا سبيل للتعميم بغير معمم .

أما الثانية : فأمر الثلاثة الذين خلفوا .. لقد كانوا من خيرة الصحابة. ولكن في حالة من حالات الوهن التي قد تعتري كل مؤمن ولا سبيل للتغلب عليها إلا بشدة الإيمان وقوة الارادة ومغالبة أحاييل الشيطان .. تخلف الثلاثة بغير عذر ولكنهم صدقوا رسول الله ﷺ ولم يكذبوه كأولئك المنافقين الذين تخلفوا بدون عذر حتى إذا جاء رسول الله ﷺ اختلقوا له الأعذار فقبلها منهم رسول الله ﷺ .. ولقد سبق أن أوضحت أن التخلف عن الجهاد إنما هو شعبة من شعب النفاق هؤلاء الثلاثة أمر الرسول ﷺ بمقاطعتهم فظلوا مقاطعين خمسين ليلة لا يكلمهم مسلم حتى نزلت توبتهم بتوبته تعالى ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم**﴾ فهذه الأخرى واقعة خاصة لا سبيل للتعلق بها للقول بأن التوبة مسقطة لعقوبة جريمة النفاق .

عقوبات تعزيرية

وثمة عقوبات تعزيرية ممكن توقيعها باعتبارها أحكاماً عامة وذلك في حالة صدور عفو من الإمام بالنسبة لعقوبة القتل السابق الحديث عنها .. أو توقيع عقوبة من عقوبات التعازير ابتداء إذا كان الجرم الواقع من الجاني ليس من البشاعة الى الحد الذي يستحق أن توقع عليه عقوبة القتل .. كأن يكون مرتكباً لجريمة من جرائم النفاق العملية البسيطة كالكذب والبذاء الواقع في حق انسان مسلم .. وقد سبق القول بأن الإمام يملك حق العفو عن عقوبة القتل في جرائم النفاق فهو من باب أولى يملك ابتداء النزول بها الى احدى العقوبات التعزيرية ولقد ورد في القرآن والسنة عقوبات تعزيرية بالنسبة لجرائم النفاق نعرض لها في ايجاز :

أولاً ـ عقوبة الوعظ :

وذلك لقوله تعالى :

﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعِظْهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ (الآية ٦٣ النساء) .

فعقوبة الوعظ يجوز ابتداء للإمام ان يكتفي بها كعقوبة لجريمة النفاق . . وعقوبة الوعظ اعترف بها علماء الشريعة الإسلامية كعقوبة تعزيرية ورأوا انه يجوز للقاضي أن يكتفي في عقاب الجاني بوعظه إذا رأى أن في الوعظ ما يكفي لإصلاحه وردعه وذلك بالنسبة لجرائم التعازير فقط . . ولكن الأمر مختلف بالنسبة لجرائم النفاق الذي للإمام أصلاً حق العفو عن عقوبة القتل . . فله ابتداء أن يقضي بعقوبة الوعظ على الجاني .

ثانياً ـ عقوبة التوبيخ :

لقد جاء في آية سورة النساء السابقة قوله تعالى **﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾** وذلك بأن يقول لهم كلاماً بليغاً رادعاً .

فالتوبيخ عقوبة تعزيرية بالنسبة لجرائم النفاق . . وقد اعتبرها أيضاً علماء الشريعة عقوبة لجرائم التعازير مستشهدين في ذلك بتعزير رسول الله ﷺ أبا ذر الغفاري رضي الله عنه حينما سب رجلاً . . فقد روى أبو ذر رضي الله عنه قال : سابيت رجلاً فعيرته بأمه فقال رسول الله ﷺ **« يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيه جاهلية »** .

ومن ذلك ما روى أن عبداً من عامة الناس شكى عبد الرحمن بن عوف الى رسول الله ﷺ فغضب ابن عوف رضي الله عنه وسب العبد قائلاً « يا ابن السوداء » فغضب النبي ﷺ ورفع يده **قائلاً ليس لابن بيضاء على ابن سوداء سلطان إلا بالحق »** فاستخذى عبد الرحمن وخجل ووضع خده على التراب ثم قال للعبد : طأ عليه حتى ترضى .

ثالثاً ـ عقوبة الهجر :

لقد سبق التحدث عن التخلف عن الجهاد وأبنت أن ذلك شعبة من شعب النفاق . . كما تعرضت لحديث الثلاثة الذين خلفوا وذكرت أن البخاري وغيره

رووا عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أمر بهجره هو وزميليه مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية . . فظلت هذه المقاطعة خمسين يوماً لا يكلمهم أحد من المسلمين حتى أنزل الله تبارك وتعالى توبتهم في قوله تعالى **﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾** (التوبة ١١٨) .

رابعاً ـ عقوبة التهديد :

ودليل ذلك قول الله تعالى :

﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (الأحزاب من ٦٠ إلى ٦٢) .

ويرى الفقهاء أن التهديد عقوبة تعزيرية في الشريعة بشرط ألا يكون تهديداً كاذباً وبشرط أن يرى القاضي أنه منتج وأنه يكفي لإصلاح الجاني وتأديبه .

والقوانين الوضعية تعترف بعقوبة التهديد . . فمنها من يرى الحكم بالعقوبة مع إيقاف تنفيذها لمدة معينة فان عاد الجاني أثناءها تنفذ العقوبة الموقوفة . . ومنها من يرى الاكتفاء بإنذار الجاني ألا يعود لجريمته . . ومنها من يرى أن يوقف القاضي إصدار الحكم إلى أمد معين .

خامساً ـ عقوبة التشهير :

والتشهير يكون بالإعلان عن جريمة المحكوم عليه بأية وسيلة من وسائل الإعلان . . ولقد أنزل الله تبارك وتعالى مهدداً المنافقين بالتشهير بقوله :

﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ (التوبة ٦٤) .

ولقد أنزل الله تعالى قرآناً في أكثر من موضع مشهراً بالمنافقين وأعمالهم ويعيب عليهم صنعهم .. منها قوله تعالى :

﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ (التوبة ٦٥) .

(٢) ولقد أنزل الله تعالى سورة « المنافقون » تفضح عبد الله بن أبي بن سلول .. وجاء بها تشهيراً به :

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (المنافقون ٧ ، ٨) .

ولقد سقت حديثين رواهما السدي وابن سعد في طبقاته وذلك عند حديثي عن الغلظة عليهم في باب معاملتهم .. في الأول قال رسول الله ﷺ « اخرج يا فلان إنك منافق واخرج يا فلان فإنك منافق » أما الحديث الثاني الذي رواه ابن سعد في طبقاته قال : (اجتمع المنافقون فتكلموا بينهم فقال رسول الله ﷺ « إن رجالاً منكم اجتمعوا فقالوا كذا وقالوا كذا فقوموا واستغفروا الله واستغفر لكم » ثلاث مرات فقال « ما لكم فقوموا فاستغفروا واستغفر لكم » ثلاث مرات فقال « لتقومن أو لأسمينكم بأسمائكم » فقال « قم يا فلان » قال فقاموا خزايا متقنعين) .

فهذا رسول الله ﷺ يشهر بهم في المسجد على ملأٍ من المؤمنين .

سادساً ـ عقوبة حرق مكان الاجتماع أو هدمه :

فلقد روى ابن اسحاق وغيره في أمر مسجد الضرار أن رسول الله ﷺ لما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله (ص) مالك بن الدخشم أخا بني سالم ابن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي كما جاء في سيرة ابن هشام فقال : **« انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه »** ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ .

وقد روى ابن هشام في سيرته أن ناساً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق بيت سويلم ففعل .

فهذه العقوبات التعزيرية قد سقتها لا على سبيل الحصر وإنما ذكرتها لأنها وردت في حق المنافقين وليس هنالك ما يمنع من توقيع عقوبات تعزيرية أخرى كالحبس والنفي والجلد وخلافه .

(٢) حكم خاص

وأعني بالحكم الخاص تلك الشعب من النفاق التي خصص لها الشارع حكماً قائماً بذاته وعرف باسمها في الشريعة الإسلامية « كحكم المرتد في الإسلام » أو فرض لها حداً خصص بها وأفرد له الفقهاء قسماً في باب الحدود أو كتب الأحكام .

فالردة والإفساد في الأرض والقذف في أعراض المؤمنين شعب تطبق عليها هذه القاعدة .

أ ـ حكم الردة :

والمعروف أن حكم المرتد عن الإسلام أن يستتاب أولاً فإن تاب وعاد إلى إسلامه لم يقتل وإلا كان جزاؤه القتل .. ولقد نازع أقوام في قتل المرتد ونازع آخرون في استتابته .. وسوف أعرض لذلك دون تفصيل .

ولقد وردت آيات في المنافق المرتد إليكم بيانها وبيان ما اشتملت عليه من أحكام : ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً * ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم**

فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً * ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً * ﴾ (النساء من ٨٨ إلى ٩١) .

اشتملت الآيات السابقة على المعاني والأحكام الآتية :

١ ـ بينت الآية الأولى أن المسلمين قد اختلفوا في أمر المنافقين . . وقال المفسرون في ذلك قولين : الأول أن الخلاف بين المسلمين كان حول قتلهم . . والثاني أن الخلاف كان خاصاً بتكفيرهم فقط . . ولقد نهاهم الله عن الخلاف في شأنهم لأنه تعالى ردهم إلى حكم الكفرة (الآية رقم ٨٨) .

٢ ـ نهى سبحانه وتعالى (في الآية ٨٩) عن موالاة المنافقين الذين يرتدون حتى يستتابوا[١] وذلك بأن يدعوا إلى تجديد إيمانهم بهجرة في سبيل الله خالصة إلى وجهه . . فإن لم يفعلوا كان جزاؤهم أن يقتلوا أنّى وجدوا . . واستثنى من ذلك الحالتين الآيتين :

أ ـ من ترك المحاربين ولجأ إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد . . وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية : فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه . . وقد روى عن ابن عباس قال نسخها قوله « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . . يريد أن هذا لا يعفيه من القتل .

ب ـ أو من جاء إلى رسول الله ﷺ مسالماً وكف عن قتال الفريقين وأبى أن ينحاز إلى أحدهما .

٣ ـ وهنالك فريق ثالث يريدون أن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم كلما دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين استجابوا . . فإن لم يكفوا أيديهم وذلك بمصالحتكم أو

---

(١) روى ابن أبي حاتم عن طريق جابر المعلي عن عامر الشعبي عن علي رضي الله عنه أنه قال « يستتاب المرتد ثلاثاً . . ثم تلا هذه الآية ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ .

مهادنتكم فإنما جزاؤهم أن يؤخذوا ويقتلوا أنى وجدوا .. ويبدو أن هذا الصنف من الناس كان إذا التقى بالمسلمين أظهروا الإسلام أو ادعوا ذلك وإذا عادوا إلى قومهم عادوا إلى الكفر والإشراك .

ولقد قال أقوام إن المرتد لا يقتل .. محتجين بزعم خاطىء هو أن المنافقين مرتدون ولم يقتلهم رسول الله ﷺ .. ولقد عقد ابن حزم في كتابه[1] المحلى فصلاً للرد على القائلين بذلك القول .. ولقد سبق قولنا بأننا نتفق معه في جزء مما ذهب إليه وننكر عليه الجزء الآخر .. ولقد أوضحت أن جريمة (الردة) إنما عقوبتها القتل وأوضحت الظروف التي دفعت رسول الله ﷺ للعفو عنهم .

ولقد احتج القائلون بقتل المرتد بأحاديث أذكر منها :

(١) عن عكرمة قال : أتى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بزنادقة[2] **فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ قال : لا تعذبوا بعذاب الله .. ولقتلتهم لقول رسول الله (ص) : من بدل دينه فاقتلوه ... رواه الجماعة إلا مسلماً وليس لابن ماجة فيه سوى من بدل دينه فاقتلوه .**

(٢) وفي حديث لأبي موسى أن النبي ﷺ قال له : اذهب إلى اليمن .. ثم أتبعه معاذ بن جبل .. فلما قدم عليه ألقى له وسادة وقال : انزل .. وإذا رجل عنده موثق .. قال : ما هذا ؟ قال : كان يهودياً فأسلم ثم تهوّد .. قال : لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله .... متفق عليه .. وفي رواية لأحمد : قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه .. ولأبي داود في هذه القصة : فأتى أبو موسى برجل قد ارتد عن الإسلام فدعاه عشرين ليلة أو قريباً منها فجاء معاذ فدعاه فأبى فضرب عنقه .

---

(١) راجع المحلي لابن حزم جـ ١١

(٢) المرتد هو الراجع من الاسلام إلى الكفر والزنديق كما قال النووي في الروضة هو الذي لا ينتحل ديناً .

قال[1] أقوام : يجب قتله في الحال دون استتابة وهو ما ذهب إليه الحسن وطاووس . . ولقد قال به أهل الظاهر ونقله ابن المنذر عن معاذ وعبيد بن عمير وهو المستفاد من تصرف البخاري فإنه استظهر بالآيات التي لا ذكر فيها للاستتابة والتي فيها أن التوبة لا تنفع وبعموم قوله من بدل دينه فاقتلوه وبقصة معاذ المذكورة ولم يذكر غير ذلك .

أما الجمهور فقالوا : يستتاب فإن تاب وإلا قتل .. واحتجوا برواية أبي داود لقصة معاذ وبما رواه الشافعي عن محمد بن عبد الله بن عبد القاريّ قال : قدم على عمر بن الخطاب رجل من قبل أبي موسى فسأله عن الناس فأخبره ثم قال : هل من مغربة خبر ؟ . . قال : نعم . . كفر رجل بعد إسلامه . . . قال : فما فعلتم به ؟ . . قال : قربناه فضربنا عنقه . . فقال عمر : هلا حبستموه ثلاثاً واطعمتموه كل يوم رغيفاً واستتبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله ؟! اللهم إني لم أحضر ولم أرضَ إذ بلغني . . . (وأخرجه أيضاً مالك في الموطأ عن عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن عبد القاري عن أبيه . . ورواه البيهقي من حديث أنس قال : « لما نزلنا على تستر فذكر الحديث وفيه » فقدمت على عمر رضي الله عنه فقال : يا أنس ما فعل الستة الرهط من بكر بن وائل الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بالمشركين . . . قال : يا أمير المؤمنين قتلوا بالمعركة . . فاسترجع عمر . . قلت : وهل كان سبيلهم إلا القتل ؟ . . قال نعم . . قال : كنت أعرض عليهم الإسلام فإن أبوا أودعتهم السجن » .

ولقد قال الشافعي رضي الله عنه : من لا يتأتى بالمرتد زعموا أن هذا الأثر عن عمر ليس بمتصل . . وأخرج الدارقطني والبيهقي أن أبا بكر رضي الله عنه استتاب امرأة يقال لها ام قرقة كفرت بعد إسلامها فلم تتب فقتلها . . قال الحافظ : وفي السير أن النبي ﷺ قتل أم قرقة يوم قريظة وهي غير تلك . . وفي الدلائل عن أبي نعيم أن زيد بن ثابت قتل أم قرقة في سريته إلى بني فزارة .

ويرى الجمهور أن المرتدة حكمها كالمرتد سواء بسواء . . وقال أبو حنيفة

---

(١) راجع نيل الأوطار للشوكاني وبداية المجتهد ونهاية المقتصد والمحلى لأبن حزم .

رضي الله عنه : لا تقتل .. مشبهاً إياها بالكافرة متمسكاً بحديث النهي عن قتل النساء .. إلا أن الجمهور حمل النهي على الكافرة الأصلية إذا لم تباشر القتال ... وهذا الذي أخرجه الدارقطني والبيهقي من أن أبا بكر رضي الله عنه قتل مرتدة دون معارضة الصحابة له في ذلك ينهض دليلاً على ذلك .

وبالنسبة للزنديق يرى الشافعي رضي الله عنه أنه يستتاب كما يستتاب غيره .. ولكن روى عن الإمامين أحمد وأبي حنيفة روايتان إحداهما : لا يستتاب والأخرى : إن تكرر منه ذلك لم تقبل توبته .. وهذا القول محكى عن الليث وإسحاق .. وحكى في البحر عن العترة وأبي حنيفة والشافعي ومحمد أنها تقبل توبة الزنديق لعموم : إن ينتهوا .. وعن مالك وأبي يوسف والجصاص : لا تقبل .

قلنا إن الرأي الراجح ـ وهو رأي الجمهور ـ هو قتل المرتد ولكن بعد استتابته أولاً .. فإن تاب وإلا قتل .. والشريعة إذ تعاقب على جريمة الردة بالقتل فلأنها جريمة تقع ضد دين الإسلام الذي عليه يقوم النظام الاجتماعي .. ومن ثم عوقب عليها بأشد العقوبات وهي القتل .

ومن ناحية القوانين الوضعية فإن أكثرها اليوم يفرض عقوبة القتل كلما كانت هنالك جريمة يقصد بها النيل من النظام الاجتماعي عن الدولة حتى تردع كل مخلٍ بالنظام الاجتماعي عن عابث به .

وإن كان الجمهور على أن المرتد يستتاب أولاً إلا أن هنالك خلاف حول الاستتابة : هل هي مرة أم لا بد من ثلاث مرات .. وهل الثلاث في مجلس واحد أو في يوم أو في ثلاثة أيام .. ونقل ابن بطال عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن المرتد يستتاب شهراً .. وعن النخعي أنه يستتاب أبداً .

ثانياً ـ عقوبة المصادرة : وعقوبة المصادرة هي عقوبة الردة التبعية إلا أن المشهور في كيفية المصادرة ومداها روايتان :

أ ـ فمذهب مالك والشافعي والرأي الراجح في مذهب الإمام أحمد على أن المصادرة تشمل كل مال المرتد .

ب ـ وأما الرواية الأخرى فالقائل بها أئمة المذهب الحنفي وكذا بعض فقهاء الحنابلة قالوا : إن مال المرتد الذي اكتسبه قبل الردة فهو من حق ورثته المسلمين .

ب ـ حد الإفساد في الأرض :

روى البخاري ومسلم من حديث أبي قُلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرمي البصري عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها ؟» . . فقالوا : بلى . . فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا فقتلوا الراعي وطردوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في أثارهم فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمّوتْ أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا . . . لفظ مسلم . . وفي لفظ لهما من عُكْل أو عُرَيْنة . . وفي لفظ : ﴿ وألقوا في الحِرَّة فجعلوا يستسقون فلا يسقون ﴾ . . وفي لفظ لمسلم : « ولم يحسمهم » . . وعند البخاري قال أبو قلابة فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد ايمانهم وحاربوا الله ورسوله . . ورواه مسلم من طريق هشيم عن عبد العزيز بن صهيب وحميد عن أنس فذكر نحوه وعنده فارتدوا . . وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس بنحوه وقال سعيد عن قتادة من عكل وعرينة ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي عن أنس قال : إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء . . ورواه مسلم وبايعوه وقد وقع بالمدينة الدم وهو البرسام ثم ذكر نحو حديثهم وزاد : عنده شباب من الأنصار قريب من عشرين فأرسلهم وبعث معهم قافياً يقفو أثرهم . . وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله .

ولقد نزلت فيها بعد الآيات الآتية موضحة حد الإفساد في الأرض . . فلقد حكى في البحر عن ابن عباس والمؤيد بالله وأبي طالب والحنفية والشافعية أن الآية في قوله تعالى ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ نزلت في المحاربين :

(١) أخرج ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه =

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم او ارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم * ﴾ (المائدة ٣٣، ٣٤) .

الأحكام التي اشتملت عليها هاتان الآيتان :

يرى الجمهور أن الآية الأولى منزلة على أحوال . . كما قال أبو عبد الله الشافعي في مسنده : أنبأنا إبراهيم بن أبي يحيى عن صالح مولى التوأمه عن ابن عباس في قطاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا . . وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف . . وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . . . وقد رواه ابن أبي شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن عطية عن ابن عباس بنحوه . . وعن أبي مخلد وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك . . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة واختلفوا هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب أو بقتله برمح أو نحوه أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده . . في ذلك كله خلاف لا داعي للإسهاب والتطويل في عرض وجهات النظر المختلفة . . وهناك آراء أخرى لا داعي لعرضها اكتفاء بما قاله الجمهور .

قال الشوكاني : وآثر ابن عباس في إسناده ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى وهو ضعيف عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس وأخرجه البيهقي من طريق محمد بن سعيد العوفي عن آبائه إلى ابن عباس في قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قال : إذا حارب فقتل فعليه القتل إذا ظهر عليه قبل توبته فإذا

= الآية : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ فكتب إليه أنس يخبر أن هذه الآية نزلت في العرينيين ارتدوا عن الاسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الابل . . . . الحديث . . . . ثم أخرج عن جرير مثله واخرج عبد الرزاق نحوه عن أبي هريرة

حارب وأخذ المال وقتل فعليه الصلب وإن لم يقتل فعليه قطع اليد والرجل من خلاف وإذا حارب وأخاف السبيل فإنما عليه النفي .

وقد روى ابن جرير في تفسيره حديثاً إن صح سنده فهو يؤيد ما سبق . . قال : حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرينين وهم من بجيلة . . قال أنس « فارتدوا عن الاسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفَرْج الحرام . . قال أنس . . : **فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال** : **من سرق مالاً** وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته ومن قتل فاقتله ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه .

ولقد ورد عن النفي عدة آراء أذكر منها :

١ ـ قال البعض هو أن يُطلَب حتى يُقدَرَ عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام . . وهذا رواه ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وسعيد بن جبير والضحاك والربيع ابن أنس والزهري والليث بن سعد ومالك بن أنس .

٢ ـ وقال آخرون هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته . . وقال الشعبي ينفيه وقال ابن هبيرة من عمله كله .

٣ ـ ويرى عطاء الخراساني ان ينفي من جند الى جند سنين ولا يخرج من دار الاسلام مثل رأيه سعيد بن جبير وأبو الشعشاء والحسن الزهري والضحاك ومقاتل بن حيان أنه ينفى ولا يخرج من أرض الاسلام .

٤ ـ ويرى أبو حنيفة وأصحابه أن النفي هنا هو السجن .

٥ ـ واختار ابن جرير أن المراد بالنفي أن يخرج من بلده إلى بلد آخر .

٦ ـ وعند الشافعي رضي الله عنه : « النفي من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هارب « فزعاً » . .

أما الآية الثانية فتفصيل ما جاء بها كالآتي :

أولاً ـ الذين قالوا إنها في أهل الشرك فظاهر أن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها .

ثانياً ـ أما الذين قالوا إنها نزلت في المحاربين المسلمين فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل . . فقد روى عن علي رضي الله عنه أن الحرث بن بدر جاءه تائباً بعدما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة واختلف العلماء في قطع اليد فقال أقوام : لا يسقط قطع اليد . . وظاهر الآية يؤيد الذين قالوا بسقوط الجميع وعليه عمل الصحابة رضوان الله عليهم . . كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن الشعبي قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة وكان قد أفسد في الأرض وحارب فكلم رجالاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد الله بن جعفر فكلموا علياً فيه فلم يؤمنه فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ثم أتى علياً فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً . . فقرأ حتى بلغ ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ . . قال : فكتب له أماناً . . قال سعيد بن قيس فإنه جارية بن بدر . . وكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن مجالد عن الشعبي به وزاد فقال جارية بن بدر.

ومما سقته من أحاديث وما استخلصه الفقهاء منها . . ومن الآيتين السابقتين نستخلص الآتي :

أولاً ـ من هو المحارب أو المفسد في الأرض :

ذهب أكثر العلماء إلى أن المحارب هو من أفاق السبيل في غير المصر لأخذ المال وسواء أخاف المسلمين أو الذميين . . وفي رواية عن الإمام مالك أنه لا فرق بين المصر وغيره لأن الآية لم تفصل وهو ما قال به الأوزاعي وأبو ثور وأبو يوسف ومحمد والشافعي والناصر والإمام يحيى . . وفي رواية أخرى عن الإمام

مالك : إذا كانوا على ثلاثة أميال من المصر أو القرية فمحاربون لا دون ذلك إذ يلحقه الغوث . . وقال أبو حنيفة : لا تكون المحاربة في المصر ويكون قاطع الطريق في هذه الحالة منتهياً أو مختلساً

ثانيا ـ عقوبة الحرابة أو الافساد في الارض :

قبل أن أبدأ حديثي عن العقوبات الواردة بالآية السابقة وجبت الإشارة إلى الخلاف بين الفقهاء . . هل العقوبات الواردة في الآية فيها تخيير للإمام حسب اجتهاده أم هي للتفصيل ؟ . . وسبب الخلاف هل حرف « أو » في الآية للتخيير أو للتفصيل على حسب جناياتهم ؟ .

فمالك رضي الله عنه حمل البعض من المحاربين على التفصيل والبعض على التخيير . . وذهب الشافعي وأبو حنيفة وجماعة من العلماء إلى أن هذه العقوبة هي مرتبة على الجنايات المعلوم من الشرع ترتيبها عليه فلا يقتل من المحاربين إلا من قتل ولا يقطع إلا من أخذ المال ولا ينفى إلا من لم يأخذ المال ولا قتل . . وقال آخرون إن الإمام له مطلق التخيير سواء قتل أو لم يقتل أخذ المال أو لم يأخذه .

١ ـ **القتل** : وعقوبة القتل تجب على قاطع الطريق إذا قتل . . وهي حد لا قصاص . . ومعنى ذلك أنها لا تسقط بعفو ولي المجنى عليه .

٢ ـ **القتل مع الصلب** : ففي الأثر الذي رواه الإمام الشافعي عن ابن عباس رضي الله عنه : « إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا » . . فالعقوبة إذن على جريمتي القتل والسرقة وهي حد لا قصاص فلا تسقط بعفو ولي المجنى عليه .

وبالنسبة للصلب اختلف الفقهاء . . قال قوم يصلب حتى يموت جوعاً . . وقال أشهب . . يقتل أولاً ثم يصلب . . وقال ابن الماجشون وابن القاسم : يصلب حياً ثم يقتل في الخشبة . . والذين قالوا يقتل ثم يصلب

قالوا : يُصلى عليه قبل الصلب . . والذين قالوا بالصلب قبل القتل فقد قال سحنون إذا قتل في الخشبة أنزل منها وصلى عليه . . وقال آخرون لا يصلى عليه تنكيلاً به . . . وفريق ثالث قال : يقف خلف الخشبة ويصلى عليه . . . ولقد قال بالصلب قبل القتل الإمامان مالك وأبو حنيفة واحتجوا بأن الصلب عقوبة وإنما يعاقب الحي لا الميت . . وقال بالقتل قبل الصلب الشافعي وأحمد وحجتهم أن النص قدم القتل على الصلب في اللفظ فوجب أن يتقدمه في الفعل . . والشريعة تنهي عن التعذيب . . وهم يرون أن الصلب قبل القتل تعذيب . . وهم يرون أن الصلب شرع للزجر حتى يشتهر أمره ويرتدع بذلك غيره .

ولقد ذهب أبو حنيفة وأصحابه أنه لا يبقى على الخشبة أكثر من ثلاثة أيام . . وقال الهادي يصلب حتى تنتثر عظامه . . وقال ابن أبي هريرة حتى يسيل صديده . . وقال بعض أصحاب الشافعي يصلب ثلاثاً في البلاد الباردة وفي البلاد الحارة ينزل قبل ثلاث . . وقال الناصر والشافعي ينزل بعد الثلاث ثم يقتل إن لم يمت ويغسل ويصلى عليه إن تاب .

٣ ـ **القطع** : وفي الأثر السابق عن ابن عباس رضي الله عنه : « وإذا اخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف » .

وقال الفقهاء في كيفية القطع أن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى فإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى . . واختلف إذا لم تكن له اليمنى فقال أشهب : تقطع يده اليسرى ورجله اليسرى . . وقال ابن القاسم : تقطع يده اليسرى ورجله اليمنى .

وعقوبة قاطع الطريق في هذه الحالة تساوي عقوبة السارق إذا سرق مرتين . . وقد راعى المشرع فيها جانب الزجر والردع لأن جريمة قطع الطريق جريمة خطرة ومروعة .

٤ ـ **عقوبة النفي** : وهذه العقوبة تجب على قاطع الطريق إذا أخاف الناس ولم يأخذ المال ولم يقتل .

ولقد عرضت للآراء في النفي فذكرت طرفاً منها . . والرأي الراجح هو الذي نقله ابن القاسم عن مالك رضي الله عنه أنه يكون من بلد إلى بلد فيسجن فيه إلى أن تظهر توبته على أن تكون المسافة بين البلدين أقل ما تقصر فيه الصلاة . . وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فيرى أن النفي هنا هو السجن .

أما مدة هذا النفي : فعند مالك رضي الله عنه : حتى تظهر توبة الجاني . . ولكن عند الشافعي رضي الله عنه وأحمد والمؤيد بالله وأبي طالب والهادي هو طرد سنة . . وعقوبة النفي بالصورة التي يقول بها مالك رضي الله عنه هي تطبيق لنظرية العقوبة غير المحدودة وهي من أحدث نظريات العقاب في القوانين الوضعية .

إذا كان الجناة جماعة فكيف تطبق عقوبة جريمة الحرابة ؟

وفي حالة ما إذا كان الجناة جماعة واختلفت جناياتهم وجب النظر في كيفية تطبيق العقوبة أعني عقوبة الحرابة أو الإفساد في الأرض . . فهل يحكم القاضي على الجناة جميعاً بعقوبة واحدة أم بعقوبات مختلفة ؟ . . هذا ما اختلف فيه الفقهاء فذهبت العترة والشافعي إلى أنه يجب أن يحد كل واحد منهم بقدر جنايته . . وبمعنى آخر يجب أن ينظر القاضي إلى كل مجرم على حدة فمن قتل ولم يسرق المال قتل فقط ومن قتل وسرق قتل وصلب ومن أخذ المال ولم يقتل كانت عقوبته القطع وهكذا .

إلا أن أبا حنيفة رضي الله عنه ذهب إلى أنه يجب أن يتساووا في العقوبة لأن الذي لم يقتل مثلاً أعان زميله فقال : « بل يستوون إذ المعين كالقاتل » .

إثبات جريمة الحرابة :

كيف يمكن إثبات جريمة الحرابة ؟ . . هذا ما تعرض له فقهاء الشريعة الغراء بأمرين :

الأول : الإقرار . . أعني إقرار الجاني على نفسه وهو بدون شك سيد الأدلة .

الثاني : شهادة الشهود . . فعند مالك رضي الله عنه يقبل شهادة المسلوبين على الذين سلبوهم بل تثبيت جريمة الحرابة عنده بشهادة السماع .

أما عند الشافعي فقد أجاز شهادة أهل الرفقة على المحاربين إذا لم يدعوا لأنفسهم ولا لرفقائهم مالاً أخذوه .

جـ - حد القذف :

وأحب أن أوضح لكم أننا حينما ندرس حكم الردة . . وحدَّيْ الإفساد والقذف . . لا نقصد من هذا إلا تبياناً لعقوبات فرضها الإسلام على مرتكبي هذه الجرائم أو الآثام التي اعتبرناها شعباً للنفاق وذكرنا أسباب ذلك . . ولست أعني بهذا أن هذه العقوبات إنما قد فرضت كحكم عام للمنافقين . . فإنني قد بينت هذا آنفاً ووضحناه تمام الإيضاح .

والأصل في ثبوت هذه الجريمة وعقوبتها هو قول الله تعالى :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم * ﴾ (النور ٤ ، ٥) .

أولاً - **القاذف** : وهو الجاني . . ويشترط فيه وصفان وهما : البلوغ والعقل . . وسواء بعد ذلك كان القاذف ذكراً أو أنثى حراً أو عبداً مسلماً أو غير مسلم .

ثانياً - **المقذوف** : وقد اتفق الفقهاء - حتى يقام حد القذف على القاذف - أن يتوفر في المقذوف خمسة أوصاف وهي :

أ - البلوغ : بمعنى أن يكون المقذوف بالغاً وإلا فلا يقام لجريمة القذف لانعدام شرط من شروطها .

ب - الحرية : والجمهور بالجملة على اشتراط الحرية في المقذوف . . وقال ابن رشد في بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويحتمل أن يدخل في ذلك خلاف .

جـ - العفاف : أن يكون المشهور والمعروف عن المقذوف العفاف . .

فإن اشتهر غير ذلك فالحد لا يقام .

د ـ الإسلام : أن يكون المقذوف مسلماً فإن كان غير ذلك فلا حد .

هـ ـ أن يكون مع المقذوف آلة الزنا .

ولقد أدخل مالك رضي الله عنه في حسابه سن المرأة إن كانت جريمة القذف واقعة عليها ـ أن تطيق الوطء .

ثالثاً ـ القذف : واتفقوا في كيفية القذف أن يكون على وجهين :

الأول : أن يرمى القاذف المقذوف بالزنا .

والثاني : أن ينفيه عن نسبه إذا كانت أمه حرة مسلمة .

واتفق الفقهاء في حالة ما إذا كان القذف بهذين المعنيين بلفظ صريح فإنما يجب حد القذف .

واختلفوا في أمرين :

١ ـ **أما الأول** : إذا كانت أم المقذوف كافرة أو أمة . . فقال مالك رضي الله عنه : سواء كانت حرة أو أمة أو مسلمة أو كافرة يجب الحد . . وقال إبراهيم النخعي لأحد عليه إذا كانت أم المقذوف أمة أو كتابية . . وهو قياس قول الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما .

٢ ـ **أما الثاني** : فقد اختلفوا في حالة القذف بتعريض وليس بلفظ صريح . . فقال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى : لا حد في التعريض . . إلا أن أبا حنيفة والشافعي يريان فيه التعزير . . وقد أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه مثل قولهم . . . وحجة الجمهور في ذلك أن الحدود تدرأ بالشبهات لقوله ﷺ « **إدرأوا الحدود بالشبهات** »(١) . . ويرون أن الاحتمال الذي في الإسم المستعار شبهة .

إلا أن مالك رضي الله عنه وأصحابه يرون في التعريض الحد واستدلوا بمسألة وقعت في زمان عمر رضي الله عنه فشاور فيها الصحابة فاختلفوا فيها

---

(١) كما ورد بلفظ [ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم) رواه أبو داوود في الصلاة ص ١١٤ والترمذي في الحدود ٣ .

عليه . . فرأى عمر رضي الله عنه فيها الحد . . وعمدة مالك فيما قال به أن الكناية قد تقوم بعرف العادة والاستعمال مقام النص الصريح وإن كان اللفظ فيها مستعملاً في غير موضعه . . والمعنى بذلك أن اللفظ مقول بالاستعارة .

رابعاً ـ العقوبة :

فرضت الشريعة الغراء على القاذف عقوبتين : عقوبة أصلية وهي عقوبة الجلد وعقوبة تبعية وهي عدم قبول شهادة القاذف.

أ ـ عقوبة الجلد :

وعقوبة الجلد للقاذف ذات حد واحد لأن عدد الجلدات محدد وليس للقاضي أن ينقص منها أو يزيد عليها أو يستبدل بها غيرها .

ولقد اتفق الفقهاء على أن الحد القذف للقاذف الحر ثمانين جلدة لقوله تعالى ﴿**فاجلدوهم ثمانين جلدة**﴾ . . واختلفوا في العبد يقذف الحر . . كم حده ؟

فالذي عليه الجمهور وفقهاء الأمصار أن حد العبد نصف حد الحر أي أربعين جلدة . . وهو المروى أيضاً عن الخلفاء الأربعة وعن ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً . . وعمدة الجمهور في ذلك قياسهم حد العبد في القذف على حده في الزنا . . . وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما وكذا جماعة من فقهاء الأمصار : أبو ثور والأوزاعي وداود وأصحابه من أهل الظاهر . . وحجة أهل الظاهر تمسكهم بالعموم الوارد في الآية دون تفرقة وكذلك لما أجمعوا أيضاً أن حد الكتابي ثمانون جلدة فكان العبد احرى من الكتابي بذلك .

ولقد اتفق الفقهاء أنه في حالة تعدد جريمة القذف وكان المجنى عليه واحداً . . بمعنى إذا قذف الجاني شخصاً واحداً مراراً كثيرة فعليه حد واحد . . ولكن في حالة العود . . بمعنى أنه قذف فحُدَّ ثم قذف ثانية أقيم عليه الحد مرة ثانية .

واختلف الفقهاء في حالة القذف في حق جماعة .. فقالت طائفة منهم مالك وأحمد وأبو حنيفة والثوري : ليس عليه إلا حد واحد جمعهم أو فرقهم .. واحتج هؤلاء بحديث أنس وغيره أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سمحاء فرفع ذلك الى النبي ﷺ فلا عن بينهما ولم يحده لشريك .. وأهل العلم مجمعون أن هذا الحكم يسري فيمن قذف زوجته برجل .

والرأي الثاني : أن عليه لكل واحد حد .. قال بهذا الشافعي والليث وجماعة منهم الحسن بن حـي .

والرأي الثالث : إن جمعهم في كلمة واحدة فقال لهم : يا زناة فحد واحد .. وإن قال لكل واحد منهم : يا زاني .. فعليه لكل إنسان منهم حد .

سقوط الحد ودرؤه :

والأصل ألا تعاقب الشريعة على القذف إلا إذا كان القاذف كاذباً ومختلقاً .. أما إن كان تقريراً للواقع فلا جريمة ولا عقوبة .. وحتى يقدم القاذف دليل صدقه عليه أن يقدم أربعة شهود يثبت زنا المقذوف .. وذلك باجماع لقوله تعالى : ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ والشهود عند مالك إذا كانوا أقل من أربعة فهم قَذَفَة يقام عليهم الحد .. وعند غير مالك ليسوا بقذفة ولا حد عليهم .

وبالنسبة لسقوط الحد فقد اختلف الفقهاء .. وسر اختلافهم حول ذلك هو اختلافهم أصلاً في تحديد طبيعة حد القذف : هل هو حق لله أو حق للآدميين أو حق لكليهما ؟ فالذين قالوا إنه حق لله لم يجيزوا فيه العفو فهو كالزنا سواء بسواء .. فأبو حنيفة والأوزاعي والثوري قالوا بهذا الرأي فهم لم يجيزوا سقوط الحد .. والذين قالوا انه حق للآدمي قالوا : يصح العفو أي يسقط الحد سواء كانت الجريمة أبلغت للإمام أو لم تبلّغ .. وهذا الرأي هو الأظهر .. وعمدتهم في هذا أن المقذوف اذا صدقه فيما قذفه به سقط عنه الحد .. وهذا الرأي مروى عن مالك أيضاً .

والذين قالوا إنه حق لكليهما أي لله وللآدمي وغلبوا حق الإمام إذا وصل إليه . . قالوا بالفرق بين أن يصل الإمام أو لا يصل . . وهو المشهور عن مالك فأجاز العفو إذا لم يبلغ الإمام . . وإن بلغت الجريمة الامام فإنه لم يجز العفو أعنى سقوط الحد بعفو المجنى عليه إلا أن يريد هذا الستر على نفسه .

حكم خاص : كيف يندرىء الحد عن قاذف زوجته ؟

قال الله تعالى : **﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم*﴾** (النور ٦ ، ١٠)

قلنا إن الحد يندرىء بوجود أربعة شهداء . . ولكن الله قد جعل للأزواج الذين يرمون زوجاتهم فَرَجاً ومَخْرجاً . . فإذا تعسر على أحدهم إقامة البينة فعليه أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل فيحضرا أمام الإمام فيدعى عليها بما رماها به ويحلفه الحاكم أربع شهادات بالله وذلك في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) . . وقد قال الشافعية وطائفة كبيرة من العلماء أن الزوج إذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا الإيمان وحرمت عليه أبداً ووجب عليه أن يعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا اللهم إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين أي فيما رماها به (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) . . وهذا وحده هو الذي يدرأ عنها الحد . . ولقد خصها الله تعالى هنا بالغضب لأنه في الغالب لا يقدم الرجل على رمى أهله بالزنا إلا وهو صادق معذور لأنه غالباً يخشى الفضيحة والعار . . وهي تعلم أنه حين يرميها بما رماها به فهو صادق ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها . . قال ابن كثير : والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ب ـ عدم قبول شهادة القاذف (أو عدم الأهلية للشهادة) :

لقد اتفق الفقهاء على أنه يجب على القاذف مع الحد عدم قبول شهادته ما

لم يتب .. وحجتهم في ذلك قول الله تعالى : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا ».

أما بعد التوبة فقد اختلف الفقهاء :

١ ـ فقال مالك والشافعي تجوز شهادته .

٢ ـ وقال أبو حنيفة لا تجوز شهادته أبداً .

وسبب اختلافهم : هل الاستثناء في الآية السابقة يعود إلى الجملة جميعها أو إلى أقرب مذكور ؟ فأبو حنيفة رضي الله عنه قال : إن الاستثناء يعود إلى أقرب مذكور ومن ثم فإن التوبة ترفع عنه الفسق ولا تقبل شهادته .. ومالك والشافعي رأيا أن الإستثناء يتناول الأمرين جميعاً فقالا : التوبة ترفع الفسق ورد الشهادة .. وكون ارتفاع الفسق مع رد الشهادة أمر غير مناسب في الشرع .. أي خارج عن الأصول لأن الفسق متى ارتفع قبلت الشهادة .. وهذا الرأي في الواقع هو الأظهر وهو الذي يؤيده المنطق والعقل والأصول العامة للشريعة الغراء السمحة .

التوبة والحد : وإذا كان فقهاء الشريعة قد اختلفوا فيما بينهم بالنسبة لسقوط حد القذف بعفو المقذوف وتعددت في ذلك الآراء .. إلا أنهم اتفقوا على أن حد القذف لا تسقطه توبة الجاني وهو الأمر المسلم به بالنسبة للحدود في الشريعة الإسلامية اللهم إلا حد الحرابة أي الافساد في الأرض حيث أراد المشرع أن يشجع الخارجين على القانون بالعودة الى حظيرة التوبة فجعل التوبة المسقطة للحد تلك التي تحدث قبل القدرة من الإمام .

ثبوت جريمة القذف :

وتثبت جريمة القذف بأمرين :

أولاهما : الإقرار الصادر من الجاني وهو لا يحتاج معه دليل آخر .. ولا يشترط[1] العدد في الاقرار فيكفي أن يقر مرة واحدة في مجلس القضاء .. ولا

---

(١) التشريع الجنائي الاسلامي للشهيد عبد القادر عوده حـ ٢ ص ٤٨٩ .

أثر للرجوع في الإقرار عند أحمد وأبي حنيفة .. بل عند أبي حنيفة يجوز الشهادة على الإقرار لو حدث في غير مجلس القضاء .

ثانيهما : شهادة الشهود .. فلقد اتفق الفقهاء على أن الجريمة تثبت بشهادة شاهدين عدلين حرين ذكرين .. ولقد اختلف في مذهب الإمام مالك فيما إذا كانت الجريمة تثبت بشاهد ويمين وكذلك بشهادة النساء ؟ وهل تلزم في الدعوى فيه يمين ؟ واختلفوا أيضاً في حالة نكول الجاني : هل يقام عليه الحد بالنكول ويمين المدعى ؟ وفي يقيني أن هذا أمر لا يسلم به بسهولة وخاصة في الأزمنة التي ضربت فيها الذمم وفسدت فيها الضمائر وأصبحت الأيمان المغلظة وسيلة لكل باطل من الأمر في خارج المحاكم وداخلها .. وأحسب أنه لو أبيح إثبات حد مثل هذا بنكول الجاني ويمين المدعى لعم الكيد من ضعاف الدين فإن حد القذف فيه إيلام بدني للقاذف .. كما أن فيه تحقيراً من الجماعة كلها بعدم قبول شهادته وهو عقاب خطير راعى فيه الشارع الايلام النفسي الذي يسببه القاذف للمقذوف فجازاه بالإيلام البدني وراعى محاولة تحقيره للمجنى عليه بالافتراء الكاذب فجازاه بتحقير الجماعة بسقوط شهادته .. ومن ثم وجب في الاثبات أن يكون بالإقرار أو بشهادة الشهود العدول .. وهذا ما قال به الإمامان مالك وأحمد فلم يجيزا الاثبات باليمين في القذف فليس للقاذف أو المقذوف أن يستحلف الآخر .

د ـ حد السرقة :

وإذا[1] كنا قد تناولنا الخيانة وتحدثنا عنها باعتبارها شعبة من شعب النفاق وقلنا إنها تتناول أمرين : الأمر الأول الخيانة بمعناها العادي التي بدورها تنقسم إلى قسمين أحدهما السرقة واستشهدنا بما جاء في المصباح من أنه جاء فيه ـ وربما قيل كل سارق خائن دون عكس .. وما يؤيد ذلك مما جاء في سبب نزول الآيات (من ١٠٥ الى ١١٣سورة النساء) من أنها نزلت في سارق الدرعين بشر وقومه فوجب علينا أن نتناول حكم السرقة في الشريعة الإسلامية باعتباره حكماً

---

(١) راجع شعبة الخيانة .

خاصاً يتناول جانباً من جوانب النفاق .

أولاً ـ السرقة :

تعريفها : هي أخذ مال الغير مستتراً من غير أن يؤتمن عليه .. ولقد قالت العترة[1] والشافعية والحنفية انه لا يقطع المختلس والمنتهب والخائن .. وذهب أحمد وإسحاق وزفر والخوارج إلى أنه يقطع وذلك لعدم اعتبارهم الحرز في السرقة .. والمراد بالخائن هو من يأخذ المال خفية ويظهر النصح للمالك .. والمنتهب هو من ينتهب المال على جهة القهر والغلبة . والمختلس الذي يسلب المال على طريقة الخلسة .

ولقد قال ابن رشد في كتابة بداية المجتهد ونهاية المقتصد « أنهم أجمعوا أنه ليس في الخيانة ولا في الاختلاس قطع إلا إياس بن معاوية فإنه أوجب في الخلسة القطع ... وذلك مروى عن النبي عليه الصلاة والسلام .. وأوجب أيضاً قوم القطع على من استعار حلياً أو متاعاً ثم جحده **لمكان حديث المرأة المخزومية المشهور** « **أنها كانت تستعير الحلى وأن رسول الله ﷺ قطعها لموضع جحودها** » وبهذا قال أيضاً أحمد واسحاق (ا هـ) .

إلا أن الجمهور رد حديث المخزومية هذا وقالوا إنه مخالف للأصول .. وذلك لأن المعار مأمون وأنه لم يأخذ بغير إذن فضلاً أن يأخذ من حرز .. وقالوا : وفي الحديث حذف وهو أنها سرقت مع أنها جحدت .. **واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه حينما ذهب إليه يتشفع لها « إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه .. ثم قالوا إن هذا الحديث رواه الليث بن سعد عن الزهري بإسناده فقال فيه : إن المخزومية سرقت .. قالوا : وهذا يدل على أنها فعلت الأمرين جميعاً الجحد والسرقة .**

ثانياً ـ السارق :

يشترط في السارق أن يكون مكلفاً وسواء كان حراً أو عبداً مسلماً أو ذمياً ذكراً أو أنثى .. إلا أنه روى أن خلافاً حدث في الصدر الأول للإسلام بصدد

---

(١) راجع نيل الأوطار للشوكاني حـ ٧ ص ٣٠٤

قطع يد العبد الآبق إذا سرق .. ولقد روى ذلك عن ابن عباس وعثمان ومروان وعمر بن عبد العزيز .. إلا أن هذا الخلاف انتهى بعد هذا العصر .

ثالثاً ـ الشيء المسروق :

أما الشيء المسروق فقد اختلف الفقهاء في شرائطه .. وأهم شروطه :

أ ـ **النصاب** : والجمهور على اشتراطه وخالفهم في ذلك الحسن البصري والخوارج وطائفة المتكلمين واختلف الجمهور في قدره اختلافاً بيناً إلا أن المشهور قولان :

(١) وبه قال فقهاء الحجاز ومالك والشافعي وغيرهم فإنهم أوجبوا القطع في ثلاثة دراهم من الفضة وربع دينار من الذهب .. وهؤلاء أيضاً اختلفوا في تقويم الأشياء المسروقة مما عدا الذهب والفضة وذلك إذا اختلفت الثلاثة دراهم مع الربع دينار لاختلاف الصرف فالمشهور عند مالك أن التقويم يكون بالدراهم لا بالربع دينار .

والأصل عند الشافعي في تقويم الأشياء عموماً هو الربع دينار حتى الدراهم نفسها فلا قطع في الثلاثة دراهم إذا لم تساوي الربع دينار .. وقال بقول الشافعي الأوزاعي وأبو داود وأبو ثور .. وبقول الإمام مالك وهو المشهور ـ أعني التقويم بالدراهم ـ قال أحمد رضي الله عنه ... واحتج فقهاء الحجاز بما رواه مالك عن نافع عن ابن عمر **« أن النبي عليه الصلاة والسلام قطع في مجن قيمته ثلاثة دراهم »** .. **وحديث عائشة أوقفه مالك وأسنده البخاري ومسلم إلى النبي ﷺ أنه قال : « تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً »** .

(٢) أما فقهاء العراق فعندهم النصاب الذي يجب فيه القطع هو عشرة دراهم ولا يجب القطع أقل منه .. إلا أن جماعة منهم ابن أبي ليلى وابن شبرمة قالوا لا تقطع اليد في أقل من خمسة دراهم .. وقيل في أربعة دراهم .. وقال عثمان البتي لا قطع في أقل من درهمين .

واحتج أهل العراق بحديث ابن عمر ولكنهم اختلفوا معه في تقديره قيمة

المجن فقدره بثلاثة دراهم وقدروه بعشرة . . ولقد خالف ابن عمر رضي الله عنه كثير من الصحابة ممن رأى القطع في المجن في تقدير قيمته كابن عباس وغيره فقد روى ابن اسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما « كان ثمن المجن على عهد رسول الله ﷺ عشرة دراهم » .

واختلف الفقهاء في حالة سرقة الجماعة نصاباً دون أن يكون نصيب كل واحد منهم نصاباً إذا وزع عليهم وذلك بأن يخرجوا النصاب من الحرز . . فقال مالك والشافعي وأحمد « يقطعون جميعاً » . . إلا أن أبا حنيفة قال : « لا قطع عليهم إلا أن يكون ما أخذه كل واحد منهم نصاباً » .

ثم اختلفوا أيضاً في تقدير قيمة المسروق من حيث الوقت الذي يجب أن يقدر فيه . . فقال مالك : يوم السرقة . . ورأى أبو حنيفة أن يكون ذلك يوم الحكم عليه بالقطع .

ب ـ الحرز :

والشرط الثاني الذي اشترطه الفقهاء في الشيء المسروق هو الحرز :

والجمهور يحتج في اشتراط الحرز بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لا قطع في ثمر معلق ولا في مريسة جبل فإذا أواه المُراح أو الحَرِين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن » . . إلا أن أهل الظاهر يرون القطع على من سرق النصاب وإن سرقة من غير حرز . . واحتجوا بعموم قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . . . . الآية . . . وقالوا إنه لا تخصيص إلا بالسنة الثابتة وردوا حديث عمرو بن شعيب لموضع الاختلاف الواقع في أحاديثه .

والحرز هو ما من شأنه أن تحفظ به الأموال كي يعسر أخذها مثل الأغلاق والحظائر وما شاكل ذلك . . إلا أن الفقهاء اتفقوا على أن باب البيت وغلقه حرز . . واختلفوا بالنسبة للأوعية . . واختلفوا في الدار المشتركة . . واختلفوا في القبر هل هو حرز فيجب على النباش القطع أم لا ؟ فقال مالك والشافعي وأحمد وجماعة منهم عمر بن عبد العزيز : أن القبر حرز وأن على النباش

القطع : . وخالفهم في ذلك أبو حنيفة وسفيان الثوري كما روى ذلك عن زيد بن ثابت .

إلا أن معنى الحرز عند مالك أوسع . . فهو كل شيء جرت العادة بحفظ ذلك الشيء فيه . . فمرابط الدواب عنده أحراز وكذلك الأوعية وما على الإنسان من اللباس . . وإذا توسد النائم شيئاً فهو حرز له . . . ولقد اتفق القائلون بالحرز على أن كل من سمى مخرجاً للشيء من حرزه وجب عليه القطع وسواء كان داخل الحرز أو خارجة .

جـ - أن يكون الشيء المسروق مما يجوز بيعه وأخذ العوض منه :

فلقد اتفق العلماء على أن كل متملَّك غير ناطق يجوز بيعه وأخذ العوض منه فإنهم أوجبوا القطع في سرقته . . إلا أنهم اختلفوا في الأشياء الرطبة المأكولة وكذا الأشياء التي أصلها مباحة . . والجمهور لا يفرق بين شيء من هذا ويرى فيها جميعاً القطع محتجين في ذلك بعموم الآية الموجبة للقطع وكذا عموم الآثار الواردة في اشتراط النصاب .

إلا أن أبا حنيفة يرى أنه لرأيه بقوله عليه الصلاة والسلام « **لا قطع في ثمر ولا كثْر** » وذلك أن هذا الحديث روى هكذا مطلقاً من غير زيادة . . وعمدته في منع القطع فيما أصله مباح الشبهة التي فيه لكل مالك . . لأن من شروط الشيء المسروق ألا يكون للسارق فيه شبهة ملك . . ولقد اختلفوا في سرقة المصحف فقال مالك والشافعي يقطع سارقه وقال أبو حنيفة ولا يقطع .

د - ألا يكون للسارق فيه شبهة ملك :

فإذا كان للسارق في الشيء المسروق شبهة ملك فلا قطع . . وقد اتفق العلماء على أن شبهة الملك القوية تدرأ هذا الحد . . ولقد اختلفوا فيما هو شبهة يدرأ من ذلك مما لا يدرأ منها فمنها العبد يسرق مال سيده فإن الجمهور من العلماء على أنه لا يقطع ... ويدرء الحد قال عمر رضي الله عنه وابن مسعود ولا مخالف لهما من الصحابة . . إلا أن أبا ثور قال بالقطع في هذه الحالة ولم يشترط شرطاً . . وقال أهل الظاهر : يقطع إلا أن يأتمنه سيده .

وإذا سرق أحد الزوجين من مال الآخر فإن الامام مالك قال : إذا كان كل واحد يتفرد ببيت فيه متاعه فالقطع على من سرق من مال صاحبه . . والشافعي يرى أن الإحتياط ألا قطع على أحد الزوجين لشبهة الاختلاط وشبهة الملك . . وروى عنه مثل قول مالك .

وبالنسبة للقرابات : فإن مالك يرى ألا يقطع الأب **لسرقته من مال ابنه لقول رسول الله ﷺ «أنت ومالُك لأبيك**[1] **ويقطع ما سواهم من القرابات** . . والشافعي رضي الله عنه يقول : لا يقطع عمود النسب الأعلى والأسفل يعني الأب والأجداد والأبناء وأبناء الأبناء . . وأبو حنيفة رضي الله عنه يرى أنه لا يقطع ذو الرحم المحرمة .

رابعاً ـ القصد الجنائي[2] :

لا بد أن يتوافر لدى الجاني القصد الجنائي . . فالأخذ خفية وحده لا يعتبر سرقة وإنما يعتبر الأمر كذلك متى تواجد القصد الجنائي . . ويتوفر هذا القصد الجنائي متى أخذ الجاني الشيء وهو يعلم أن أخذه محرم دون علم المجنى عليه ودون رضاه . . ولا بد كذلك من توفر نية التملك لدى الجاني .

فمن أخذ شيئاً ولا يقصد تملكه كأن يأخذه على سبيل الدعابة أو الإستعارة فلا حد عليه . . وكذلك أخذ الشيء وإعدامه في مكانه لا يعتبر سرقة إلا عند أهل الظاهر لأنهم لا يعتدون بالحرز . . وكذلك الحكم بالنسبة للطعام أو الشراب أو الطيب كل ذلك لو استهلك في محله فهو عند أهل الظاهر سرقة مخالفين بذلك رأي جمهور الفقهاء فهم لا يرون في كل هذا سرقة إلا إذا أخرج الشيء من حرزه ثم استهلك أو أتلف فهو سرقة لا إتلاف .

ولا يعد سرقة الدائن الذي يأخذ شيئاً لمدينه بقصد حبسه تحت يده حتى يتقاضى حقه . . ولا أن يستولي المؤجر على العين المؤجرة . . ولا يعاقب بالقطع بل قد يعاقب بالتعزير من أخذ مال حربي أو مال باغ بقصد تملكه .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه ـ المرجع صحيح الجامع الصغير حـ٢ ص ٢٥ الحديث ١٤٩٨ .

(٢) راجع التشريع الجنائي الإسلامي حـ٢ الطبعة الأولى ص ٦١٠ .

وإذا أكره الجاني على السرقة بتهديده بالقتل أو أكره إكراهاً مادياً أو أدبياً لا عقاب عليه . . ومن سرق ليرد جوعاً أو عطشاً مهلكاً لا عقاب عليه وكل مضطر عموماً لقوله تعالى : ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه** ﴾ . . ولا يقطع السارق غير المضطر في عام المجاعة وإنما يعاقب بعقوبة تعزيريه .

وإذا سرق الحربى أو الباغي فلا قطع على أحدهما لأنه لا قطع على غير مكلف . . وكذلك لا يقطع المجنون أو المعتوه أو الصغير غير المميز . . ولكن امتناع حد القطع في السرقة قد لا يمنع من عقوبة التعزير كما في حالة الصبي الذي يزيد سنه على سبع سنين ولم يبلغ خمسة عشر فعقوبته هنا عقوبة تأديبية .

خامساً ـ عقوبة السرقة :

أ ـ الغُرْم أو الضمان :

اتفق الفقهاء على أن الغرم واجب إذا لم يجب القطع ولكنهم اختلفوا هل يجمع الغرم مع القطع ؟ . . ولهم في ذلك ثلاثة آراء :

الأول : وقد قال به أحمد والشافعي والليث وأبو ثور وجماعة وهو أن على الجاني الغرم مع القطع .

الثاني : وقد قال به مالك وأصحابه ففرقوا بين أمرين : إن كان موسراً اتبع السارق بقيمة المسروق وإن كان معسراً لم يتبع به إذا أثرى . . واشترط مالك دوام اليسر إلى يوم القطع فيما حكى عنه ابن القاسم .

الثالث : قاله قوم منهم أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وهو : أنه ليس عليه غرم إذا لم يجد المسروق منه متاعة بعينه . . فأبو حنيفة وأصحابه يرون عموماً أن للمالك استرداد المسروق بعد القطع ما دام المسروق لم يستهلك .

وحجة من جمع بين القطع والضمان أنه اجتمع في السرقة حقان : حق لله وحق للآدمي فاقتضى كل حق موجبه . . وإذا كانوا قد أجمعوا على أخذه منه إذا وجد بعينه لزم إذا لم يوجد بعينه عنده أن يكون في ضمانه قياساً على سائر الأموال الواجبة .

واحتج الكوفيون في عدم الجمع بين الضمان والقطع **بحديث عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال : « لا يغرم السارق إذا أقيم عليه الحد »** .. **وهذا الحديث مضعف عند أهل الحديث .. قال أبو عمر : لأنه عندهم مقطوع .. قال : وقد وصله بعضهم وخرَّجه النسائي** ... ويرى الكوفيون أن اجتماع حقين في حق واحد مخالف للأصول .. ويقولون إن القطع هو بدل من الغرم .. ومن ثم يرون أنه إذا سرق شيئاً ما فقطع فيه ثم سرقه ثانياً أنه لا يقطع فيه أما تفرقة الإمام مالك فاستحسان على غير قياس .

ب ـ القطع :

وذلك لقوله تعالى :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ﴾ .

وعقوبة السرقة لا يجوز العفو فيها من رئيس الدولة ولم يخالف في ذلك إلا الشيعة الزيدية حيث يرون أن للإمام مع وجوب إقامة الحد أن يسقط العقوبة عن بعض الناس لمصلحة .. وله أن يؤخر إقامتها[1] إلى وقت آخر لمصلحة .. على أن بعضهم يرى أنه ليس للإمام إسقاط حد القذف ولا حد السرقة .

وبالنسبة للمسروق منه فقد اتفقوا على أن لصاحب السرقة أن يعفو عن السارق ما لم يرفع ذلك إلى الإمام **لما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « تعافوا الحدود بينكم فما بلغني من حد فقد وجب » وقوله عليه الصلاة والسلام « لو كانت فاطمة بنت محمد لأقمت عليها الحد »** ... **واحتجوا بحديث صفوان ابن أمية قال : كنت نائماً في المسجد على خميصه[2] فسُرِقَت فأخذنا السارق فرفعناه إلى رسول الله ﷺ فأمر بقطعه فقلت يا رسول الله أفي خميصة ثمن ثلاثين درهماً أنا أهبها له أو أبيعها له قال : فهلا كان قبل أن تأتين .. (رواه الخمسة إلا الترمذي) وفي رواية لأحمد والنسائي « فقطعه رسول الله ﷺ » .. قال الشوكاني في كتابه نيل الأوطار : حديث**

---

(١) راجع التشريع الجنائي الإسلامي حـ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

صفوان أخرجه مالك في الموطأ والشافعي والحاكم من طرق منها عن طاووس عن ابن عباس .. قال البيهقي وليس بصحيح .. ومنها عن طاووس عن صفوان قال ابن عبد البر سماع طاووس عن صفوان ممكن لأنه أدرك زمن عثمان .. وروى عنه أنه قال : أدركت سبعين صحابياً .. ورواه مالك عن الزهري عن عبيد الله بن صفوان عن أبيه .. وقد صححه ابن الجارود والحاكم وله شاهد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال الحافظ وسنده ضعيف .. ورواه البزار والبيهقي عن طاووس مرسلاً .. ورواه أيضاً البيهقي عن الشافعي عن مالك أن صفوان بن أمية ... الحديث .. وأخرج أيضاً البيهقي من حديث حميد ابن أخت صفوان عن صفوان» (انتهى) .

واختلف الفقهاء في السارق يسرق ما يجب فيه القطع فيرفع أمره إلى الإمام وقد وهبه المسروق منه ما سرقه أو يهبه له بعد الرفع وقبل القطع .. فقال مالك والشافعي عليه الحد وهو ما عليه الجمهور وعمدتهم في ذلك حديث صفوان بن أمية السابق ذكره .

وقال أبو حنيفة وطائفة : لا حد عليه ... وذهب الشيعة الزيدية إلى أن القطع عموماً يسقط عن السارق يعفو المجنى عليه في السرقة سواء في ذلك قبل وصول الأمر إلى الأمام أو بعده كما أنهم يرون في حالة تعدد المجنى عليهم وجب صدور عفو من كل منهم حتى يسقط القطع .

محل القطع :

أما محل القطع[1] فهو اليد اليمنى باتفاق من الكوع وهو الذي عليه الجمهور .. وذهب قوم إلى قطع الأصابع فقط .. واختلفوا في حالة العود للسارق الذي سبق قطع يده اليمنى في السرقة .. فقال أهل الحجاز والعراق تقطع رجله اليسرى بعد اليد اليمنى .. وقال بعض أهل الظاهر وبعض التابعين تقطع اليد اليسرى بعد اليد اليمنى ولا يقطع منه غير ذلك .

ثم اختلف مالك والشافعي وأبو حنيفة في حالة العود بعد قطع رجله

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد .

اليسرى .. أعني في حالة السرقة الثالثة هل يقف القطع أم لا ؟.. فقال مالك والشافعي : إن سرق ثالثة قطعت يده اليسرى ثم إن سرق رابعة قطعت رجله اليمنى .... وقال سفيان وأبو حنيفة : يقف القطع في الرجل وإنما عليه في الثالثة القدم فقط .. وكلا القولين مروي عن عمر وأبي بكر رضي الله عنهما .

وعمدة الذين لم يروا إلا قطع اليد قوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ **وأنه تعالى لم يذكر الأرجل** إلا في المحاربين فقط .. وحجة الذين قالوا بقطع الرجل بعد اليد ما **روى أن النبي** ﷺ **أتى بعبد سرق فقطع رجله ... وروى هذا من حديث جابر بن عبد الله وفيه « ثم أخذه الخامسة فقتله » .. إلا**[1] **أنه منكر عند أهل الحديث ويرده قوله عليه الصلاة والسلام « هن فواحش وفيهن عقوبة » ولم يذكر قتلاً .. وكذلك احتجوا بحديث ابن عباس « أن النبي ﷺ قطع الرجل بعد اليد »** وقال مالك يؤدب في الخامسة .

فإذا ذهب محل القطع من غير سرقة بأن كانت اليد شلاء ففي مذهب المالكية قيل ينتقل القطع إلى اليد اليسرى وقيل إلى الرجل .. وفي مذهب الإمام أحمد إذا كانت اليد اليمنى شلاء قطعت الرجل اليسرى .. إلا أن الرأي الأخير وكذلك عند الشافعي تقطيع اليد أو الرجل ولو كانت شلاء إلا إذا خيف من قطعها ألا يكف الدم .. ويكتفي الشافعي بقطع اليد ما دام فيها إصبع واحد .

ومن المتفق[2] عليه بين الفقهاء أن القطع يسقط إذا ذهب العضو المستحق القطع بسبب وقع بعد السرقة لا قبلها سواء كان ذلك ناتجاً عن آفة أو قصاص أو جناية .

موضع القطع :

يرى الأئمة الأربعة والظاهريون والشيعة الزيدية أن موضع القطع من اليد هو مفصل الزند .. ولكن يرى الخوارج القطع من المنكب .. أما الشيعة

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد .

(٢) التشريع الجنائي الاسلامي حـ٢ ص ٦٢٥ .

الإمامية فعندهم القطع من أصول الأصابع فلا يقطع الكف .. وحجة الخوارج في القطع من المنكب أن اليد تطلق على الذراع كله .

وتقطع الرجل من مفصل الكعب وحجة القائلين بالقطع من مفصل الكعب في الرجل ومن مفصل الزند في اليد أن أقل ما يطلق على اليد هو الكف والأصابع وأن العمل جرى على ذلك من عهد رسول الله ﷺ على القطع من هذين المفصلين .

ويرى الشيعة الإمامية أن القطع من مقعد الشراك ليبقى للسارق عقب يمشي عليه .. واحتجوا بأن علياً رضي الله عنه قطع أصابع اليد دون الكف وقطع القدم دون الكعب .

سادساً ـ في أدلة السرقة :

أولاً ـ البينة أي شهادة الشهود :

تثبت السرقة بشهادة شاهدين اثنين .. فإن قل العدد عن ذلك أو كان أحدهما شاهد رؤية والآخر شاهد سماع فلا قطع بشهادتهما .. وتقبل شهادة رجل وامرأتين .. وقيل تثبت السرقة بشهادة شاهد ويمين المدعي .. وقيل بشهادة شاهد رؤية وشاهدي سماع .

ثانياً ـ الإقرار :

قال قوم الإقرار مرتين أو ثلاثة .. وأقل ما يلزم به القطع في السرقة مرتان .. وإلى [illegible] ا ذهبت العتزة وابن أبي ليلى وابن شبرمه وأحمد بن حنبل واسحاق [illegible] يوسف واحتجوا لرأيهم بحديث عن رسول الله ﷺ وأثر عن [illegible] نه وآثار عن بعض الصحابة :

[illegible] :

[illegible] ومي أن رسول الله ﷺ أتى بلص فاعترف اعترافاً ولم يوج[illegible] ال له رسول الله ﷺ : ما أخالك سرقت ؟ قال : بلى مرتين [illegible] رسول الله ﷺ : اقطعوه ثم جيئوا به .. قال فقطعوه

ثم جاءوا به فقال رسول الله ﷺ : قل استغفر الله وأتوب إليه .. فقال : أستغفر الله وأتوب أليه .. فقال رسول الله ﷺ : اللهم تب عليه ... رواه أحمد وأبو داود وكذلك النسائي ولم يقل فيه مرتين أو ثلاثاً وابن ماجه ودكر مرة ثانية فيه قال ما أخالك سرقت .

(٢) أما الأثر المروي عن علي رضي الله عنه فهو :

(عن القاسم بن عبد الرحمن عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : « لا يقطع السارق حتى يشهد على نفسه مرتين » .. حكاه أحمد في رواية منها واحتج به) .

وقال قوم أنه يكفي الإقرار مرة واحدة وهو مروي عن أبي يوسف ومالك والشافعية والحنفية .

وإذا أقر الجاني ورجع عن إقراره لم يقطع لأن العدول شبهة في صحة الإقرار .. وقد ذهب مالك وأحمد والظاهريون إلى أنه في حالة عدول المتهم عن إقراره وكانت الجريمة ثابتة بشهادة الشهود لم يلتفت إلى عدوله وقطع بناء على ثبوت الجريمة بالبينة .. واختلفوا في إقرار العبد على نفسه .. فقال جمهور فقهاء الأنصار إن ذلك موجب لحده وليس يوجب عليه غرماً .. وقال زفر وشريح والشافعي وقتادة وجماعة : لا يجب إقرار العبد على نفسه بما يوجب قتله ولا قطع يده لكونه مالاً لمولاه .

ثالثاً ـ اليمين :

في مذهب الإمام الشافعي رأى أن السرقة تثبت باليمين المردودة فإذا لم يكن هنالك شهود ولا إقرار فنكل السارق عن اليمين فحلفها المدعى قطع السارق لأن اليمين المردودة في هذا الرأي كالإقرار والبينة وكل منها وسيلة من وسائل الإثبات .

إلا أن الرأي الراجح في مذهب الشافعي يتفق مع مذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة أنه لا قطع باليمين المردودة وإنما يثبت بها المال المسروق فقط .

ثانياً - حكمهم بعد الموت :

أ - النهي عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم :

وذلك لقوله تعالى :

﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ (التوبة ٨٤) .

قال ابن كثير في تفسيره :

(أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري :

حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن عبيد الله بن نافع عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله **إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام** رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ **فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنما خيّرني الله فقال : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ وسأزيده على السبعين »** . . قال إنه منافق . . قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية **﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ . . وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة حماد بن أسامة به .**

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب الحديث جاء فيه :

« فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . . .﴾** الآية . . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل » . . وهكذا رواه الترمذي في التفسير من

حديث محمد بن إسحاق عن الزهري به وقال حسن صحيح .

هذا حكم المنافقين بعد موتهم . . ولقد وردت أحاديث كثيرة تفيد أنه بعد نزول هذه الآية كان رسول الله ﷺ لا يصلي على أحد من المنافقين . . وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لا يصلى على من جهل حاله حتى يرى حذيفة بن اليمان يصلى عليه لأنه كان صاحب سر رسول الله ﷺ وهو الذي كان يعرفهم دون كافة الصحابة رضوان الله عليهم . . ولقد جاء هذا الحكم رادعاً للمنافقين ممتهناً لكرامتهم التي أهدروها بخيانتهم وغدرهم . . وقد وردت أحاديث في هذا المعنى أذكر منها :

١ ـ قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن أبيه حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها فإن أثني عليها خيراً قام فصلى عليها وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصلِّ عليها .

٢ ـ وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه[١] حذيفة كأنه أراد أن يصده .

٣ ـ وقد روى أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصلّ عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه . . فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم[٢] . . فقال : نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ . . قال : اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

ب ـ حكمهم في الآخرة :

لقد نادى الله تبارك وتعالى المنافقين الى التوبة مراراً ولكنهم لم يرتدعوا . . ولقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإنابة كثيراً وطلب منهم أن يستغفروا ويغفر لهم ولكنهم كانوا في كل مرة يخرجون من عنده وهم أشد إصراراً على الباطل وأكثر

(١) فمرزة : قرصه بأطراف أصابعه في لغة أهل اليمامة .

(٢) إنه منهم : يعني من المنافقين .

استمساكاً بأهداب الشر والرذيلة . . فكان من الطبيعي أن يأمر الله تبارك وتعالى رسوله والمؤمنين بالقسوة عليهم والشدة معهم . . وأن ينزل جلت قدرته ما سبق أن وضحته من أحكام شديدة رادعة لتنفذ على المصرين منهم على الإثم في الدنيا حتى أنه تبارك وتعالى لم يكتف بتنفيذ العقوبات عليهم فحسب وإنما أمر امتهاناً لهم وحطاً من قدرهم وردعاً لغيرهم ألا يحضر رسول الله ﷺ لهم جنازة قط وألا يصلي على جثثهم وألا يقوم على قبورهم مستغفراً أو زائراً .

ولقد توعدهم جلت قدرته بعذاب أليم في الآخرة . . وجاء ذلك في أكثر من موضع في كتاب الله علهم يتوبون أو يذكرون . وماذا ينتظر المرء لأقوام آذوا الله ورسوله والمؤمنين وكادوا للدعوة وجنودها ولم يروا موطناً من موطن الرذيلة إلا وارتادوه ولم يعلموا عن إثم إلا وارتكبوه . . فكان من الطبيعي ألا يكون لهم جزاء غير نار جهنم يخلدون فيها . . يكونون لها وقوداً وتكون لأبدانهم عذاباً ولأعمالهم جزاء يرجعهم إلى صوابهم . . ولكن متى ؟ . . حين لا ينفعهم رجوعهم إلى الحق وحين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا تحجز عنهم توبتهم عذاباً أو عقاباً . . ولقد جاءت الآيات تهددهم وتتوعدهم . . وسأتلو عليكم بعضها :

١ - ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزى العظيم *﴾ (التوبة ٦٧) .

٢ - ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم *﴾ (التوبة ٦٨) .

٣ - ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً *﴾ (الأحزاب ٧٣) .

٤ - ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً *﴾ (النساء ١٤٥) .

وفي كتاب الله آيات كثيرة تهدد المنافقين وتتوعدهم وتبين ما أعده الله لهم من عذاب في الآخرة وما هيأ لهم من جحيم يخلدون فيه مهانين معذبين

مستذلين . . ولقد كان كل ذلك خليقاً بأن يردعهم أو يردهم إلى الجادة . . ولكن . . هل ترتدع أفئدة بلا قلوب ؟ وهل تثوب إلى الرشد رءوس بلا عقول ؟!!

خاتمة ونهاية

وهنا قلت : لقد تكررت جلساتنا التي كنا نعقدها من بعد صلاة العشاء من كل ليلة حتى قرب صلاة الفجر . . ولقد طال بنا الحديث الليلة وأصبحنا في ساعة متأخرة من الليل وكلنا يود أن يأخذ قسطاً يسيراً من النوم ثم يقوم ليدرك صلاة الليل ويجد عنده النشاط الكافي ليؤدي صلاة الفجر . . ولعلي استطعت في هذه اللمحة السريعة الخاطفة أن أوجز لكم شيئاً عن النفاق والمنافقين . . ولعلي بعد أن وضحت لكم شعب النفاق أكون بذلك قد قربت إلى أذهانكم صورة صحيحة لشخصية المنافق وأكون بهذا قد أبنت عن الخلل التي إن توفرت في انسان ما تستطيعون الحكم عليه بالنفاق . . وبهذا أكون قد انتهيت مما كلفتموني به .

ولم أكد أتم هذه العبارة حتى انطلق أحد الجالسين يقول : ولكنك لم تتعرض لصاحبنا الذي كان السبب في هذا الحديث . . . قلت : أو لم يكفك كل هذا لتكون فكرة سليمة عن صاحبك ؟! . . لقد ادعيتم أن صاحبكم لا يفي بوعده . . وإن صح ما تقولون فقد اتصف باحدى شعب النفاق . . ولقد زعمتم أنه رجل تأخذه العزة بالإثم وادعيتم انه انسان متكبر . . وقلتم فوق كل هذا وذاك أنه رجل يحب الظهور . . وحب الظهور هذا رياء . . وهذه كلها شعب للنفاق . . فإن صح ما قلتم فقد جمع صاحبكم في قلب واحد أربعاً من شعب النفاق . . وهذه طامة كبرى !!

قال آخر : وما عسانا أن نفعل لهذا التعس ؟ قلت : خذوا بيد صاحبكم إلى الله وانصحوه وبالغوا له في ذلك وخوفوه عذاب الله وعقابه ورغبوه في التوبة وادعوا له في صلواتكم أن يبرأه الله من النفاق .. فلقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو الله لذلك .. ولست أظن أو أعتقد إن أخلصتم في نيتكم وأقبلتم على صاحبكم وكلكم رأفة وشفقة وشعر منكم هو بذلك ما أظنه سيعرض عن نصحكم أو سيصم الآذان عن قولكم .. وما أحسبه إلا سيقبل على الله بنفس مشرقة إن كان فيه بقية من خير .

ثم هممت بالانصراف فابتدرني أحدهم متسائلاً في حدة وغضب :

ولكن .. إذا لم تُجدْ كل هذه الأساليب فما عسانا أن نفعل ؟ .. قلت : لا تتعجل الحوادث يا صديقي ولا تسبق الأيام .. وماذا عليك لو أتبعت المرة بالأخرى والنصيحة بأختها والعظة بالرجاء ... ثم بعد ذلك يكون التفكير فيما سألت .

ثم غادرنا منزل الصديق جميعاً وسار كل منا يريد بيته ويهرول صوب داره والنوم يداعب أجفاننا .. قلت لنفسي : أجل .. لقد أتعبنا حديثنا الليلة عن النفاق والمنافقين كما أتعبتنا فعالهم .. وهل يكون هؤلاء إلا مصدراً للتعب والشقاء ؟! قلت : صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً *﴾ .

تم بحمد الله وعونه

الآيات التي نزلت في المنافقين

مسلسل	اسم السورة	أرقام الآيات
١	البقرة	(من ١٨ إلى ٢٠) ـ (من ٢٠٤ إلى ٢٠٦) ـ ٧٦ ، ٧٧
٢	آل عمران	٧٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، من ٨٦ إلى ٨٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، من ١٧٥ إلى ١٧٩ .
٣	النساء	٣٨ ، ٣٩ ، من ٦٠ إلى ٦٨ ، من ٧٢ إلى ٧٦ ، من ٧٨ إلى ٨٢ ، من ٨٨ إلى ٩١ ، من ١٠٥ إلى ١١٥ ، من ١٣٧ إلى ١٤٧ .
٤	المائدة	٤١ ، من ٥١ إلى ٥٣ ، من ٥٧ إلى ٦٢ .
٥	الأعراف	من ١٧٥ إلى ١٧٧ (المراجع التي لدينا لم تورد هذا ـ يرجع إلى باقي المراجع للبحث عن شأنها ـ فيها نظر .
٦	الأنفال	٣٧ ، ٤٩ ، وآية ٦٠ ذكر ذلك ابن حزم وقال انهم هم المعنيون بقوله تعالى ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمهم ﴾ .

٧	التوبة	من ٤١ إلى ١١٠ ، ومن ١٢٣ إلى ١٢٧ .
٨	الحج	١١ ، ١٢ ، ١٣
٩	النور	٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، من ٤٧ إلى ٥٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، من ١١ إلى ٢١ .
١٠	العنكبوت	١٠ ، ١١
١١	الأحزاب	من ١٢ إلى ٢٠ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٣
١٢	محمد	من ١٦ إلى ٣٠
١٣	الفتح	٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ .
١٤	الحديد	١٣ ، ١٤ ، ١٥ .
١٥	المجادلة	٨ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ٧ .
١٦	الحشر	من ١١ إلى ٢٠
١٧	المنافقون	من ١ إلى ١١ أي كلها
١٨	المدثر	٣١
١٩	الماعون	٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧
٢٠	التحريم	٩

المراجع الهامة للبحث

١ ـ تفسير ابن كثير « طبعة مصطفى محمد »
٢ ـ تفسير أبي السعود « طبعة إدارة طباعة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية الملابوية » .
٣ ـ تفسير البيضاوي .
٤ ـ تفسير الجلالين .
٥ ـ جامع البيان في تفسير القرآن ـ للإمام الصفوي تصحيح محمد حامد الفقي .
٦ ـ كتاب لباب النقول في أسباب النزول ـ للسيوطي .
٧ ـ أسباب النزول ـ للواحدي .
٨ ـ أحكام الناسخ والمنسوخ ـ لابن حزم
٩ ـ الإتقان ـ للسيوطي
١٠ ـ مناهل العرفان ـ للزرقاني .
١١ ـ سيرة ابن هشام ـ شرح مصطفى السقا وزميليه .
١٢ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ طبعة جمعية الجهاد الاسلامي .
١٣ ـ السيرة الحلبية ـ لعلي بن برهان الدين الحلبي الشافعي .
١٤ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ـ للشيخ محمد الخضري بك
١٥ ـ محمد (ﷺ) ـ لمحمد رضا .

١٦ ـ حياة محمد ـ لهيكل باشا
١٧ ـ سيرة الرسول ـ لمحمد عزة دروزة .
١٨ ـ صحيح البخاري .
١٩ ـ شرح النووي « صحيح مسلم » ـ للإمام النووي .
٢٠ ـ الجامع الصغير ـ لجلال الدين السيوطي .
٢١ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي
٢٢ ـ الترغيب والترهيب ـ للمنذري (طبعة ادارة الطباعة المنيرية) .
٢٣ ـ رياض الصالحين ـ للإمام النووي .
٢٤ ـ الوابل الصيت من الكلم الطيب ـ لابن قيم الجوزية .
٢٥ ـ المحلى ـ لابن حزم .
٢٦ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ـ لابن رشد .
٢٧ ـ نيل الأوطار ـ للشوكاني .
٢٨ ـ احياء علوم الدين ـ للإمام الغزالي .
٢٩ ـ صفة النفاق وذم المنافقين ـ للإمام أبي بكر جعفر بن محمد الفريالي .
٣٠ ـ الرسالة (الطب النبوي) ـ لابن القيم .
٣١ ـ أشهر مشاهير الإسلام ـ لرفيق بك النظم .
٣٢ ـ عثمان بن عفان ـ للشيخ صادق عرجون .
٣٣ ـ القضايا الكبرى في الإسلام ـ للشيخ محمد عبد المتعال الصعيدي .
٣٤ ـ مختصر شعب الإيمان للبيهقي ـ الإمام ابو جعفر عمر القزويني (طبعة ادارة الطباعة المنيرية) .
٣٥ ـ التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالتشريع الوضعي (الطبعة الأولى) للشهيد الاستاذ عبد القادر عودة .

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة



الصفحة